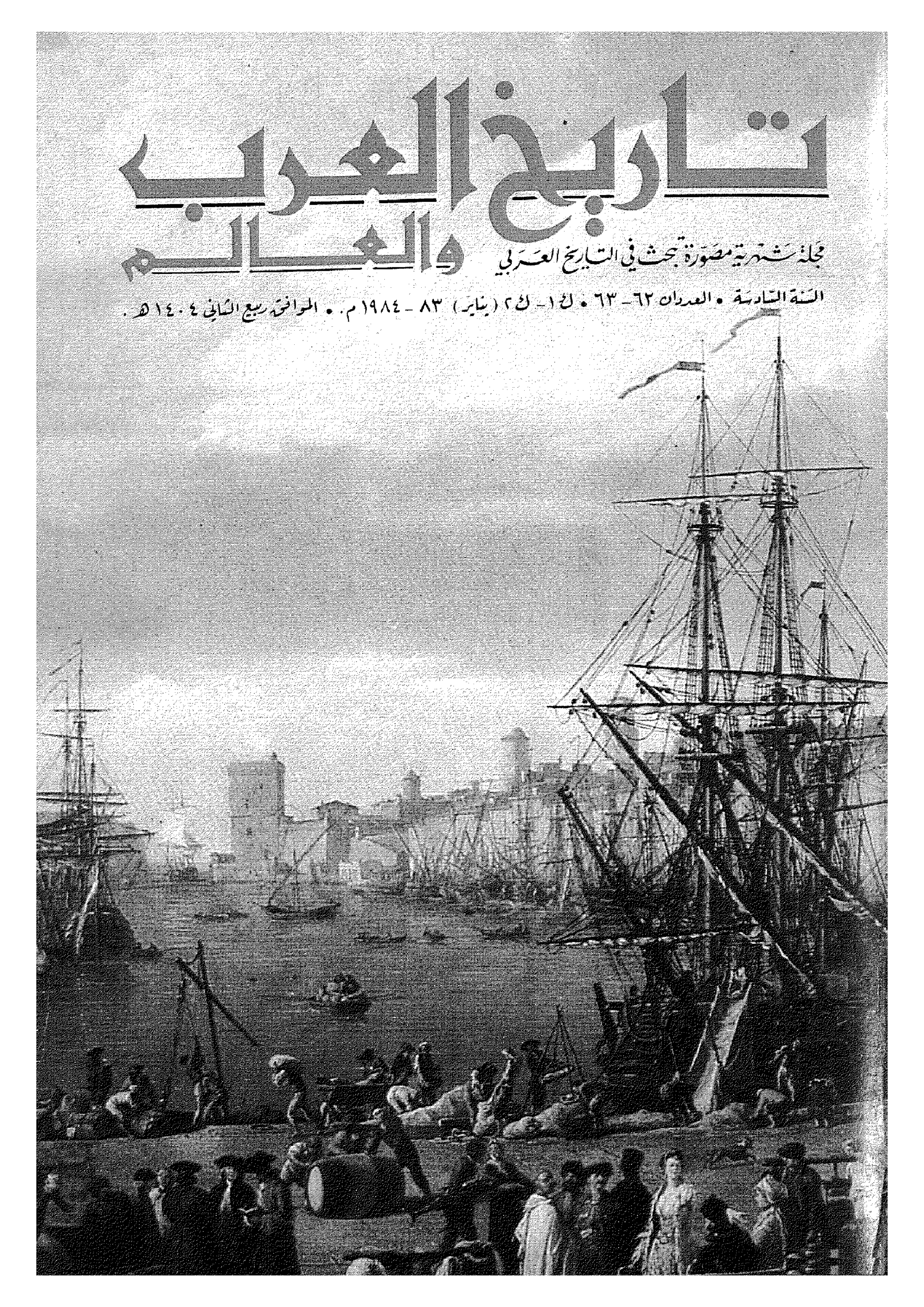


تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة السادسة • العددان ٦٢ - ٦٣ • ك١ - ك٢ (يناير) ٨٣ - ١٩٨٤ م . • الموافق ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ .



□ مدينة صور: حضارة ونضال ضد الأجنبي منذ آلاف السنين.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بالتاريخ العربي والعالمي

العددان ٦٢/٦٣ ــ ك١/ك٢ ــ ٨٣/١٩٨٤م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

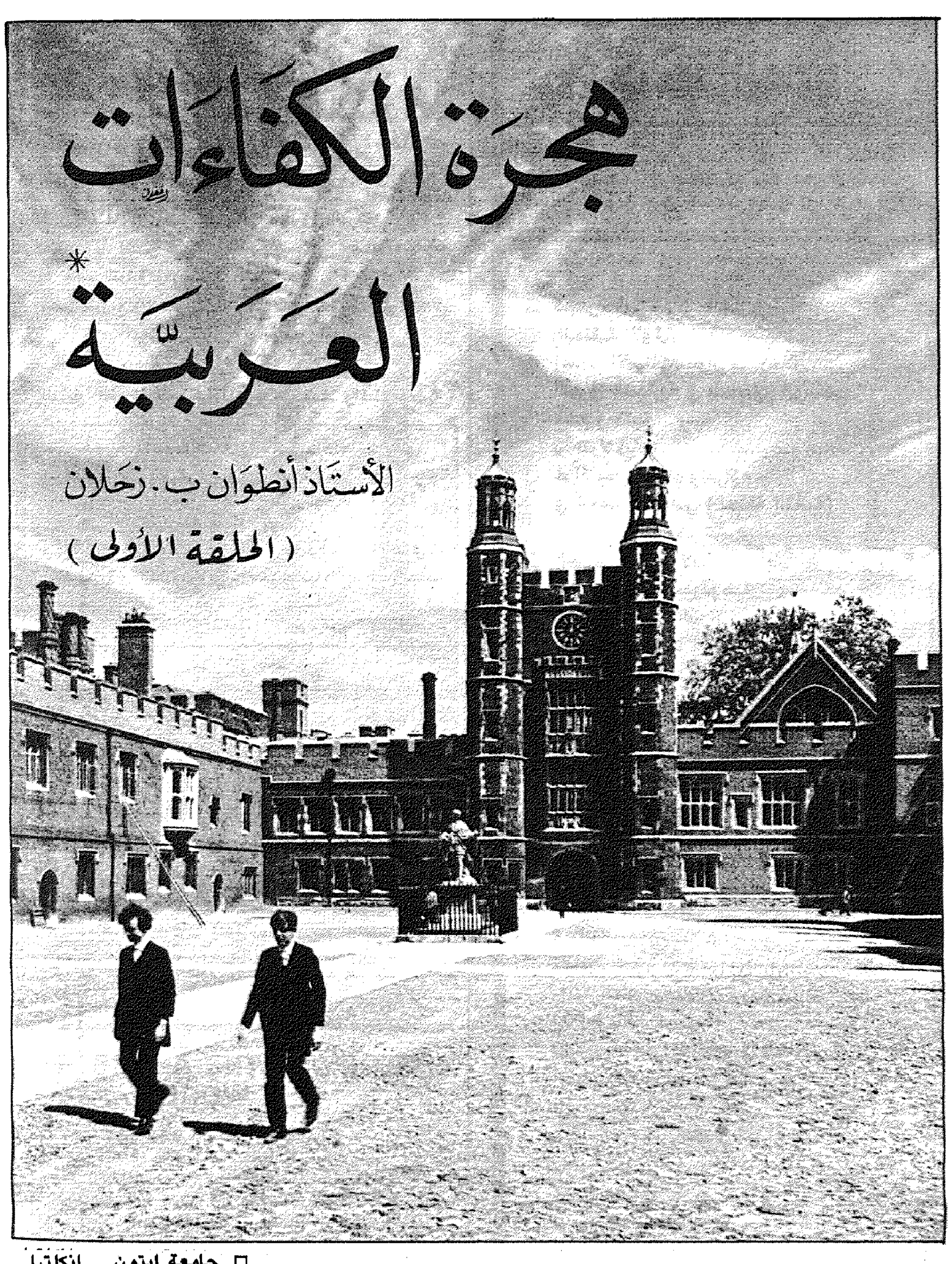
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 6 - No. 62/63 - Dec./Jan. 83/1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



□ جامعة ايتون ــ انكلترا.

□ الأستاذ انطوان ب. زحلان: استاذ زائر ــ جامعة سكس.

(*) يشكل هذا البحث موجزا عن الدراسة التي قدمت إلى ندوة السكان والتنمية في منطقة اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا والتي عقدت في عمان، الأردن، بين ١٨ و ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨.

تتضمن هذه الدراسة المعلومات المتاحة عن تحركات القوى العاملة العربية ذات المستويات العالية. ولقد تناولنا فيها التعقيدات الخاصة بالتدفقات، وكذلك النقص وعدم الدقة في المعطيات. اضف إلى ذلك، ان صورة كمية لتدفقات القوى العاملة العربية ذات المستويات العالية قد رسمت على سبيل التجربة.

وبنيت هذه الصورة على أساس افتراضات مؤداها ان أفراد القوى العاملة ذات المستويات العالية الذين يسكنون الولايات المتحدة بشكل دائم يبلغ تقريبا ثلاثة اضعاف عدد المهاجرين إليها، في حين بلغ عدد المهاجرين إلى كندا وفرنسا وبريطانيا والبلدان الأوروبية الأخرى على التوالي ١ و ٢ و ١ و ٠,٥ من المرات لعدد القوى العاملة ذات المستويات العالية المهاجرة إلى الولايات المتحدة.

وقد تم تقدير ذوي الكفاءات العالية من القوى العاملة العربية حسب نوع دراستهم. وتقدر نسبة المهندسين والعلماء والأطباء الذين هاجروا بـ ٢٣ و ١٥ و ٥٠ بالمئة على التوالي. كما قدرت نسبة حاملي شهادة الدكتوراه بـ ٢٤٠٠٠ اي بزيادة تبلغ ١٠ بالمئة سنويا. وتبلغ نسبة الهجرة عند فئة الأطباء حوالي ٣٣ بالمئة.

وقد تم البحث في أسباب هجرة الكفاءات على ضوء وجهات النظر لفئات مختلفة من البلدان. ويتساءل الكاتب في ختام البحث عن سبب بقاء هذا العدد من أصحاب الكفاءات ذات المستويات العالية في بلدانهم، وليس عن سبب هجرتهم. ويؤكد على الأهمية التي يجب إعطاؤها لطريقة الاستفادة من هذه المجموعات استفادة كلية.

مقدمة



إن الهجرة العالمية للقوى البشرية ذات المستويات العالية وهجرة الكفاءات أو العقول والنقل العكسي للتكنولوجيا، تسميات ثلاث شائعة اليوم لظاهرة قديمة قدم التاريخ[1]. واصبحت هذه الظاهرة خلال العقدين الماضيين، موضع اهتمام وأهمية كبيرين للبلدان المتقدمة بالاضافة إلى وكالات الأمم المتحدة والبلدان الأقل نموا. أما نوع الاهتمام بهذه الظاهرة ونوعيته فيختلفان اختلافا كبيرا من بلد لآخر. وقد صدر عن حكومة الولايات المتحدة، وعن الباحثين في أمريكا، أكمل السجلات في هذا الموضوع فضلا عن تأمين تدفق شامل ومستمر من الدراسات والكتابات حول هذه الظاهرة. وقام عدد من وكالات الأمم المتحدة بإعداد دراسات حول هذا الموضوع، ومن بينها على سبيل المثال، معهد الأمم المتحدة للتدريب والبحث، ومنظمة الصحة العالمية، ومؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية. أما في العالم العربي، فإنه لم يتم سوى نشر قليل من المعلومات الاحصائية المحلية، ولم توضع سوى دراسات قليلة جدا في هذا المضمار، وسنناقش ذلك بالتفصيل بعد قليل.

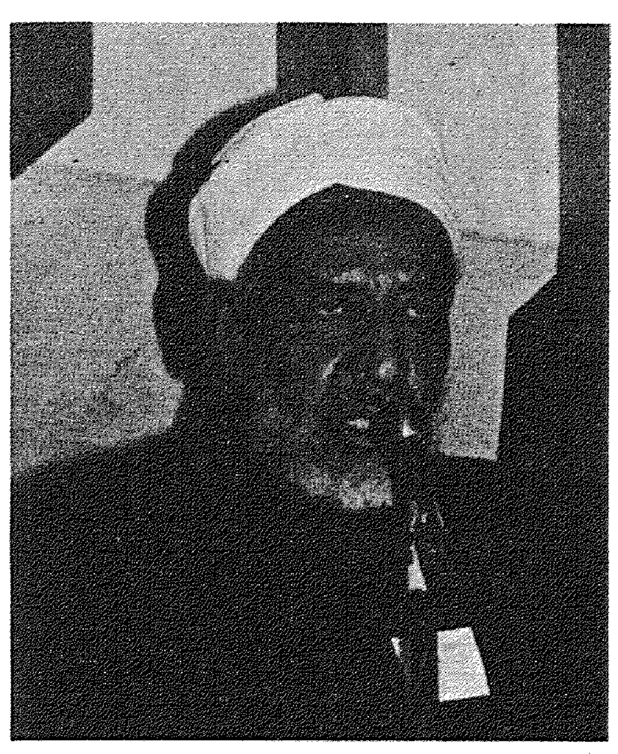
وقد تم خلال العقدين الماضيين اكتشاف مجموعة كبيرة من النواحي والأبعاد الجديدة لقضايا الهجرة، كما طرحت مجموعة جيدة من التأويلات المتعلقة بالهجرة وأسبابها. وتشير كل الدلائل إلى أن الهجرات البشرية مستمرة، وإن الكتابات حول الموضوع ستظل حيوية، وستبقى موضوعا قائما بذاته. وقد أصبح هذا الموضوع في مرحلة متقدمة من التكوين.

وسنعنى، في هذه الدراسة، بهجرة القوى البشرية العربية ذات المستويات العلمية العالية، ونركز اهتمامنا على مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما أصبح تدفق هجرة هذه الفئة من القوى البشرية أمرا محسوسا. وسنورد في هذه الدراسة المعلومات المتوافرة ونناقش ما فيها من قصور. وقد ارتأينا النظر في تدفق القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى الولايات المتحدة لأنها مصدر أكمل المعلومات حول هجرة هذه الفئة من الكفاءات. وقد حاولنا أيضا ربط تدفقات الهجرة هذه بمؤشر أو أكثر من مؤشرات أسواق القوى البشرية في الولايات المتحدة والعالم الثالث. وهناك نهج ثان رائج بعض الرواج، يقوم بدراسة قوى الدفع والجذب، أي مناقشة وتحليل القوى التي تدفع القوى البشرية ذات المستويات العالية

خارج أوطانهم، والقوى التي تجذبهم إلى البلدان المتقدمة. وهناك دراسات ممتازة في هذا الشأن. وما سنحاوله هنا هو رسم صورة لتدفق القوى البشرية في العالم العربي. وهذه الصورة التي سنخرج بها، ستستند بالضرورة إلى التأويل والاستقراء ونظام تحليل الكميات. وسنكون عرضة إلى بلوغ استنتاجات لا مبرر لها إذا ما وضعنا نصب أعيننا الطبيعة التجريبية للمنهج فضلا عن قصور البيانات والشكوك التي تكتنفها. وعلى الرغم من مواطن قصوره الواضحة فإن لهذا المنهج عدة مزايا، فهو يضع الموضوع برمته في منظور واقعي، وبذلك يصبح نوع البيانات التي نحن في حاجة ماسة إليها أكثر وضوحا. وتصبح تعقيدات الحركة العالمية للقوى البشرية ذات المستويات العالية أكثر جلاء.

ان حركة القوى البشرية تفقد الكثير من معناها إذا ما نوقشت بمعزل عن موارد تلك القوى ذات المستويات العالية في مجتمع ما، وعن الظروف والمشكلات لهذه القوى والقدرة المتوافرة لتعليم قوى بشرية إضافية، يضاف إلى ذلك تحليل مفصل، نسبيا، للمجموعات المحترفة المشاركة في هذه العملية. ولن تصبح مناقشة هجرة الكفاءات العربية (هجرة العقول) ذات معنى إلا بعد أن ندرس موارد القوى البشرية ذات المستويات العالية. ولحسن الحظ ان البيانات عن إنتاج القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية في الجامعات العربية تدعمها وثائق تزيد عن الوثائق التي تدعم هجرة العقول.

وبعد أن يتم تحليل كل العوامل المشار إليها سابقا، نستطيع معرفة ما إذا كانت تدفقات الهجرة الراهنة تدعو إلى القلق، كما نستطيع إيجاد البدائل التي يجب اتخاذها. ومن الطبيعي اننا سنجد أن الشكوك العديدة التي تكتنف قاعدة بياناتنا وفهمنا المحدود للعمليات الانمائية الأكثر عمقا سيولدان عددا من التفسيرات والاستنتاجات المعقولة. وفي عالم المعرفة غير الكامل هذا، تكون هجرة العقول مسبرا حساسا للعمليات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في مجتمعات البلدان المتقدمة والنامية على السواء. كما أنها تلقي ضوءا على كلا المجتمعين فضلا عن سلوك الأفراد.



□ الشيخ احمد محمد زباره، عضو في فريق الكتاب بالقسم العربي باذاعة صوت اميركا.

البيانات والمعلومات

إن السجلات السنوية المفصلة عن مهاجري القوى البشرية ذات المستويات العالية، حسب فروع المعرفة ومستوى التعليم والسن والعمل والأسباب والظروف المرتبطة بالهجرة، هي عناصر أساسية لدراسة المشكلة دراسة مفصلة. وقد أسهمت وكالات الحكومة الامريكية في توفير المعلومات الضرورية للمساعدة على التفكير في المشكلة على نحو واقعي. ومثل هذه البيانات مستقاة أساسا، من وزارة العدل الامريكية، ومصلحة الهجرة والتجنيس — وتقوم هذه الوكالة بنشر معلومات إحصائية سنوية عن العمال المهاجرين وغير المهاجرين في امريكا. وقد تم الوصول إلى بيانات هذه الوكالة بهدف إعداد دراسات مفصلة للكونغرس الامريكي، وتم توسيعها في السبعينات من قبل المؤسسة القومية الامريكية للعلم (National Science Foundation) في مسحها للقوى البشرية العلمية الامريكية التي تتضمن بيانات واضحة من العلماء والمهندسين والأطباء والأجانب. وفي مقابل ذلك، لم تنشر الحكومات والمؤسسات العربية سوى معلومات أولية ضئيلة جدا.



□ ادموند موصللي: استاذ الموسيقى العربية بجامعة «تورتوسترن».

من هم أصحاب الكفاءات (العقول)

من المفروض أن تشير عبارة «القوى البشرية ذات المستويات العالية» هنا، إلى خريجي الجامعات من حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه. والعلماء الذين تشير الاحصاءات إليهم هم حملة هذه الدرجات العلمية الثلاث. وبالطبع ليس بالضرورة أن تتوافر لكل حامل شهادة المعرفة القيمة، كما أنه ليست كل أنواع المعرفة مفيدة للبلدان الأقل نموا. وبذلك فليست كل العقول المهاجرة مفيدة بالضرورة للوطن أو حتى للبلد المضيف، كما أن عدم الاستفادة من «عقل» ما، لا يعني بالضرورة أن الشخص ذاته غير مفيد. ويجب الملاحظة ايضا ان حقيقة نجاح القوى البشرية ذات المستويات العالية في مجتمع منظور لا تعني بالضرورة ان هذه القوى البشرية قد أصبحت أكثر أو أقل كفاءة لوطنها. ولم ينجز، حتى الساعة، إلا القليل جدا فيما يتعلق بالناحية النوعية لهذه المشكلة.

ما هو الاستنزاف أو الهجرة

ان ما يمثله الاستنزاف أو الهجرة هو مسألة تطرح مشكلات في غاية الصعوبة تتعلق بالبيانات والتحديدات. فهل يعتبر الشخص ذو المستويات العالية والذي يعيش في بلد أجنبي لفترة من الزمن عامل استنزاف او مهاجراً؟ وهل يعد الشخص الذي يعيش في بلده ولكنه يكرس كل جهوده للعمل في مشروعات في بلدان أجنبية مهاجرا؟ وهل يعتبر الشخص الذي يوجد في الولايات المتحدة بموجب تأشيرة تبادل الزوار مهاجرا أم ان المهاجرين هم أولئك الأشخاص الذين طلبوا تأشيرة هجرة وحصلوا عليها؟ ان جانبا كبيرا من التحليل والمناقشة في كل ما كتب عن الموضوع في العالم يعني بالمهاجرين. بيد ان النسبة المئوية للقوى البشرية العربية ذات المستويات العالية المقيمة في البلدان الغربية، اما بموجب تأشيرة تبادل الزوار أو تأشيرة إقامة دائمة، تفوق نسبة الذين يتمتعون بتأشيرة هجرة. وفي تقديري أن ثلث القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية في الولايات المتحدة ينتمي إلى فئة المهاجرين. لكنه من المستحيل القيام بتقييم دقيق لتدفقات المهاجرين حسب فئاتهم دون القيام بعمل ميداني شامل. ويكفي هنا أن نضرب مثلا موضحا بسيطا على هذه الحقيقة. ان بيانات مصلحة الهجرة والتجنس الامريكية تبين انه تم قبول ٩٢٠٠ مصري من غير المهاجرين في الولايات المتحدة في عام ١٩٧٦، ومن هؤلاء ينتمي ٢٧٠ إلى فئة زوار برامج التبادل (باستثناء زوجاتهم وأطفالهم)، في حين ان ١٤٦٠ منهم كانوا ينتمون إلى فئة «الأجانب المقيمين في امريكا والمتوقع رجوعهم إلى بلادهم»، وفي خلال العام ذاته، تم قبول ١٨٢٤ مهاجراً مصرياً، كان ٥٣٦ منهم ينتمون الى فئة العمال الفنيين والتقنيين وما شابههم (PTK)، و٧٥ ينتمون الى فئة المديرين والاداريين. وقد تم في السنة المالية لعام ١٩٧٥ قبول ١٥٧ عالما ومهندسا وطبيبا وجراحا مصريا في الولايات المتحدة. غير أنه لا تتوافر أية معلومات فيما يتعلق بعدد المصريين المقيمين بالولايات المتحدة بوصفهم زوارا بموجب برنامج التبادل.

وبسبب تغير هذه الأرقام من سنة إلى أخرى يصعب علينا تقييم الاتجاهات أو الخروج باعداد اسية تقريبية. وعلى سبيل المثال، فقد بلغ عدد اللبنانيين المقيمين في امريكا والمتوقع رجوعهم إلى



□ ارنست عبد المسيح: مدير مركز دراسات الشرق الأدنى وشمال افريقيا التابع لجامعة «ميشيغن» في مدينة «آن اربور».

بلادهم ٣٦٤١ شخصا في عام ١٩٧٧، وكان عددهم ٦٩٨ شخصا في عام ١٩٧٦. وقد تكون الحرب الأهلية اللبنانية مسؤولة عن هذا التغير الكبير. أما الاحصاءات المصرية المتعلقة بالموضوع فقد كانت ٢٦٩٧ شخصا في عام ١٩٧٧، و ١٤٦٠ في عام ١٩٧٦.

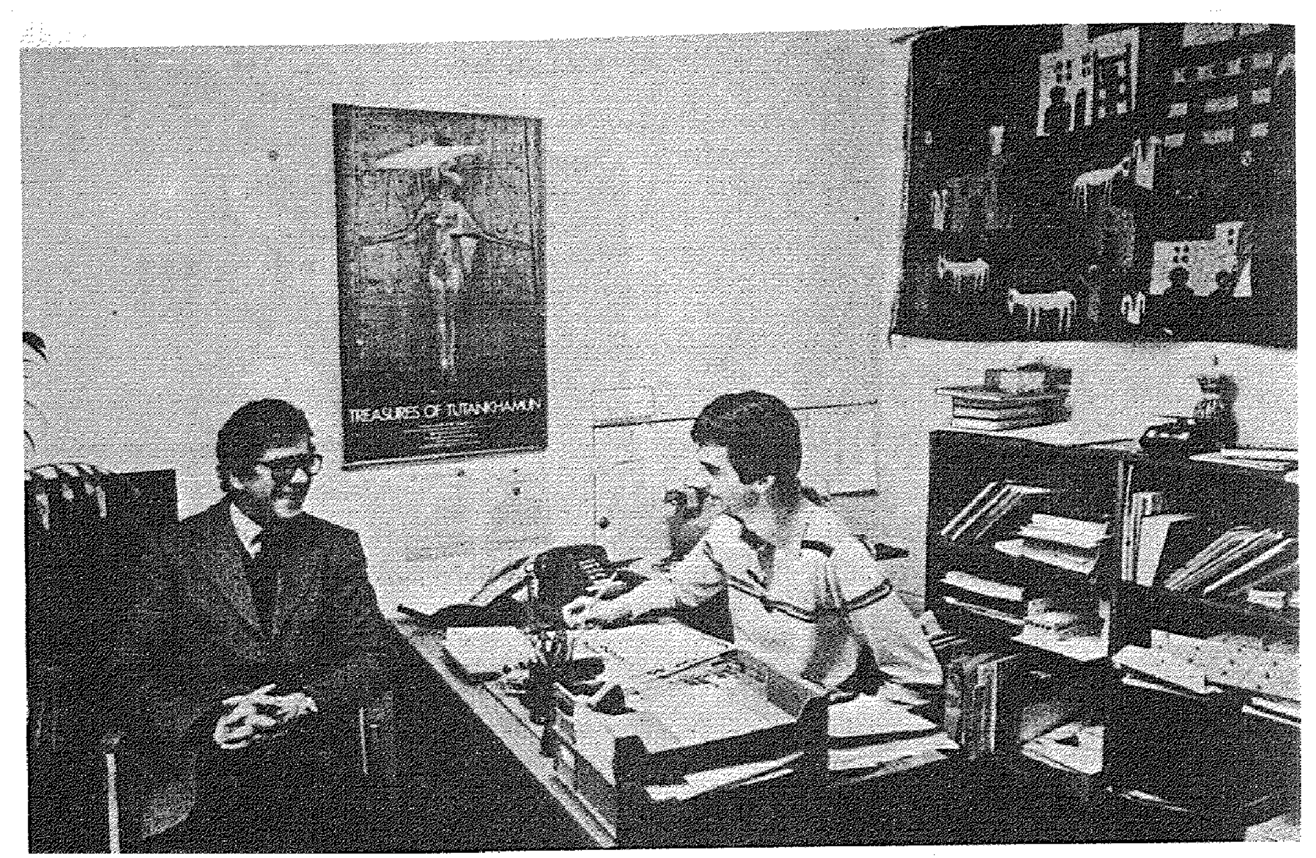
وقد ركزت دراسات هجرة الكفاءات على بلدان مثل الولايات المتحدة ثم كندا والمملكة المتحدة، لأنها مصدر أكمل إحصاءات في هذا المجال. ولسوء الحظ فنحن لا نملك، حتى الآن، رقما ولو تقريبيا، لتدفقات الهجرة في اتجاه بلدان أخرى أو حتى في اتجاه وكالات الأمم المتحدة. وقد علمنا أن ٩٠١٩١ عالما ومهندسا وطبيبا وجراحا وطبيب أسنان تم قبولهم في الولايات المتحدة مهاجرين من العالم النامي، في الفترة ما بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٧، مقابل ١٥٣٤١٨ مهاجرا في سائر البلدان الأخرى. وقبلت كندا (بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٧٢) ٥٦٥٩٨ شخصا من البلدان الأقل نموا و ٢١٦١٣٩ شخصا من البلدان الأخرى. أما المملكة المتحدة فقد قبلت بين (١٩٦٤ — ١٩٧٢) ٨٤٠٤٠ شخصا من البلدان الأقل نموا، و ٣٨٠٧٥١ من سائر البلدان الأخرى (UNCTAD 1975 table A-2). وباختصار، فإن مهاجري البلدان الأقل نموا يشكلون ٣٠ بالمئة من إجمالي القوى البشرية المهنية التي تم قبولها في هذه البلدان الثلاثة، في حين كانت البقية الباقية من بلدان متقدمة أخرى.

اتجاه التدفقات

يجدر بنا في سبيل البحث، أن ننظر إلى تدفقات القوى البشرية ضمن إطار واسع، إذ أن بعض هذه التدفقات ليس هجرات عبر حدود دولية، ولا تحركات جسدية.

١ — التدفقات إلى الداخل

تخضع القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى ثلاثة تدفقات متميزة داخل المجتمع المحلي. فبامكانها أن تتكشف عن حركة نزوح من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، وعن تغيير من



□ ابراهيم ابراهيم: مدرس في مركز الابحاث العربية المعاصرة في جامعة «جورجتاون». ويبدو في الصورة وهو يستقبل احد الطلاب في مكتبه.

المهنة المكتسبة إلى غيرها من الأعمال، أو عن تغيير في نوعية المهارات المكتسبة.

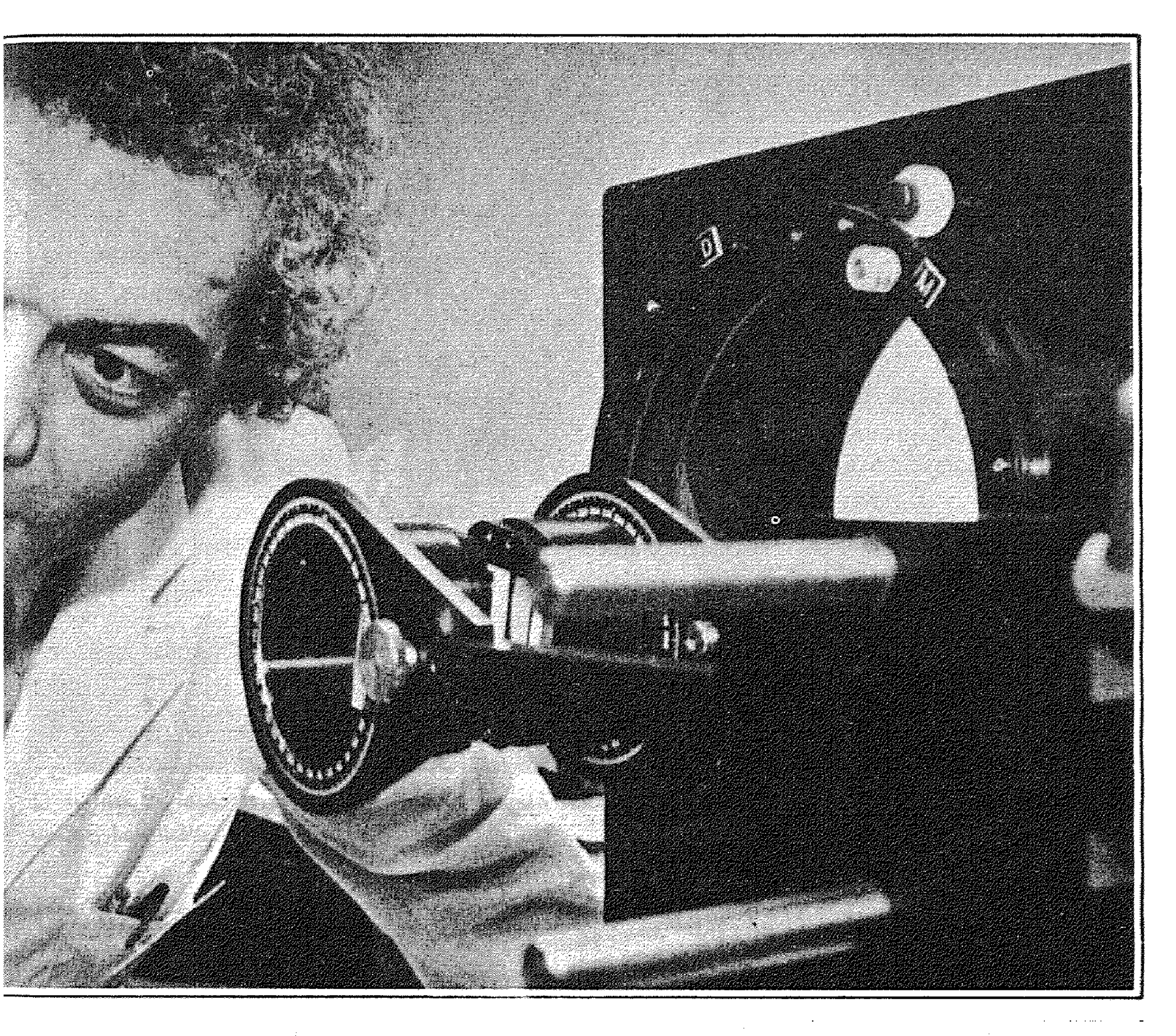
إن خريجي الجامعات في كل البلدان الأقل نموا، ينجذبون نحو المراكز الحضرية بغض النظر عن مكان ولادتهم. وقد بذلت بعض البلدان جهودا كبيرة لتغيير اتجاه التدفق نحو المراكز الحضرية. أما في العالم العربي، فقد وجه القطاع العام بعض الاهتمام بالمناطق الريفية. لكن التركيز كان منصبا على تنمية الضواحي الحضرية، إلا إذا كانت إحدى المناطق المعينة تملك موارد طبيعية خاصة بها.

والنوع الثاني من التحرك أو التغيير هو عندما يصبح شخص درّب ليكون مهندسا زراعيا، على سبيل المثال، تاجرا في المبيدات الحشرية أو الجرارات، أو عندما يصبح خريج الفيزياء كاتبا مكلفا بالتخزين. وليس هناك معلومات دقيقة كثيرة عن هذا النوع من التغيير، ولكن يعتقد أن الهجرة المهنية تحدث على نطاق كبير في العالم العربي.

والنوع الثالث من التغيير هو تغيير نوعية المهارات، اما للأفضل أو للأسوأ، وهذا هو نوع آخر من التدفق لم يحظ باهتمام كبير في البلدان الأقل نموا. ونعتقد أن هناك علاقة قوية بين هذه العمليات الداخلية وبين التدفق إلى الخارج.

٢ ــ التدفقات الاقليمية

لقد نما تدفق القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية نحو البلدان المنتجة للنفط بعد الحرب العالمية الثانية بشكل مواز لنمو دخل النفط. واجتذبت دول الخليج والمملكة العربية السعودية والجماهيرية العربية الليبية والجزائر المدرسين والمهندسين وأساتذة الجامعات والبيروقراطيين والموظفين الطبيين. وتقديرنا أن مجمل هذه التدفقات يبلغ حوالي ١٠٠٠٠٠ شخص عربي من ذوي المستويات العالية، ومن المحتمل أن يكون أكثر من نصف هذا العدد من المدرسين. واجتذبت العراق ايضا فريقا صغيرا من القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية، وهاجر عدد كبير منها إلى لبنان، لكن



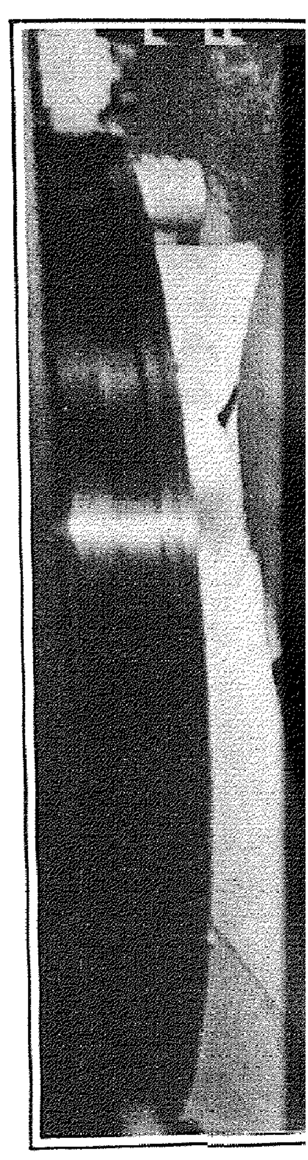
المهاجرين إلى العراق ولبنان لا يشكلون أكثر من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ من القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية.

٣ ــ التدفقات الدولية

ستشير التدفقات الدولية هنا، لغرض هذه الدراسة، إلى كل التحركات من دولة عربية إلى البلدان الأخرى الأقل نموا أو إلى البلدان المتقدمة. فكثير من الدراسات الدولية عن هجرة الكفاءات تهتم بفئة ثانوية فقط أي بحركة الهجرة من البلدان الأقل نموا إلى البلدان المتقدمة.

المهن والهجرة

ان حركة القوى البشرية ذات المستويات العالية تعتمد اعتمادا كبيرا على التدريب المهني والتخصص كما تعتمد على البلد الذي تتوجه إليه. فدول الاوابيك (منظمة الدول العربية المصدرة للنفط)، مثلا، تجتذب المدرسين، والمحامين، والمهندسين والأطباء. ويتم استخدام المهندسين في الأشغال المدنية (ومعظمها إنشاء المباني) وشق الطرقات وفي بعض الأشغال العامة، ولا يشارك سوى قلة منهم في الأبحاث. وقد يبلغ عدد حاملي شهادة الدكتوراه العرب الذين يعملون في جامعات الكويت وقطر وأبو ظبي والمملكة العربية السعودية واليمنين والجزائر حوالي ٢٠٠٠ شخص. وخلافا لذلك، فإن الولايات المتحدة تجتذب الأطباء والباحثين، ومع ذلك فلا يشكل الباحثون والمهندسون سوى جزء صغير من مجمل المهاجرين من حاملي الدكتوراه والأطباء. أما أولئك الذين يهاجرون إلى الدول العربية الأخرى فقد لا يجيدون أحيانا أية لغة أجنبية بسبب دراستهم بالمعاهد العربية فقط.



□ حمدي محمد: استاذ ورئيس قسم المواد الطبية وطب الاسنان بجامعة «فلوريدا»،ومؤسس القسم عام ١٩٧٤. وهو احد من خمسة اقسام من نوعه في الولايات المتحدة الاميركية.

لكن باستثناء الأطباء، فإن معظم المهاجرين إلى الدول العربية تلقوا جزءا من علومهم أو معظمها في الخارج. وقد يعود سبب هجرة بعض الأطباء الذين سافروا بغية التخصص أنهم مكثوا في بلد التخصص بعد أن طاب لهم العيش فيه.

حقائق وأرقام

سنحاول في هذا القسم تقديم مسح للمعلومات الراهنة، ومناقشة حدودها وربطها ببعض العوامل الرئيسية المؤثرة في عمليات الهجرة.

الولايات المتحدة الامريكية

بإمكان تدفق القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى الولايات المتحدة أن تسلك طرقا كثيرة، وأوضحها هو طريق «الهجرة». وهناك دراستان بالعينة ـــ واحدة حول القوى البشرية العراقية ذات المستويات العالية المقيمة بالولايات المتحدة الامريكية للدكتور الشكراني، والثانية حول العلماء والمهندسين المصريين في الولايات المتحدة مأخوذة عن مسح قامت به مؤسسة العلم القومية الامريكية اظهرتا ان «طريق الهجرة» ليس الطريق المهيمن عند العرب. وسنقدم معلومات كافية لنبين أن العدد الفعلي للقوى البشرية العربية ذات المستويات العالية العاملة في الولايات المتحدة أكبر مما تشير إليه أرقام الهجرة بثلاثة أضعاف أو أكثر.

وفيما يتعلق بالفترة الممتدة بين ١٩٦٢ و ١٩٦٧، فقد اعتبرت العراق والأردن وفلسطين ولبنان وسورية ومصر ـــ مصدرا لـ ٨٠ إلى ٩٠ بالمئة من المهاجرين العرب إلى الولايات المتحدة. ومن بين الـ ٢٣٠٩١ شخصا الذين تم قبولهم خلال هذه الفترة كمهاجرين، ينتمي ٣٥٨٧ منهم إلى فئة الاختصاصيين والعمال الفنيين وما شابههم (PTK)، وتشمل هذه الفئة القوى البشرية ذات المستويات العالية وغيرها من القادرين على إنجاز مهمات تقنية وإدارية. ومن بين الـ ٣٥٨٧ شخصا، هناك ١١٣٢ مهندسا وعالما طبيعيا وعالما اجتماعيا وطبيبا (Whelan 1974, table 5, p. 49).

وفي عام ١٩٦٥ عدل القانون العام رقم (٤١٤) الذي أصدره الكونغرس الثاني والثمانون في دورته الثانية، النظام القومي للحصص، أو الحصص النسبية (الكوتا)، بتغييره إلى نظام أفضليات. وقد أصبح هذا التعديل نافذا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٥ وأدى إلى مضاعفة المعدل خلال سنتين(٢). وتمت مراجعة قوانين الهجرة مرة ثانية (بموجب مرسوم ١٩٦٥) في عام ١٩٧١. وتطالب المراجعات، التي نجمت عن مستوى البطالة المرتفع في الولايات المتحدة، بالا يسمح للمهاجرين بالدخول إلى الولايات المتحدة إلا إذا كان لديهم عرض محدد للعمل، أو إذا كان دخولهم لن يؤثر سلبيا على الفئات الفنية المحلية.

وقد أدت مراجعة عام ١٩٧١ إلى تدني عدد العلماء والمهندسين المهاجرين إلى الولايات المتحدة. ويعطي الجدول رقم (١) الرقم العربي لعام ١٩٧٦. وتبين الفترة الممتدة بين ١٩٧٢ ـــ

١٩٧٦ ان هناك انخفاضا في الأرقام فيما يتعلق بعدد الاختصاصيين والعمال الفنيين وما شابههم. وقد انخفض عدد المهنيين بنسبة ١٢ بالمئة في العام ١٩٧٤ و ٩ بالمئة في العام ١٩٧٥، وارتفع بنسبة ٢٥ بالمئة في العام ١٩٧٦، وكل هذه النسب هي بالمقارنة مع نسب العام ١٩٧٢. وتوازن الجداول بين العدد السنوي للمهاجرين الطبيين الذين يبلغ معدلهم أكثر من ٣٠٠ طبيب وبين الرقم ٢٧٥ الذي يمثل مجموع الخمسة أعوام بالنسبة للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧. وبالرغم من أن عدد المهاجرين من المهندسين العرب كان مرتفعا نسبيا، فقد انخفض بعد العام ١٩٧٢ وظل عددهم حتى العام ١٩٧٦ (وهو آخر عام نملك إحصاءاته) أقل من مستوى العام ١٩٧٢. أما الزيادة الشاملة في الهجرة العربية من ١٢١٨١ في العام ١٩٧٦ إلى ١٦٧٦١ في العام ١٩٧٧، وهي زيادة بنسبة ٣٨ بالمئة في عام واحد، فتعكس زيادة مقابلة لها في عدد القوى

الجدول (١) . المهاجرون الى الولايات المتحدة حسب بلد الاقامة الاخير   السنة المالية ١٩٧٦

البلد	المجموع	الاختصاصيون والعمال الفنيون وما شابههم	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
البحرين	٩١	٢٠	١	—	٢	—	—	—	١	—	—	—	—	—
العراق	١ ٢٥٦	٦١	١	١	١٠	٣	—	—	١١	١	١	١	٣	١٤
الاردن وفلسطين	٢ ٤١٦	١٣٥	—	٢	١٧	١	١	—	٢٢	٢	٣	—	٣	٢٥
الكويت	٢٧٠	٥٦	١	١	٦	—	—	—	١٤	—	١	—	١	٦
لبنان	٤ ٩٩٧	٤٥٥	٤	٤	٤٦	٤	٥	١	١٥٢	١٠	٦	٥	١٥	٤٤
عمان	٩	٢	—	—	١	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قطر	١٨	٦	—	—	—	—	—	—	٣	—	—	—	—	١
المملكة العربية السعودية	٢٤٦	٥٢	—	—	٩	—	—	—	١٤	—	—	—	—	٥
سورية	٦٨١	١٣٠	١	—	١٢	—	١	—	٨٠	٣	—	٣	١	١١
دولة الامارات المتحدة	١٩	٣	—	—	١	—	—	—	١	—	—	—	١	—
اليمن (عدن)	٣٤	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
اليمن (صنعاء)	٤٢٣	١	—	—	—	—	—	—	—	—	—	١	—	—
الجزائر	٣٧	١٢	١	١	—	—	—	—	٥	—	١	—	١	٢
مصر	١ ٣٧٩	٤٠٨	٧	٣	٨٣	٥	٢	—	١٠٤	١١	٢٠	٥	١٥	٣٢
ليبيا	٧٩	٢٩	١	١	٥	—	—	—	١٤	—	٢	—	١	—
موريتانيا	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
المغرب	١٦٠	٣٣	٢	—	٣	١	—	—	٣	—	١	—	٢	٤
الصومال	٢٠	٢	—	—	—	—	—	—	١	١	—	—	—	—
السودان	٢٢	٤	—	—	٢	—	—	—	—	—	—	—	١	—
تونس	٢٤	٦	—	—	١	—	—	—	١	—	—	١	—	٢
	١٢ ١٨١	١ ٤١٥	١٩	١٣	١٩٨	١٤	٩	١	٤٢٦	٢٨	٣٥	١٦	٤٤	١٤٦

مفتاح رموز الجدول (١)

المجموع = مجموع الوافدين

PTK = مجموع الاختصاصيين والعمال الفنيين وما شابههم .

٢ = مجموع المهندسين المعماريين .

٣ = مجموع الاختصاصيين بعلم الحاسب الالكتروني .

٤ = مجموع المهندسين .

٥ = مجموع المحامين والقضاة .

٦ = مجموع الاختصاصيين بالرياضيات .

٧ = مجموع الباحثين والخبراء في العمليات والتطبيقات العملية .

٨ = مجموع أطباء الصحة والأسنان وأصحاب المهن المشابهة .

٩ = مجموع الباحثين بشكل عام ودون تحديد .

١٠ = مجموع علماء الأحياء والطبيعة .

١١ = مجموع علماء الاجتماع .

١٢ = مجموع اساتذة الكليات والجامعات .

١٣ = مجموع المعلمين ، ما عدا اساتذة الكليات والجامعات .

البشـرية المـؤهلة. وقد بـدأت دائرة الهجـرة والتجنس الامـريكية منـذ عام ١٩٧٤ في نشر تحليل مفصل لأرقـام الاختصاصيـين والعمال الفنيين وما شابههم الأمر الذي يسـاعد عـلى دراسة الهجرات إلى الولايات المتحدة فيما يتعلق بفئات ثانوية جد متخصصة.

ويوضح الجدول (٢) عدد المهاجرين حسب بلد المنشأ وبلد الاقامة الأخير، فضلا عن عدد الزائـرين المقبولين بمـوجب بـرامـج التبـادل، والأجانب المقيمين في بلد الهجرة والمتوقع أن يعودوا إلى بلد المنشأ، وذلك فيما يتعلق بالولايات المتحـدة. ومن الجلي أن الدول العـربية ذات النسبة العالية من الهجرة إلى الولايات المتحدة تملك ايضا عددا مرتفعا من «الأجانب المقيمين في بلد الهجرة والمتوقع أن يعودوا إلى بلد المنشأ». ويحافظ كثير من أصحاب الكفاءات على جنسيتهم الأصلية ويقيمون في الولايات المتحدة بموجب فئة من فئات التأشيرات الممنوحة هناك. ولا يعـد

الجدول (٢) المهاجرون المقبولون في الولايات المتحدة في السنة المالية ١٩٧٧ حسب بلد : — المقبولون في الولايات المتحدة حسب بلد المنشأ في السنة المنتهية في ٣٠ ايلول/ سبتمبر ١٩٧٧

	المنشأ	آخر اقامة	العدد المقبول	زوار برنامج التبادل	الأجانب المقيمون في المهجر العائدون الى بلاد المنشأ
البحرين	٨	٤٩	—	—	—
العراق	٢٨١١	٦٣٤	٧٧٨٩	٨١	٧٨٣
الاردن	٢٤٩٤	٢٩٠٩	١٠٠٩١	١٥٦	٢٥٨١
فلسطين	٣٨١	٢٩	—	—	—
الكويت	١٦٠	٥٤٧	٥٨٣١	٢٠٨	١٢
لبنان	٥٦٨٥	٥٤٩٨	٢٤٤٠٣	٨٤	٣٦٤١
عمان	٩	١١	—	—	—
قطر	١٣	٣٧	—	—	—
المملكة العربية السعودية	٥٥	٢١٩	٢٠٣٩٧	٣٦٧	١٦١
سورية	١٦٧٦	١١٧٠	٧٨٠٣	١٣٨	٨٤٣
دولة الامارات المتحدة	١٣	٨١	—	—	—
اليمن (عدن)	٤٨	٢٦	—	—	—
اليمن (صنعاء)	٣٧٦	٣٥١	—	—	—
الجزائر	٨٩	٥٧	٨٨٦٨	٦٥٨	٦٧
مصر	٢٣٢٨	٣٢٨٠	٢٠٩٣٤	٥٨٨	٢٦٩٧
ليبيا	٦٥	١١٠	٥٨٢٧	٦٣٣	٨٢
موريتانيا	٢	٥	—	—	—
المغرب	٤٠١	١٦٠	٨٠٥٨	١٢١	٤٠٣
الصومال	٢١	١٦	—	—	—
السودان	٤٨	٣٩	١٤١٠	١٠٨	٥٢
تونس	٧٨	٢٦	٣٢٩١	١٥٤	٩٦
المجموع	١٦٧٦١	١٥٢٥٤	١٢٤٧٠٢	٣٢٩٦	١١٤١٨

هؤلاء الأفراد من بين «المهاجرين» على الرغم من اعتبارهم عمليا من العقول المستنزفة. وقد وجد علي الشكراني عند دراسته لعينة من الطلاب العراقيين في الولايات المتحدة في عام ١٩٦١ ان ٤٠ بالمئة فقط منهم عادوا إلى العراق بعد عشر سنوات، وان ٩٠ بالمئة كانوا مستخدمين استخداما كاملا في الولايات المتحدة، إلا أن ٣٤ بالمئة فقط منهم حصلوا على الجنسية الامريكية، في حين حافظ الثلثان الباقيان من أولئك الذين يعيشون في الولايات المتحدة على جنسيتهم العراقية (Shakrani 1971). وهناك مصدر ثان للمعلومات بهذا الشأن، وهو الدراسة التي أعدتها المؤسسة الوطنية للعلم بشأن خصائص العلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة ومواقفهم (National Science Foundation 1973). وقد كانت العينة المختارة لمهنيين ما يزالون غير مؤهلين للتجنيس،ثم تم اختيار عينة عشوائية بلغت ٧٩٨٦ من بين الـ ٥٦٣٠٠ الذين دخلوا الولايات المتحدة بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠. وكان من بين الـ ٧٩٨٦ مهاجرا، ١١١ مصريا. ومن المحتمل انه كان هناك عرب آخرون في العينة لكنهم سجلوا تحت عنوان: «آخرون من الشرقين الأدنى والأوسط» (ومجموعهم ١٧٣) أو «آخرون من افريقيا» (ومجموعهم ٩٤). وحيث أن هاتين الفئتين تشتملان على عدد من غير العرب فإننا سنوجه اهتمامنا إلى نتائج العينة المصرية.

قدم ٥٤ مصريا المعلومات التالية عن وضعهم لدى دخولهم إلى الولايات المتحدة: طلاب تبادل (٦)، زوار تبادل (٦)، طلاب لا ينتمون إلى برنامج التبادل (١٨)، عمال وقتيون (٨)، سياح (١٢)، حملة تأشيرات مؤقتة أخرى (٤). (National Science Foundation 1973, table B-3).

ولم يصل الـ ١١١ مصريا إلى الولايات المتحدة مباشرة من مصر، وعدد الذين وصلوا إلى الولايات المتحدة مباشرة يبلغ نصف هذا العدد أي (٥٥). أما الباقون فقد قدموا إلى الولايات المتحدة عن طريق المانيا (٤) واليونان (٢) وايطاليا (٢) والمملكة المتحدة (٤) وبلدان أخرى في أوروبا الغربية (٢) وكندا (١٢) وشمال ووسط أمريكا (٢) وكولومبيا (٢) وبلدان أخرى في الشرقين الأوسط والأدنى (٢) واستراليا (٢) وبلدان أخرى (٢) ومهاجرون لا ينتمون إلى دولة وآخرون لم يبلغوا عن جنسيتهم (٢١). (National Science Foundation 1973, table B-2). وتشير بعض المعلومات الاحصائية المستقاة من المؤسسة الوطنية للعلم إلى أن حوالي ٩٠ بالمئة من المهاجرين العرب إلى الولايات المتحدة والذين ينتمون إلى فئات المهندسين والعلماء والأطباء يأتون إلى الولايات المتحدة من أوطانهم (1973, table D-2). غير أن الجدول رقم (٢) يكشف بوضوح عن الاختلاف الكبير في الأوضاع القائمة في العالم العربي. فعلى سبيل المثال، هناك ٣٨١١ مهاجرا تم قبولهم في الولايات المتحدة عام ١٩٧٧ ولدوا في العراق، ولكن ٦٣٤ منهم كان العراق لهم آخر مكان لاقامتهم، وينطبق الوضع ذاته على سورية ولكن بنسب مختلفة أي ١٦٧٦ و ١١٧٠ مما يشير إلى فرق أقل بين الفئتين. أما فيما يخص البلدان المنتجة للنفط فإن عدد المهاجرين المولودين فيها أقل بكثير من عدد أولئك الذين كان آخر مكان لاقامتهم هو أحد هذه البلدان.

وتدل المعلومات المبينة سابقا على تعقيد الاحصاءات، وعلى الحاجة إلى بيانات أكثر تفصيلا لتقييم أنواع مختلفة من فئات هجرة الكفاءات، ومن هنا يبدو من الصواب الافتراض أن مجموع عدد العقول العربية المستنزفة في الولايات المتحدة وحدها يبلغ ثلاثة أضعاف عدد «المهاجرين» العرب إليها.

دول مضيفة أخرى

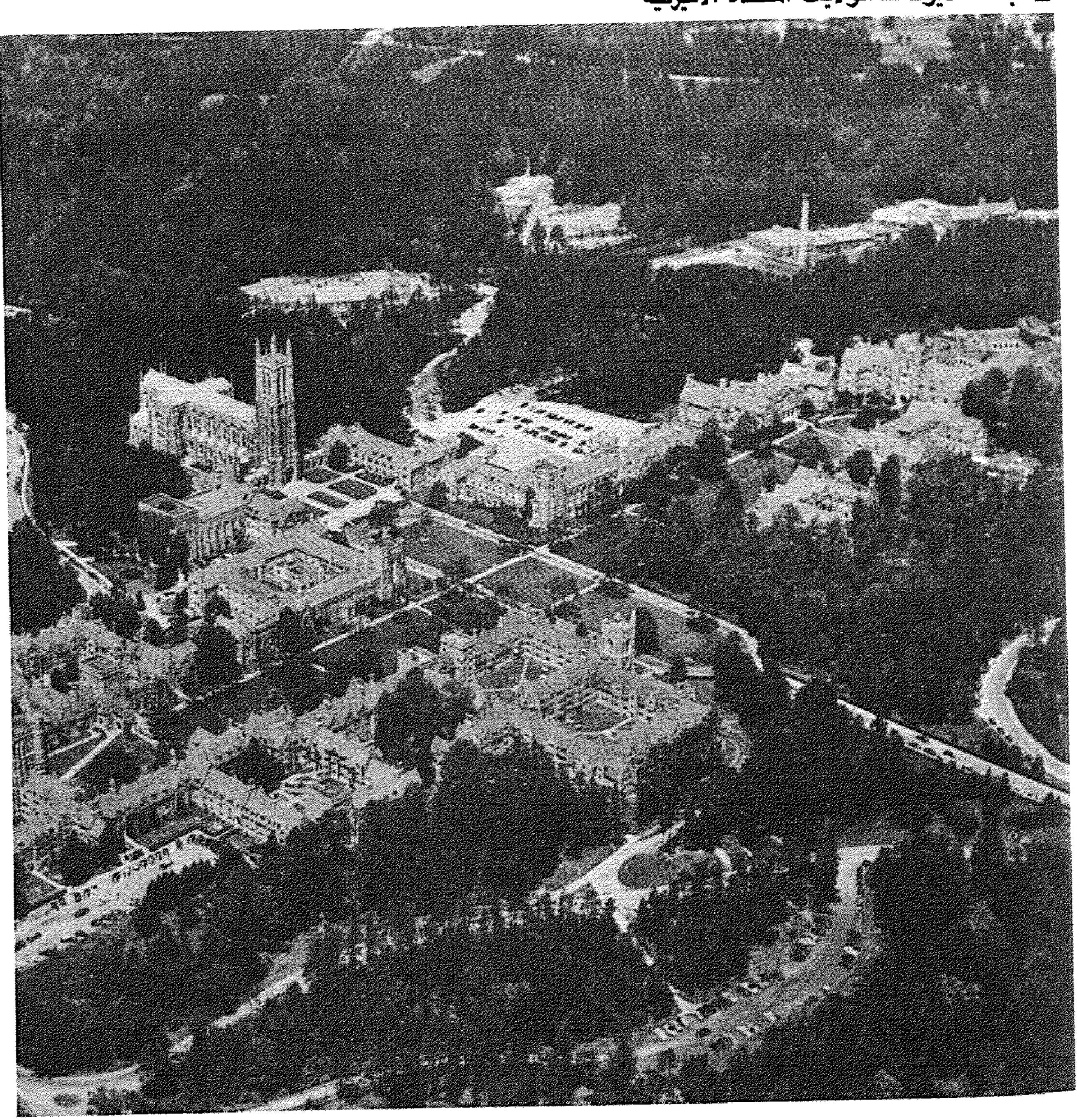
وفي عام ١٩٧٦ هاجر ٨٨٦٠ عربيا إلى كندا، ٨١ بالمئة منهم من اللبنانيين ومن ضمن هؤلاء ١٠٧ من العاملين في حقل الطب، كان من بينهم ٧٢ لبنانيا. ووجد (Watanabe) أن عدد المهاجرين من المهندسين والاختصاصيين في العلوم الطبيعية والفيزيائيين إلى الولايات المتحدة وكندا وفرنسا من العراق وفلسطين ولبنان وسورية ومصر بين عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٦، كان على التوالي ٣٩٦٨٢٩ و ٢٨٦ (Watanabe 1969, p. 401). ويذكر مصدر آخر ان مجموع

عدد «العلماء والمهندسين والفيزيائيين والجراحين وأطباء الأسنان وغيرهم» من المصريين الذين هاجروا إلى كندا خلال الفترة ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢ قد بلغ ٢٢٥١ شخصا ,UNCTAD 1975) .(table A-2

وتمثل كندا مرحلة في الطريق إلى إتمام الهجرة إلى الولايات المتحدة. لذلك فمن العسير تحديد عدد المهاجرين الذي تم إحصاؤهم مرتين: مرة لدى دخولهم كندا، ومرة ثانية لدى دخولهم الولايات المتحدة. ويبدو أن كندا تجتذب اللبنانيين في المقام الأول، كما تجتذب بدرجة أقل آخرين من الدول العربية الناطقة بالفرنسية.

ولغرض المناقشة يبدو الافتراض بأن هجرة الكفاءات إلى كندا تستقطب ثلث الهجرة إلى الولايات المتحدة معقولا. اما فرنسا فتطرح مشكلة صعبة لانها تتيح فرصا تعليمية كبيرة(٣) فيما يتعلق بالمغرب العربي ومصر ولبنان وسورية فضلا عن كونها بلدا مضيفا لقوة عاملة عربية كبيرة(٤). وعندما بلغت الحرب الأهلية اللبنانية

□ جامعة ديوك ــ الولايات المتحدة الاميركية



الجدول (٣). الهجرة العربية العالمية

الوجهة	الوحدات
١ ــ الولايات المتحدة ــ المهاجرون	١ (وحدة مرجعية)
٢ ــ الولايات المتحدة ــ باقي التأشيرات لغير المهاجرين	٢
٣ ــ كندا	١
٤ ــ فرنسا	٢
٥ ــ المملكة المتحدة	١
٦ ــ البلدان الاوروبية الأخرى	٠.٥
المجموع	٧.٥

ذروتها منحت الحكومة الفرنسية المواطنين اللبنانيين تسهيلات استثنائية للعمل. وقد قدر (Bouvier) و (Desbruyères) ان نسب المهاجرين الجزائريين والمغاربة والتونسيين من خريجي الجامعات في فرنسا في عام ١٩٦١ كانت حوالي ٠،٥، ١،٥ و ٣،٢ على التوالي (Bouvier and Desbruyères 1970). قد تكون هذه النسب ارتفعت نظرا للفرص التعليمية الأكبر التي اتيحت لسكان المغرب العربي منذ ذلك الحين وقد يتراوح عدد القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية في فرنسا بين ٢٥ و ٣٥ الفا من أصل مجموع يزيد على ١،٢ مليون مهاجر في عام ١٩٧٩.

وكقاعدة عامة، فإن كل هجرة كبيرة ومستمرة للقوى البشرية ذات المستويات العالية تسبقها أو تصاحبها هجرة فئات من القوى البشرية لا تتمتع بالمستوى ذاته من الكفاءات. ويكاد حجم الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة يعادل حجم الهجرة إلى فرنسا. وتتشابه المجموعات الطلابية العربية في البلدين. وستكون مقارنة الوضعين بالتفصيل أمرا مثيرا عندما تتوافر المعلومات الاحصائية عن المجتمعات العربية في فرنسا.

اجتذبت المملكة المتحدة والمانيا والبلدان الاسكندنافية بدرجات متفاوتة العمال والفنيين العرب. وفي الجدول (٣) تقدير ترتيبي يستند إلى الحقائق من ناحية، وإلى تقييم ذاتي للبيانات الناقصة من ناحية ثانية. وقد تم اعتماد عدد العرب الذين تم قبولهم بصفتهم مهاجرين في الولايات المتحدة في فترة معينة، كوحدة مرجعية ١، وكل التدفقات الأخرى الواردة من الجدول هي مضاعفات لهذه الوحدة.

وبتعبير آخر، يفترض أن حوالي ٤٠ بالمئة (٣ من ٧،٥) من كل العقول المستنزفة التي تستقر في الولايات المتحدة وكندا والمملكة المتحدة، يعادلها عدد مساو من القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية. وبالامكان رفع أو خفض الأرقام الواردة في الجدول (٣)، والرقم ٧،٥ هو تقدير تقريبي يساعدنا على أخذ فكرة واقعية فقط عن الأرقام التي هي في طور الدراسة. ●

الهوامش

(١) انظر: (Dedijer 1961) للاطلاع على النظرة التاريخية للموضوع.

(٢) من أجل بيانات ١٩٥٦ و ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦ انظر: U.S. Congress, House (1967) ومن أجل بيانات ١٩٦٧، انظر: U.S., Congress, House (1968).

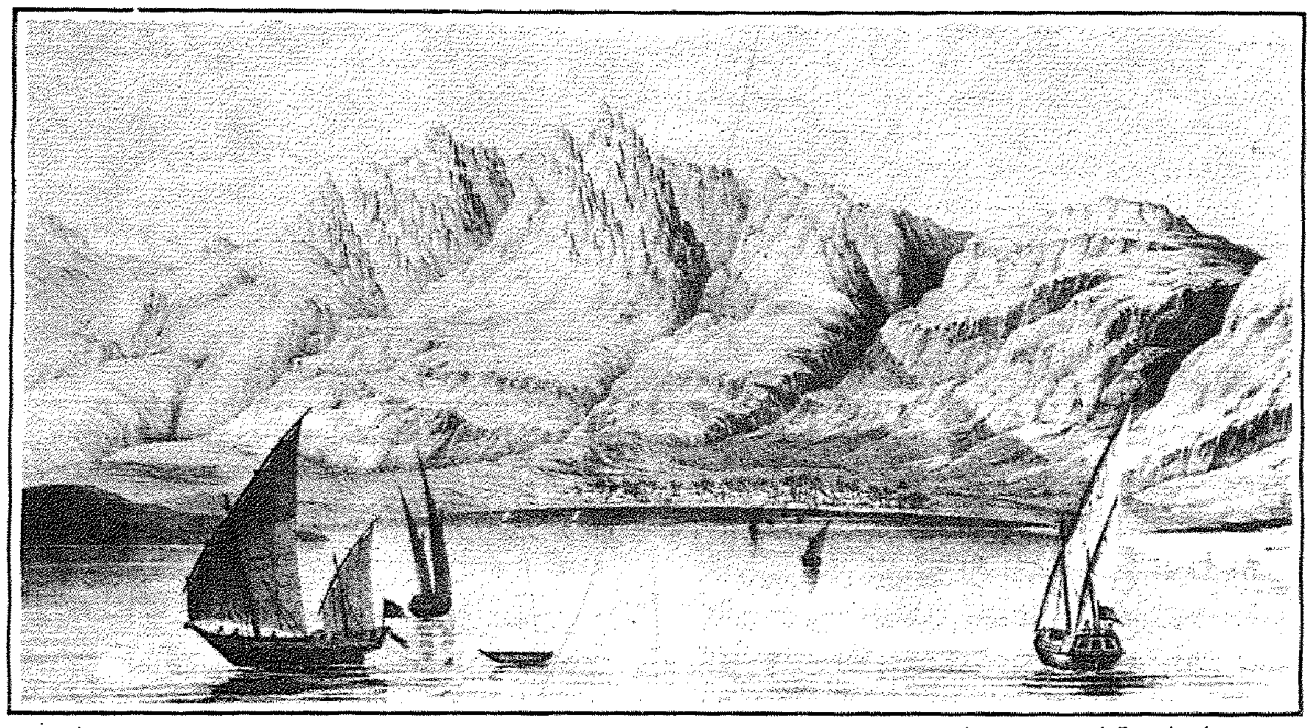
(٣) خلال عامي ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ كان في فرنسا ٢٤ الف طالب جامعي من المغرب العربي ولبنان، انظر: France. Ministère de l'Education (1977).

(٤) ازداد عدد الجزائريين والمغاربة والتونسيين في فرنسا من ٤٠٠٠٠ (١٩٤٦) إلى ٢٢٧٠٠٠ (١٩٥٤) إلى ٤١٠٠٠٠ (١٩٦٢) إلى ٦١٩٠٠٠ (١٩٦٨) إلى مليون و ١١٠٠٠٠ (١٩٧٥). انظر: France. Ministère du Travail (1977).

الطرق التجارية في العصور الوسطى

سلع ومتاجر

د. نقولا زيادة



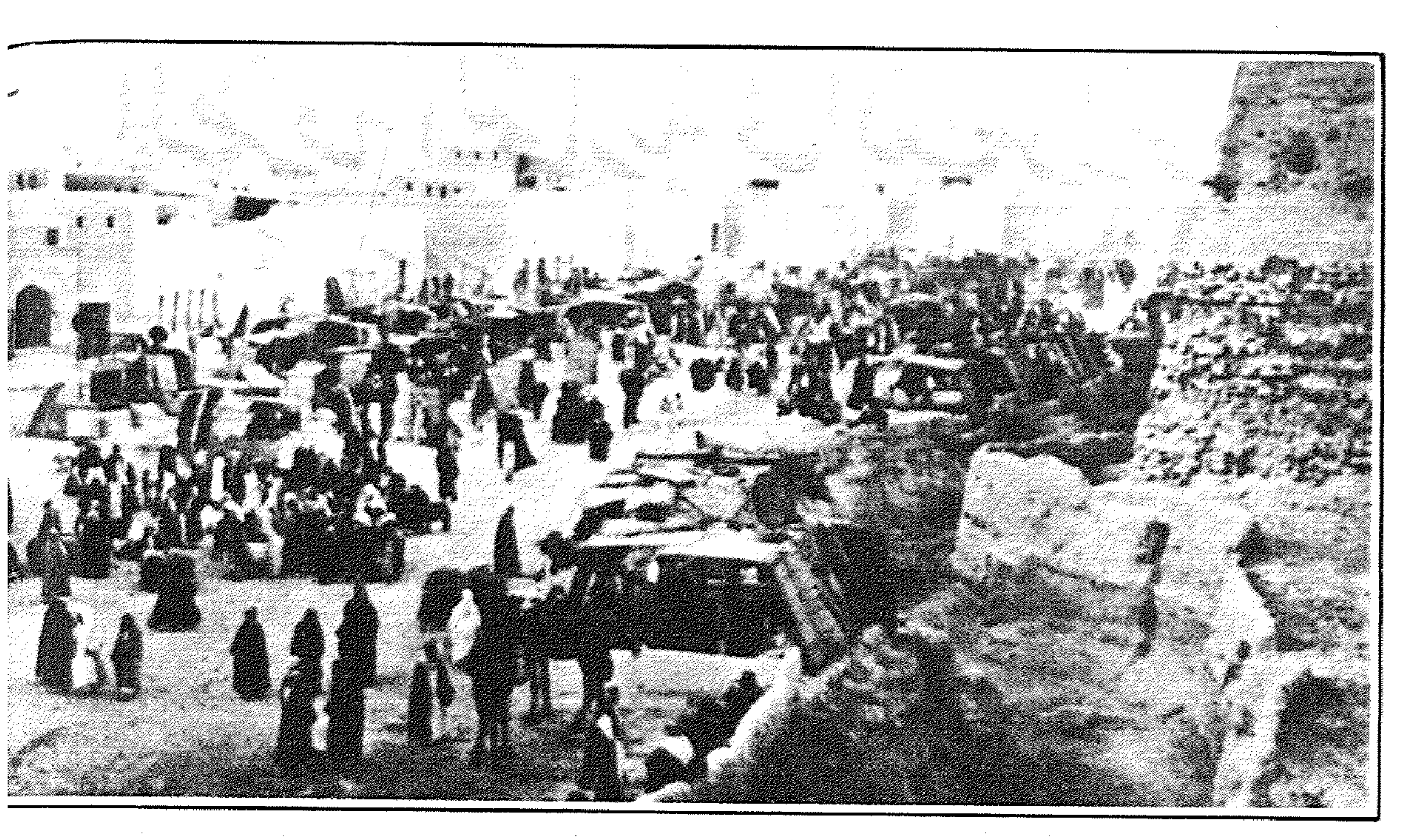
□ كان لسوقطرى دور تجاري كبير في العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة فهي جزيرة يخرج منها العنبر ودم الأخوين، كما انها كانت محطة هامة بين شرق افريقية وجنوب الجزيرة. وقد تشتو فيها السفن الشراعية القادمة من الهند إذا فاجاتها عواصف المحيط الهندي القوية.

كثيرة هي السلع والبضائع والمتاجر التي تنتقل في الدنيا من بلد إلى اخر. وليس هذا بالأمر الحديث في العالم. ذلك أن البيع والشراء وتبادل السلع، هو جزء من التطور الحضاري في تاريخ البشرية. بدأ التبادل محليا، وأخذ ينتشر مع انتشار الحياة المدنية، فتتسع رقعة التبادل، وتتنوع وسائل نقل السلع، وتتطور أساليب تسديد الفواتير.

وفي المقالين التاليين يتناول د. نقولا زيادة ثماني سلع كان لها في حياة الانسان شأن خاص. فيعالج في الأول منهما: الملح والتوابل والأخشاب والبن. أما في الثاني فيتحدث عن: البخور والذهب والحرير والرقيق.

□ نقولا زيادة: يحمل شهادة دكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن. درّس في الكلية العربية في القدس، وعمل أستاذ للتاريخ العربي في الجامعة الأميركية ربع قرن وله من المؤلفات بالعربية: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٤٣)؛ والرحالة العرب (القاهرة، ١٩٥٧)؛ ولمحات في تاريخ العرب (بيروت، ١٩٦٢).

وقد ترجم عدة كتب عن الانكليزية منها: تاريخ البشرية (لارنولد توينبي، بيروت، ١٩٨١ ـ ١٩٨٢).



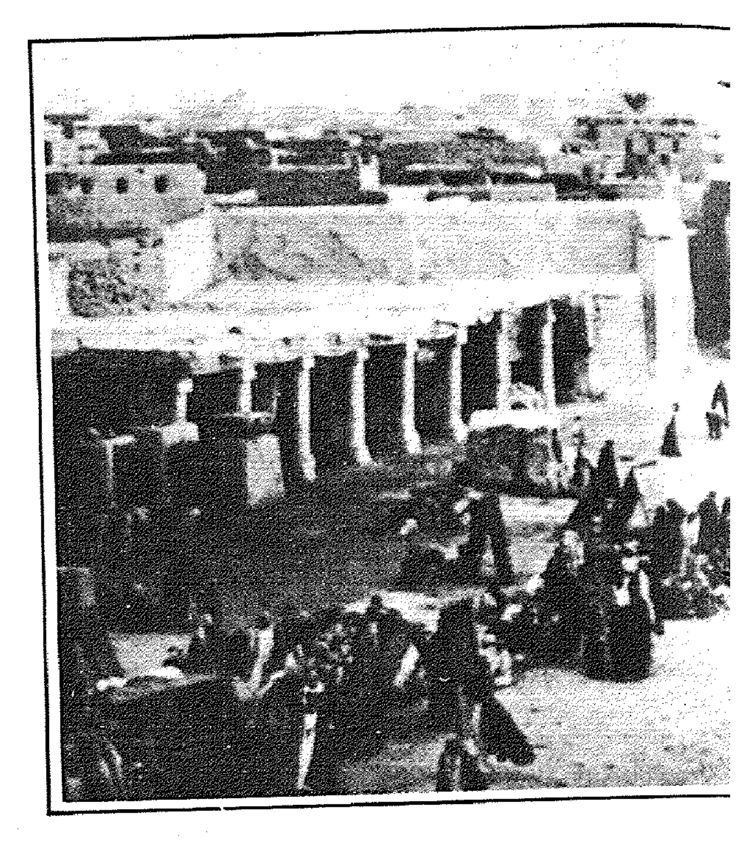
□ سوق في الهفوف (الاحساء). هنا كانت تتجمع تمور هجر وتوابل الهند وعطورها وبعض المصنوعات الاوروبية التي كانت تحمل إما برا (عبر الصحراء السورية وبادية نجد) او بحرا عن طريق عمان والخليج العربي. الصورة من كتاب: (Travellers in Arabia; by Robin Bidwell)

١ ــ الملح



نعرف جميعنا أن الملح مادة لا يستغنى عنها في الطعام. هذه حقيقة توصل الانسان إلى معرفتها في العصر الحجري الحديث، أي قبل مدة تتراوح بين عشرين ألفا وأربعين ألفا من السنين. أما قبل ذلك فقد كان يحصل على الملح من أكله لحوم الحيوانات التي يقنصها نيئا أو مشويا. فلما تعرف إلى الآنية وأخذ يطهو اللحم سلقا وجد أن اللحم يخسر ما فيه من الملح في المرق، فأخذ يبحث عن ملح الطعام حيثما وجده. والمعروف عند المؤرخين أنه في العصر البرونزي، أي قبل نحو ستة الاف سنة، أصبح الملح واحدا من اهم السلع التجارية في العالم. ولعل أكثر القراء قد مر بهم إسم مدينة سالزبرغ في النمسا باعتبار موسمها الموسيقي العالمي، ولكن قد لا يعرف الكثيرون أن معنى اسمها «مدينة الملح» وأنها كانت مركزا للحصول على الملح الصخري حتى منذ العصر الحديدي أي قبل نحو ثلاثة الاف سنة!

وليس من اليسير أن نذكر جميع المراكز التي كانت تزود المناطق المختلفة بالملح، ولا الطرق التي كانت هذه السلعة تنقل عبرها. ولكن لا بد لنا من الاشارة إلى بعض منها بالنسبة إلى الأزمنة المختلفة. فالذي اتفق عليه المؤرخون هو أن بدء الامبراطورية الرومانية كان مرتبطا بتجارة الملح. ففي القرن الثامن ق. م. كان الرعاة الفقراء من اللاتين، الذين كانوا يقطنون حول نهر التيبر في إيطالية، يحصلون على الملح من المستنقعات القريبة من مصب النهر، وكان ما عندهم يزيد عن حاجاتهم. لذلك أخذ أفراد من القبيلة اللاتينية يحملون إلى جيرانهم في الشرق الملح الذي كانوا يحتاجونه. وتطور الأمر إلى أن أصبحت المتاجرة بالملح عبر جبال إيطالية شرقا تجارة رابحة، وضُمَّتْ إليه سلع أخرى. وأراد هؤلاء التجار المحافظة على أسواقهم وأعمالهم فانتقل أفراد من القبيلة وأنشأوا جوالي لاتينية هي التي صارت حاميات عسكرية وسمي الطريق الأصلي طريق الملح وقد جر ذلك إلى أن فتحت رومه المناطق المختلفة تدريجا، وأصبحت المدينة الصغيرة أصلا، عاصمة لدولة تشمل إيطالية



بأجمعها تقريبا، ثم، نتيجة للفتوح الخارجية، عاصمة للامبراطورية الرومانية.

وقد روى هيرودتس أن الملح كان مصدر ثروة كبيرة لمناطق متعددة في ليبيا في العصور القديمة. وكان اليونان يحملون ما يلزمهم من الملح من شواطىء البحر الأسود. وكانت الهند تزود جيرانها بحاجاتهم من الملح، الصخري والبحري، لمدة طويلة حتى قبل وصول الاسكندر الكبير إلى تلك الديار.

وفي ديار العرب كان لتجارة الملح دور كبير في الثروة التي عرفتها تدمر في الأزمنة الغابرة. فقد كانت أرضها غنية به وكان ينقل منها إلى بلاد الخليج العربي، كما كان ينقل غربا إلى بعض المناطق السورية.

وفي العصور الوسطى كان ثمة طرق معينة تنقل عليها سلع تجارية مختلفة، إلا أن أهمها كان الملح. فمن هذه الطريق الذي كان يصل بين جنوب فرنسة وحوض نهر الرون. كما أن تجار الملح كانوا مسؤولين عن النشاط الكبير بين البندقية وأواسط أوروبة. والواقع أن عظمة البندقية بدأت لما تعلم أهلها أن يستخرجوا الملح من الأهوار التي كانت المدينة تتوسطها. وقد روى ماركوبولو، الرحالة الأوروبي الذي زار أواسط اسية في القرن الثالث عشر، أن تجارة الملح كانت رائجة في بلاد المغول، حتى أن الضريبة التي كان الامبراطور يحصلها من تجار الملح كانت المورد الرئيسي للخزينة. وبهذه المناسبة فإن روسية القيصرية وفرنسة قبل الثورة الفرنسية كانت الحكومة فيها تفرض «ضريبة الملح» التي كان بموجبها يُفْرض على كل شخص في البلاد أن يبتاع كل سنة مقدارا معينا من الملح، لأن هذه المادة كانت التجارة فيها حكرا على الحكومة. وكان المجرمون في روسية يستخدمون في حفر مناجم الملح لمصلحة الدولة.

ويبدو أن الصحراء الواقعة بين المغرب وغرب السودان كانت تجارة الملح فيها مصدر ثروة كبيرة. ومن حسن حظنا أن ابن بطوطة، الرحالة المغربي الكبير، قد زار تلك الأصقاع في القرن الثامن/ الرابع عشر وترك لنا وصفا لتَغازى والملح الذي فيها، قال:

«فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تَغازى وهي قرية لا خير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه في الأرض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين. ولا يسكنها إلا عبيد مَسوّفَة الذين يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال المجلوب من بلاد السودان [الغربي]. ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح. ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالا. وبالملح يتصارف السودان كما يُتَصارَف بالذهب والفضة. يقطعونه قطعا ويتبايعون به. وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر.

وتغازى هذه كانت المصدر الوحيد للملح في الأجزاء الداخلية وفي السودان الغربي. وكان استخراج الملح مقصورا على قبيلة مسوفة، وكان يقوم بذلك عبيدهم.

وفي أوائل القرن العاشر/ السادس عشر زار تلك الأصقاع الصحراوية الحسن الوزان المعروف

باسم ليون الافريقي. ويحدثنا الحسن عن تجارة الملح في تغازى فيقول أن العبيد كانوا يستخرجونه لقبيلة مسّوفة، وتحمله القوافل إلى تنبكتو جنوبيا ومالي غربا. وقد كان ثمة مركز للاتجار بالملح هو غُوا عاصمة مملكة سُنفي على نهر النيجر. ومع أن هذه المدينة كانت مركزا لجميع أنواع السلع التي تنقل إليها من الشمال والغرب والجنوب والشرق، فإن أغلى أنواع المتاجر فيها هو الملح، وأهمها بالنسبة إلى السكان.

قصة الملح وتجارته وطرقه قصة طريفة، والذي أوردناه هنا منها إنما هو نقط من بحر.

٢ ـ التوابل

لا يكاد الواحد منا يذكر كلمة التوابل حتى يتصور المآكل المختلفة التي يحسن طعمها الفلفل والبهار والكمون والكراوية، والأشربة المنوعة التي تتمتع النفس بمذاقها وقد أضيفت إليها القرفة وجوزة الطيب وحب الهال والقرنفل. وهذه الأحاسيس التي تغرينا بالأكل ليست حديثة العهد على البشر. ذلك بأن هذه الأنواع المتعددة من التوابل معروفة في منطقة جنوب شرق اسية والقارة الهندية من أقدم العصور. وقد وجدت التوابل طريقها إلى بابل ومصر وفلسطين والمدن السورية واللبنانية منذ أن عرفت التجارة الطرق التي تسير عليها. وكلما انتشرت التجارة غربا، وكلما تعرف الناس إلى مباهج الحضارة، كانت التوابل والعطارة تنتشر بين الناس. فعرفها اليونان تجارا ونشروها في الطوارىء التي انشأوها في حوض البحر المتوسط، كما كان الفينيقيون قد نقلوها إلى الأماكن التي استقرت فيها جالياتهم مثل قرطاجة وغيرها. فلما قامت الامبراطورية الرومانية أصبحت التوابل معروفة في شمال البحر المتوسط وحتى في بقاع أوروبية كثيرة. وكان من المعروف أنه حيثما يحل جيش روماني ينقل معه الفلفل والقرفة على أقل تعديل.

وكان أن عرف التاريخ هذه الامبراطورية العربية الاسلامية الواسعة، فصارت مدنها أسواقا كبيرة للتوابل على اختلاف أنواعها. وقلما نجد كتابا في فن الطبخ أو فن مزج الأشربة وضع في حدود هذا الملك العريض إلا وفيه وصفات متعددة للتابل الذي يجب أن يستعمل لتجويد مأكل أو مشرب. والمنطقة التي حرمت استعمال التوابل في الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادي إلى القرن العاشر هي أوروبة الغربية التي انقطعت التجارة بينها وبين أجزاء البحر المتوسط في تلك الفترة.

وكان ثمة ثلاثة طرق رئيسية تنتقل التوابل عبرها من مكان إنتاجها إلى أسواقها الواقعة إلى الغرب من تلك المناطق. اثنان من هذه الطرق كانا بحريين عبر الخليج العربي والبحر الأحمر. والطريق الثالث كان بريا عبر أواسط اسية إلى شمال العراق فالامبراطورية البزنطية. أما الأسواق الرئيسية فقد كانت في العصور الوسطى مثلا، توجد في رقعة من الأرض محدودة بالقسطنطينية والاسكندرية غربا وسمرقند وحوض السند شرقا. في هذه الرقعة من الدنيا كانت تقوم، في أوقات مختلفة، نينوى وبابل وممفيس والقدس وغزة ودمشق وانطاكية وصور وكافا وهرمز والبصرة وبغداد. فإذا اتسعت رقعة التجارة والتجار وجدنا الأسواق في رومة والبندقية وجنوا ومرسيليا وبرشلونة وغرناطة وقرطبة ولندن وبْروج ولُبِّك.

وجدير بالذكر أن استعمال التوابل في المآكل كان يقتبس بسرعة. فإن القبائل الجرمانية التي اغارت على الامبراطورية الرومانية في القرنين الرابع والخامس للميلاد استساغت استعمال الفلفل حتى أن الريك طلب، كجزء من الفدية التي كان على رومة أن تقدمها له، ثلاثة الاف رطل من الفلفل.

وكان للحروب الصليبية أثر كبير في تنشيط التجارة بين الشرق والغرب. وكانت التوابل فيما استعمل، ونشطت تجارتها كثيرا. وفي الفترة التي تلت هذه الحروب كانت خمس مدن في المشرق المراكز الرئيسية لهذه التجارة وهي القسطنطينية ودمشق وبغداد والقاهرة والاسكندرية. كما كانت البندقية وجنوا وبيزا وأمالفي ومرسيليا مراكز توزيعها في الغرب. أما تونس وتلمسان وفاس فكانت النقط التي تنطلق منها تجارة التوابل إلى افريقية الغربية والوسطى. وليس من قبيل المصادفة أن نجد، حتى يوم الناس هذا، أن كلا من الموصل وحلب



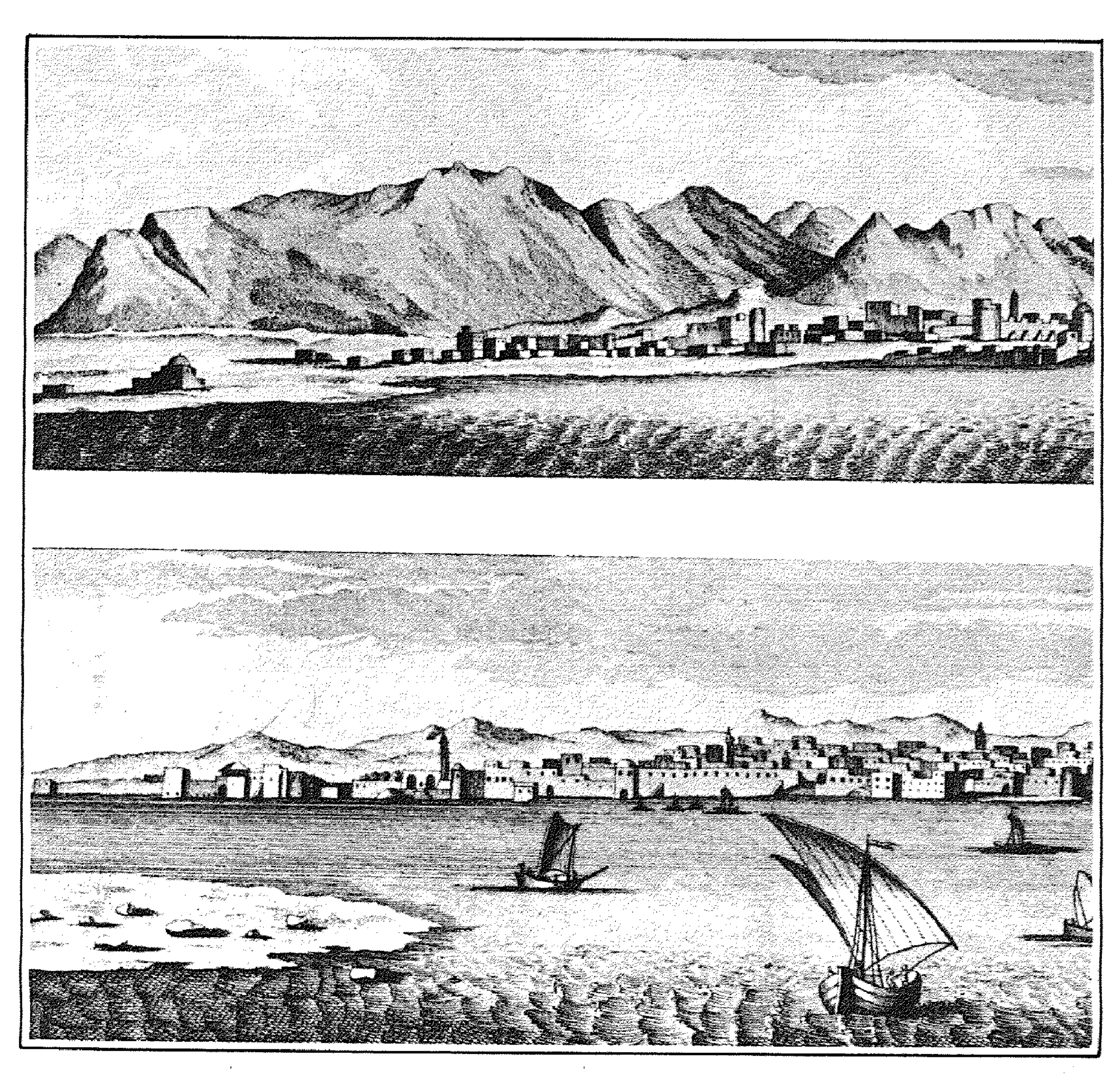
□ «سوق التوابل» في أحد موانىء البحر الأحمر.

ودمشق والقدس والقاهرة وتونس وتلمسان وفاس ومراكش وطنجة فيها سوق تسمى سوق العطارين.

وفي أواسط آسية كانت سمرقند واحدا من المراكز الهامة لتجارة التوابل وغيرها. فقد ورد في كتاب «سونيا هاو» عن تجارة التوابل أن بضائع الهند كانت تنقل إلى القسطنطينية عن طريق نهر الكنج حتى مدينة أغرا، ومن ثم إلى سمرقند التي تسمى «عروس مدن اسية الوسطى». ففيها كان يلتقي الشرق والغرب حتى أن عدد التراجمة فيها بلغ مئة وثلاثة مترجما. وقد سجل رحالتان فرنسيان زارا تلك المدنية أنهما شاهدا في سمرقند هنودا وفرسا وعرب وأتراكا وأجناسا أخرى من الناس لهم متاجر يتبادلون فيها كميات كبيرة من الأقمشة الحريرية المزركشة بالذهب والأخشاب وصوف الجمال والحجارة الكريمة والتوابل المتعددة الأصناف.

وكانت التوابل، في القرن الثالث عشر مثلا، تحمل من الاسكندرية إلى الموانىء الايطالية ومن هناك تجتاز جبال الألب وتنحدر إلى وادي نهر الراين حيث تنقل إلى الأراضي المنخفضة. أما من القسطنطينية فكانت التوابل تتجه نحو مدن بحر البلطيق. وكانت بْروج أكبر مركز لتوزيع التوابل في شمال غرب أوروبة. ففيها كان يلتقي تجار بريطانية وفرنسة وألمانية. وكان التبادل، على العموم، يدور بين التوابل والصوف.

في سنة ١٣٠٠ أدخل المماليك نظام الاحتكار في تجارة التوابل. ذلك بأن الفائدة التي كانت تُجْنى من التجارة فيها، والأرباح التي كان يحصل عليها كانت مغرية. ولما كان المماليك يسيطرون على ديار الشام ومصر والحجاز فقد أمر السلطان بأن تحمل جميع التوابل التي تنقل بحرا إلى مصر، وحتى ما كان ينقل منها إلى هرمز في الخليج العربي. كما أن السلطان فرض على



□ صورة قديمة لميناء ينبع، ترجع إلى عام ١٧٦٢، مرسومة من مكان يقع على الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة. الصورة من كتاب: (Travellers in Arabia; by Robin Bidwell).

جميع السفن التي كانت تحمل الحجاج من الشرق أن تأتي معها بكميات من التوابل إلى جده حيث تنقل إلى القاهرة، إما عبر البحر الأحمر أو عن طريق الحج البري عبر مكة وشمال الحجاز وسيناء. ولكي نتصور الأرباح التي كانت تجنى من تجارة التوابل بالنسبة إلى سلاطين مصر فلنذكر أن أي كمية من التوابل التي كانت تصل إلى ساحل مصر على البحر الأحمر كان ثمنها يرتفع مئتين بالمئة عندما تصل الاسكندرية. وقد قدر الزمن اللازم لشحنة من التوابل في رحلتها من جزر ملّوك في جنوب شرق اسية إلى لندن بنحو سنتين.

وظلت تجارة التوابل تعتمد على الطرق الشرقية حتى اكتشف فاسكو دي غاما الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند. عندها تحولت التجارة الأوروبية في التوابل وغيرها عن الشرق وصارت هذه البضائع تنقل إلى البرتغال رأسا، ومنها إلى أنحاء أوروبة المختلفة. إلا أن هذا لم يكن في مصلحة المدن الايطالية التي خسرت بذلك موردا كبيرا من مواردها. لذلك اهتمت بإعادة النشاط إلى التجارة البرية بالاتفاق مع العثمانيين الذين كانوا قد احتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ واحتلوا الشرق العربي وشمال افريقية وضموا كل هذه

البلاد إلى امبراطوريتهم فيما بعد. وقد نجحت المحاولة، لذلك نجد أنه منذ أوائل القرن السابع عشر، أي بعد مرور قرن وبعض القرن على وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي بحرا، تعود التجارة البرية في التوابل إلى الكثير من نشاطها السابق. وتعود القوافل تحمل إلى موانىء بلاد الشام ومصر وحتى القسطنطينية نفسها التوابل والعطور والطيوب وغير ذلك من منتوجات الشرق البعيد عبر إيران والخليج العربي. وتعود إلى أسواق العطارين روائحها الزكية وألوان توابلها المنعشة. ويعود الناس إلى تطييب مآكلهم ومشاربهم بالتوابل على نطاق واسع، بحيث لم يكن يخلو بيت من نوع منها.

٣ ــ الأخشاب

في رقعة الأرض الممتدة من أواسط اسية إلى المغرب واسبانية أنشأ العرب امبراطوريتهم. وفي عصور ازدهارها، التي دامت قرونا طويلة، كانت الصناعات الخشبية ناشطة في أنحاء هذه الدولة العربية الاسلامية فقد أُغرِم القوم بالأثاث الجميل الذي تطلبته ثروتهم الكبيرة. وكثرت المنابر والمحاريب في مئات المساجد التي بنيت. وكثيرا ما زخرفت جدران المساجد وسقوفها والقباب المحيطة بها بالخشب المحفور.

وكان على الدولة العربية موحدة، أو الدويلات التي قامت فيما بعد، أن ترد عن نفسها عادية البيزنطيين أولا والصليبيين ثانيا ثم المدن الأوروبية ثالثا. وهذه كلها كانت لها أساطيل، فكان لا بد من اتخاذ الأساطيل وتجهيزها بالسفن لتقوم بواجبها. وكانت بعض هذه الأساطيل تتكون من مئات السفن المختلفة حجما ونوعا فكان يلزمها كميات كبيرة جدا من الأخشاب القوية. يضاف إلى ذلك أن بعض مناطق هذه الرقعة الواسعة كانت تعني بصناعة السكر والصابون وسبك المعادن وما يجري مجراها من الصناعات. وهذه كلها كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من الأخشاب للوقود.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه المنطقة الواسعة بالذات لوجدناها فقيرة نسبيا في الغابات والأخشاب. فالغابات التي كانت تكلل المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين هي امتداد شرقي لغابات منطقة بنطس على البحر الأسود، التي تمتد إلى مرتفعات البرز. كما أن الغابات الموجودة في ديار الشام، بما في ذلك غابات سورية الشمالية ولبنان، هي امتداد جنوبي لغابات الأناضول. وهناك بعض مناطق الغابات في صقلية والجزائر والمغرب. أما العراق وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا والصحراء فليس فيها أشجار حرية بالذكر.

فإذا أجلنا بصرنا في المناطق المجاورة لبلاد الدولة العربية الاسلامية وجدنا ثروة في الغابات في شمال حوض البحر المتوسط وفي الدولة البزنطية. أما في الشرق فهناك غابات الهند الغربية،وخاصةخشب الساج أو التيك في سواحل مالابار.

ولنذكر أن غابات البحر المتوسط الشرقية كانت قد استهلك اكثرها في العصور القديمة. فالحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين ومصر كانت قد جردت جبال لبنان وقسما كبيرا من جبال سورية الوسطى من أخشابها إذ استعملت في بناء الهياكل والسفن. والفينيقيون انفسهم قطعوا الكثير من أخشاب جبال لبنان لبناء سفنهم التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط والتي وصلت إلى البحر الأحمر في القرن العاشر ق. م. وزاد الطلب على أخشاب لبنان وجبال اللاذقية في الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والحادي عشر، بحيث أنه لم يبق من غابات الأرز والصنوبر سوى أشجار قليلة هي ذكرى العصور الغابرة.

فما هي الوسائل التي لجأ إليها أولو الأمر لسد حاجات الصناعات والأسطول ونواعير الري في هذه الرقعة الواسعة من الأرض؟

إذا نحن أخذنا مصر في أيام الفاطميين والمماليك مثلا وجدنا أن الدولة نظمت الأمور تنظيما دقيقا. فكل قطعة من الأخشاب التي كانت تحتاج لبناء الأساطيل كان أمر استغلالها منوطا بالدولة. ومثل ذلك يقال عن الأغالبة في تونس. فقد كان الناس يُقْطَعُون الأراضي في صقلية بعد احتلالها، شرط أن يقطعوا الأشجار ويبعثوا بأخشابها إلى تونس. ثانيا كانت السفن تغير على مناطق الغابات لتحصل منها على بعض حاجاتها. ومثلنا على ذلك الغارت البحرية التي كانت تُشَنُّ

بين الحين والآخر على شواطىء الأناضول ودلماشيا.

على أن الطريقة المثلى الفعالة للحصول على الأخشاب كانت شراءها من خارج نطاق الدول العربية الاسلامية. فأخشاب أرمينية كانت تُعَوَّم في نهر دجلة إلى بغداد والعراق الأدنى. وكانت تُبْتَاع كميات كبيرة من خشب الساج أو التيك من الهند. فتصل إلى الخليج العربي ومنه إلى العراق، كما كانت تنقل إلى مصر عبر البحر الأحمر. وكان مكان وصولها في القاهرة يسمى ساحل الخشبات. وكان خشب الساج الهندي يعتبر خير ما يستعمل في بناء البيوت ببغداد وبالمشرق بأجمعه. وكان خشب الصنوبر يقوم بمثل ذلك في حوض البحر المتوسط. وقد روى المقدسي الجغرافي، وهو من أهل القرن العاشر للميلاد، أن مدينة سيراف على الخليج العربي كانت ابنيتها تتكون من طبقات عديدة، وكانت من خشب الساج الثمين. ويضيف إلى ذلك قوله: «وقد بنيت دورها من خشب الساج والآجر وتُشْتَرى الدار الواحدة بفوق المئة ألف درهم».

وقد كان استيراد خشب الساج أو التيك معروفا قبل العرب بمدة طويلة. فقد روى ثيوفرستوس حول سنة ٣٠٠ ق. م. أن خشب الساج كان يصل إلى البحرين من الهند. ولكن لا شك أن الحاجة إليه ازدادت أيام العرب.

اما من أوروبة فكان العالم الاسلامي يستورد الصنوبر والشربين من جبال الألب وامتداداتها. وكانت مدينتا البندقية وأمالفي تقومان بدور الوسيط. وقد كانت الامبراطورية البزنطية تجرب أن تحول دون وصول الخشب إلى جنوب البحر المتوسط وشرقه. ففي سنة ٩٧١م صادرت القسطنطينية ثلاث سفن بندقية كانت تحمل أخشابا اثنتان منها كانتا تقصدان المهدية في تونس والثالثة كانت متجهة إلى طرابلس في ليبيا.

وعلى كل فإن قوانين المنع لم تكن تطبق إلا فيما ندر، وخاصة عند التجار البنادقة. وعند الحاجة فقد كانت الأخشاب تُهَرَّب: ذلك أن السوق السوداء كانت أكبر أرباحا من التجارة النظامية.

يتضح من هذا أن المنطقة التي قامت فيها الدولة العربية الاسلامية وخليفاتها كانت في وضع خاص. فقد كانت تعتمد في الحصول على لأخشاب اللازمة لها على مناطق نائية والطرق إليها كانت تتعرض لتقلبات سياسية واقتصادية كثيرة. وقد كانت الأموال التي تنفق للحصول على الأخشاب كبيرة. وكان التجار يطلبون ثمن بضاعتهم ذهبا في غالب الأحيان.

والطريق التجارية الآتية من الشمال التي كان تجار الأخشاب يتبعونها كانت تنقل عليها أيضا الفراء والعسل والقطران.

٤ ــ البن

تعرف شعوب العالم من أقصاه إلى أقصاه القهوة اليوم، ويتناولها الملايين من الناس صباحاً ومساء وما بينهما، وتقدم بأشكال مختلفة وبأكواب متفاوتة الحجم، مغلية مع السكر حينا وبدونه حينا، ممزوجة بالحليب طورا وبدونه طورا. وقد أصبحت القهوة شيئا مألوفا حتى أن أصلها وتاريخها وتوزعها وانتشارها قلما تخطر على بال الشاربين.

وحتى عندما تسأل أحد من الناس عن القهوة، فالذي يدور في خلد المسؤول هو أن البن يأتي من البرازيل، ذلك لأن تلك الديار فاقت غيرها حديثا في زراعة البن وتصديره. وكم من مقهى ظهر في العقود الأخيرة، حتى في ديار العرب، يحمل إسم البرازيل، حتى ليخيل إلينا أن الكثيرين من شبابنا لا يربطون بين القهوة والبن واليمن أبدا.

ويبدو أن القهوة وما يكسبه المرء من شربها من نشاط ويقظة وتنبه أحاطت تاريخها بالكثير من الأساطير، وإن لم تجعل هذه الأساطير السماء مصدرا للقهوة، كما عملت بالنسبة إلى بعض المشروبات الأخرى. فقد روت القصة أن كالدي، وهو من أهل القرن التاسع (هـ)، كان يعجب من النشاط الذي يصيب الماعز التي يراعاها في مواسم معينة في السنة، ولاحظ أن ذلك يعقب الوقت الذي تأكل فيه حبوبا صغيرة لنبتة تنمو في سفوح الجبال التي تنتشر الماعز فوقها. واستخار كالدي الله وأكل من هذه الحبوب، فأصابه نشاط ويقظة وتنبه وأخذ يخبر الناس عنها. أما أين كان كالدي هذا فأمر تحار القصة في تعيينه. ويبدو لنا ان رقاعا مختلفة في الدنيا ادعته، وأرادت



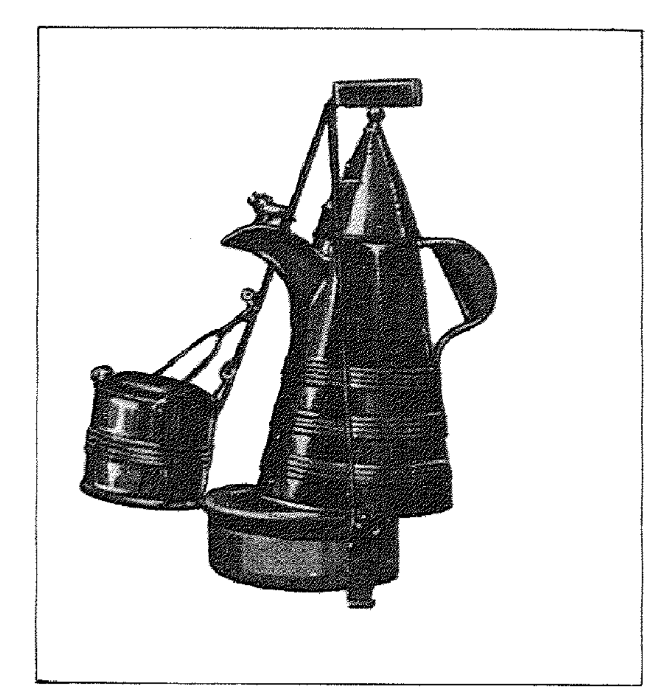
□ مدام «دو باي».. تشرب القهوة التي كانت مشروب الطبقة الارستقراطية في بدء انتشارها في اوروبا.

الأسطورة أن تطيب خاطر الجميع، فوهبته اليمن حينا، والحبشة حينا اخر، ولعل غيرهما مُنِحَه في وقت ثالث.

ولعل الأمر الذي عليه أولئك الذين عنوا بدراسة تاريخ البن وانتشار شربه هو أنه ينمو حبا بريا في فوح الهضاب الأثيوبية إلى يوم الناس هذا. أما المكان الذي أعطى العالم شرب رحيق البن فهو اليمن على الأرجح.

فقد جاء في كتاب الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة الذي حققه ونشره الدكتور جبرائيل جبور، في ترجمة أبي بكر الشاذلي ما نصه: «أبو بكر ابن عبد الله الشيخ الصالح العارف بالله تعالى الشاذلي المعروف بالعيدروس وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن. وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن على عادة الصالحين، فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته، فوجد فيه تجفيفا للدماغ واجتلابا للسهر وتنشيطا للعبادة، فاتخذه قوتا وطعاما وشرابا وارشد اتباعه إلى ذلك. ثم انتشرت العادة في اليمن ثم إلى بلاد الحجاز ثم إلى الشام ومصر». وأبو بكر الشاذلي هذا توفي في أوائل القرن العاشر للهجرة (أوائل القرن السادس عشر للميلاد).

ونحن نعرف أن الأتراك احتلوا ديار الشام ومصر في مطلع القرن نفسه، ويبدو أنهم حملوا البن وشرابه المعروفة بالقهوة معهم إلى ديارهم. «والظاهر أن الكثيرين من العارفين بالله والزهاد والمتعبدين وجدوا في القهوة ما وجده فيها



□ ركوة عربية ذات موقد فحمي (مصنوعة من النحاس الأصفر والأحمر).



□ ركوة فضية.

ابو بكر الشاذلي فأدمنوا على شربها. ولعل هذا هو واحد من أسباب انتشارها انتشارا كبيرا.

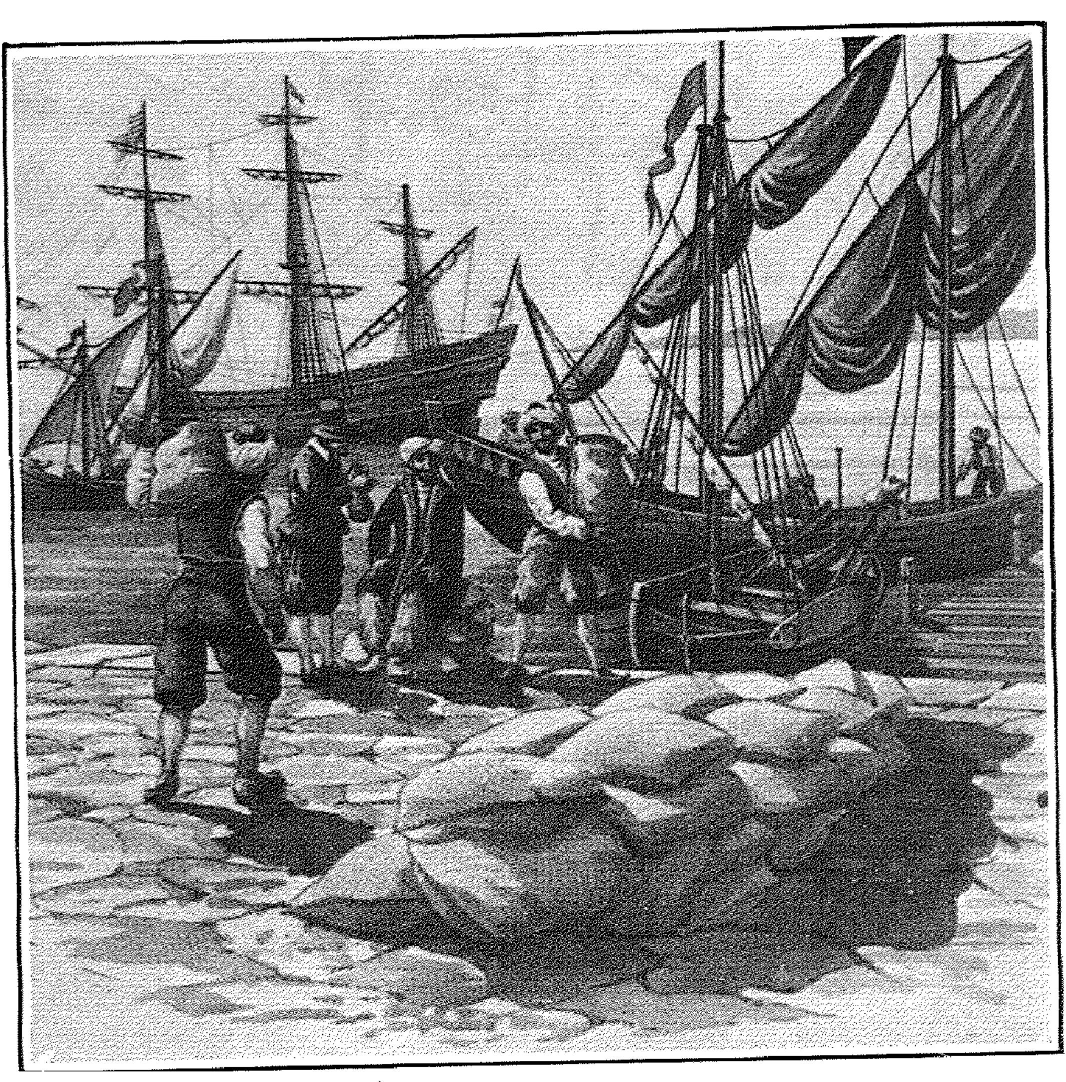
على أن انتشار هذا المشروب لم يتم بدون خلاف بين الفقهاء حول تحريمه وتحليله. وقبل أن نعرض لهذه النقطة نود أن نذكر أنفسنا بأن كلمة قهوة كانت من قبل تستعمل للخمر في الشعر العربي. والشواهد على ذلك كثيرة لا يتسع لها المقام هنا.

ونعود ثانية إلى الكواكب السائرة لننقل عن المؤلف نجم الدين الغزي روايته عن الخلاف، قال: «واختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة وفي أمرها حتى ذهب إلى تحريمها جماعة ترجح عندهم أنها مضرة. وآخر من ذهب إليه بالشام الشيخ العيتاوي، ومن الحنفية القطب بن سلطان، وبمصر الشيخ النباطي تبعا لأبيه. والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة». ومن الشعر الذي يرجع إلى تلك الفترة والذي يدل على اختلاف أولئك العلماء حول موضوعها بيتان لأحد الفقهاء، هما:

قهوة البن حرام
قد نهى الناهون عنها!
كيف تدعوها حراما!
وأنا أشرب منها

ذاع أمر شرب القهوة وانتقلت إلى عرب المشرق وتركية، وصارت شرابا مقبولا سائغا للجيش العثماني. وفي سنة ١٥٢٩ حاصر السلطان سليمان القانوني مدينة فينا بجيش كبير. ومع أن الحصار كان شديدا فإن السلطان لم يتمكن من فتح العاصمة النمسوية. ثم أرغم على فك الحصار والتقهقر مسرعا. فترك الكثير من الذخائر والمؤن، وبينها أكياس كثيرة من حب البن كان الجيش قد حملها معه لاستعماله. وغنم الجيش النمساوي هذه الحبوب مع ما غنم، وسئل الأسرى الأتراك عن هذا الحب الأخضر الصغير. فأرشدوا آسريهم إلى طريقة صنعه، فأعجب به النمساويون وأقبلوا عليه. ومن ثم انتشر إلى بقية أنحاء أوروبة، وكانت انتشار القهوة سريعا. ففي سنة ١٦٥٢ فتح أول مقهى في لندن حيث كان الناس ينعمون بشرب القهوة. وانتشار الشراب وعادته على يد الأتراك يوضح لنا السر في تسمية القهوة في أوروبة عامة «التركية».

وظلت اليمن البلاد الأولى لتصدير البن وقتا طويلا إلى أن انتشرت زراعته في شرق الأرض ومغربها. وكان ثمة ميناءان تخرج منهما السفن محملة بالبن. فمن زبيد كان البن يحمل إلى مصر



□ اخذ البنُ العربيُ يشحَنُ إلى أوروبا بكميات كبيرة في اواسط القرن السابع عشر. حتى أن إسم مُخا وهو اهم موانىءاليمن حينئذ اصبح مرادفا للفظ القهوة في اوروبا.

وتركية وأوروبة بطريق البحر الأحمر والسويس والقاهرة والاسكندرية. كما كانت السفن تحمل البن من مخا إلى العراق والهند وما والاها وإلى غرب أوروبة بطريق رأس الرجاء الصالح. وقد نقل هذه الأخبار السائح دانيال الذي زار تلك البقاع من الساحل اليمني حول سنة ١٧٠٠ للميلاد.

على أن الأمر لم يستمر لمخا. فقد تعرضت لحرب وهجوم دمرا الكثير من مينائها ومبانيها وأخاف التجار القادمين إليها. لذلك انتقلت تجارة البن بعد ذلك منها إلى لحيا. فقد حدثنا أوفيتون عن ذلك فقال: «لما كانت ميناء مخا قد أصابها التدمير مؤخرا.. فإن الجماعة التي كانت قد اعتادت على الاتجار معها أصبحت تخشى على متاجرها، ولذلك فضلت الانتقال إلى مدينة أخرى هي مدينة لحيا»، الواقعة على نحو سبعين ميلا إلى الشمال من الحديدة. وأصبحت لحيا تجذب إليها السفن القادمة من الهند وغيرها. ثم لما عمر ميناء عدن أصبح تصدير البن من أعماله الرئيسية.

وقد كان وصول السفن التي تحمل البن إلى البصرة شيئا ينتظره التجار دوما، إذ كانت تصل في وقت معين. وفي دار المحفوظات العامة بلندن وثيقة ترجع إلى سنة ١٧٢١، يقول فيها مرسلها «قد وصل أسطول البن المكون من بضع عشرة سفينة إلى البصرة بأمان».

من أوروبة انتقل شراب القهوة إلى العالم الجديد. ولعل أول مقهى فتح في نيويورك كان سنة ١٧٣٧. وبانتشار زراعة البن في أميركة الجنوبية زاد إنتاجه كثيرا وعم استعماله العالم الجديد.

أما في بلادنا فلا يزال البن المحبب عند شريبي القهوة هو البن العدني، الذي أصبح ينتقل إلينا بطريق ذلك الميناء منذ مطلع القرن التاسع عشر.

●

غُزاة بحر الشّام وأمراؤه
في العصر العبّاسي

د. عمر عبد السّلام تدمري

(الحلقة الثانية)

الدولة العباسية ابتداء من سنة ١٣٣

البحر الاسود

بحر الخزر (قزوين)

سمرقند

كشمير

دمشق

بغداد

الكوفة

البصرة

شيراز

الاسكند

الخليج العربي

عند منتصف القرن الثاني كان قادة المنصور يزحفون الى القندهار عند حدود الهند الثانية بعد ان احتلوا الاراضي الجبلية جنوب بحر الخزر . فيما بعد وصلت الجيوش الاسلامية الى كشمير في السفح الشمالي الغربي من جبال الهملايا

سنة ١٤٥ بدأ المنصور ببناء مدينة بغداد ، وما لبثت ان اصبحت مدينة اسطورية وتزعمت حركة النهضة العربية . تولى علماء بغداد تحقيق اعظم الدراسات في مختلف العلوم والفنون فكانت اساسا لعصر النهضة في اوربا .

في هذه الدراسة نعود لوصل ما انقطع من هذا الموضوع الذي يستعرض أسماء الغزاة في «بحر الشام» والأمراء الذين كان لهم دورهم في الذَّوْد عن السواحل العربية، ومن خلال العرض نؤرخ لفترة من الصراع (العربي ـ البيزنطي)، تعتبر من أكثر الفترات التاريخية غموضاً في تاريخ ساحل الشام. ولا يخفى أن انتقال مركز الخلافة من دمشق إلى الأنبار ثم بغداد، كان سبباً أساسياً في ندرة المعلومات عن الوقائع التاريخية ومجريات الحوادث التي شهدتها هذه المنطقة، ولذا كان على الباحث المؤرخ لهذه الفترة أن لا يكتفي باعتماد المصادر التاريخية البحتة فحسب، بل يجدر أن يستعين بكل مصدر غير تاريخي يساعد على إنماء معلوماته وإثرائها بالوقائع التي توفر له مادة وفيرة يمكن أن يؤلف بينها، ويؤلف منها. ومن هنا تأتي أهمية كتب التراجم والطبقات، وكتب الأدب ودواوين الشعراء، وكتب الحديث والفقه، وكتب الرحلات والجغرافيا، وغيرها، في رفد كتب التاريخ بالمعلومات الثرَّة.

د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، أستاذ التاريخ الإسلامي ـ الجامعة اللبنانية ـ فروع طرابلس.



في الربع الأخير من القرن الثاني استقل الادارسة عن العباسيين وانشأوا دولتهم في المغرب، مفتتحين مرحلة تفسخ الخلافة العباسية الى دويلات في الشرق وفي الغرب.

بعد قيام الدولة الاموية التي تمكن عبد الرحمن الداخل من توطيدها غربا في الاندلس، شهد القرنان الثالث والرابع تجزؤ الخلافة العباسية الى دويلات اخرى في الشرق: فظهرت الدولة الاخشيدية في مصر سنة ٣٢٨ وارثة حكم ابن طولون فيها، واستطاع مؤسسها محمد بن طغج ان يضم اليها سورية وفلسطين في فترة لا تتجاوز السنتين. ثم ظهرت في شمالي سوريا الدولة الحمدانية التي اشتهر اميرها سيف الدولة برعايته للشعر والفنون والآداب.

الانتقام من البيزنطيين



كان على العباسيين، بعد أن أخمدوا حركة الخارجين في جبل لبنان، أن يلتفتوا إلى أهل قبرص الذين ساعدوا البيزنطيين في غزوتهم إلى اللاذقية وطرابلس، ولذلك خرج إليها غازيا أمير البحر الشامي «العباس بن سفيان الخثعمي» في سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م. فكان أول جيش للمسلمين يغزوها منذ قيام الدولة العباسية، كما يؤكد «ابن عساكر»(٤٠).

وكان عبد الملك بن مروان قد زاد في أيامه على أهل قبرص ألف دينار فوق ما كانوا يؤدونه للدولة الأموية بموجب صلح معاوية، فأسقط عمر بن عبد العزيز تلك الزيادة، ولما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك عاد ففرض الألف الزائدة من جديد، إلى أن فُتحت الجزيرة في هذه السنة، فأسقط أبو جعفر الزيادة وقال: «نحن أحق من أنصفهم» وردهم إلى صلح معاوية(٤١).

أما اللاذقية ونواحيها فقد ظلت تحت سيطرة البيزنطيين منذ حملتهم البحرية في سنة ١٤٠هـ حتى خرج «معيوف بن يحيى الحجوري»(٤٢) في غزوة صائفة سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م. فوصل إلى حصن من حصون الروم ليلا وأهله نيام، فسبى وأسر من كان فيه، ثم قصد اللاذقية المحترقة — وكان البيزنطيون قد عمروها — فسبى منها ستة آلاف، سوى الأسرى من الرجال(٤٣).

وواصلت الدولة العباسية ضغطها على الدولة البيزنطية حتى اضطر الامبراطور «قسطنطين» أن يطلب الصلح من الخليفة المنصور وأن يؤدي إليه الجزية في سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م(٤٤).

وفي سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م انتهى صراع الخليفة والامبراطور بوفاتهما، ولكن دون أن ينتهي صراع الدولتين.

في عهد المَهْدي

في عهد الخليفة المهدي ابن المنصور (١٥٨ — ١٦٩هـ/٧٧٥ — ٧٨٥م) تجددت غزوات المسلمين البحرية عن طريق مواني الشام. وتشير المراجع التاريخية إلى غزوتين في سنتين متتاليتين قام بهما أمير البحر «الغمر بن العباس الخثعمي»(٤٥) في سنة ١٦٠ و ١٦١هـ. ولكننا لم نعرف وجهة هاتين الغزوتين(٤٦). وكان «الغمر» قد ولي غازية بحر الشام بعد «عامر بن ربيعة السلمي» في الفترة الأخيرة من عهد المنصور.

وحول ذلك التاريخ استشهد الشيخ الزاهد «ابراهيم بن أدهم» وهو يقاتل في موقعة جرت في احدى جزر بحر الشام(٤٧)، فحمل إلى مدينة صور ودفن فيها، حسب قول أبي نُعيم الأصبهاني(٤٨). مع أن المشهور أن قبره في مدينة جبلة(٤٩). وكان «ابن أدهم» قد خرج في عدة غزوات بحرية كما يبدو من «حلية الأوليا»، وكان معه في بعضها:

«بقية بن الوليد»(٥٠).

و «أبو رجاء الهَروي»(٥١).

و «فديك»(٥٢).

و «أبو المرتد»(٥٣)

وغزا «ابن أدهم» غزوتين في البحر ولم يأخذ سهمه من الغنائم أو يفترض، وذلك زيادة في الزهد(٥٤). وقيل إنه كان يغزو مع «حميد بن معيوف الهمداني»(٥٥). ثم أوكل أمر الغزو في ساحل الشام إلى «عبد الله بن الأسود المحاربي» ثم إلى «جرير بن عبد الله العبسي»(٥٦) وإن كانت المراجع التاريخية لا تفصح عن جهودهما بشيء.

ولقد حدث في سنة ١٦٣هـ/٧٨٠م أن سار المهدي إلى بيت المقدس، يرافقه الأميران اللخميان «المنذر» و «أرسلان»، فاغتنم النصارى خروج الأميرين من لبنان، وقاموا بمهاجمة قوافل التجار والمسافرين بالساحل بين طرابلس وبيروت، وبيروت وصيدا، وحين عاد الأميران قاما بمهاجمة المتمردين (حسب تعبير الشدياق) في عدة مواقع، كان أشهرها موقعتان، احداهما عند نهر سمي بنهر الموت بين بيروت وجبيل، لكثرة ما وقع فيه من قتلى. وكانت الأخرى عند انطلياس على الساحل شمالي بيروت، قتل فيها من الفريقين أكثر من ثلاثمائة رجل، وانتهت بانتصار الأميرين وابعاد خطر المتمردين عن الساحل(٥٧). وعندما قام



□ شعار الدولة البيزنطية.

المتمردون في سنة ١٧٤هـ/ ٧٩١م بمداهمة الأمير «مسعود بن أرسلان اللخمي» في قرية «سن الفيل»[٥٨] قرب بيروت التقاهم خارجها وأنزل بهم الهزيمة وقتل كثيرا منهم، وشن هجوما على بعض قراهم السفلى وأحرقها[٥٩].

وعاد المسلمون والبيزنطيون في سنة ١٧٤هـ/٧٩١م إلى تبادل الغزوات البحرية، فغزا البيزنطيون إلى ساحل الشام، ورد المسلمون عليهم بغزوة مماثلة في البحر[٦٠]. ونقض أهل قبرص الصلح مع المسلمين حول سنة ١٧٤هـ، فأراد والي الثغور «عبد الملك بن صالح بن علي» في خلافة «هارون الرشيد» (١٧٠ ــ ١٩٣هـ/ ٧٨٥ ــ ٨٠٨م) أن ينقض صلحهم لينتقم منهم، وقبل أن يُقدم على ذلك كتب إلى الفقهاء يستشيرهم، فلم يوافقوه على رغبته، رغم أن أهل الجزيرة «لم يفوا للمسلمين قط»[٦١].

وفي ذلك يقول «أبو عبيد بن سلام»:

«ثم كان بعد ذلك حدث من أهل قبرس، وهي جزيرة في البحر، بين أهل الاسلام والروم، قد كان معاوية صالحهم وعاهدهم على خرج يؤدونه إلى المسلمين، وهم مع هذا يؤدّون إلى الروم خرجا أيضا. فهم ذمّة للفريقين كليهما، فلم يزالوا على ذلك، حتى إذا كان زمان عبد الملك بن صالح على الثغور، فكان منهم حدث أيضا، أو من بعضهم، رأى عبد الملك أنّ ذلك نكث لعهدهم، والفقهاء يومئذ متوافرون. فكتب إلى عدة منهم يشاورهم في محاربتهم، فكان ممّن كتب إليه: اللّيث بن سعد، ومالك بن انس، وسفيان بن عيينة، وموسى بن أعين، واسماعيل بن عيّاش، ويحيى بن حمزة، وأبو اسحاق الفزاري، ومخلد بن حسين، وكلهم اجابه على كتابه.

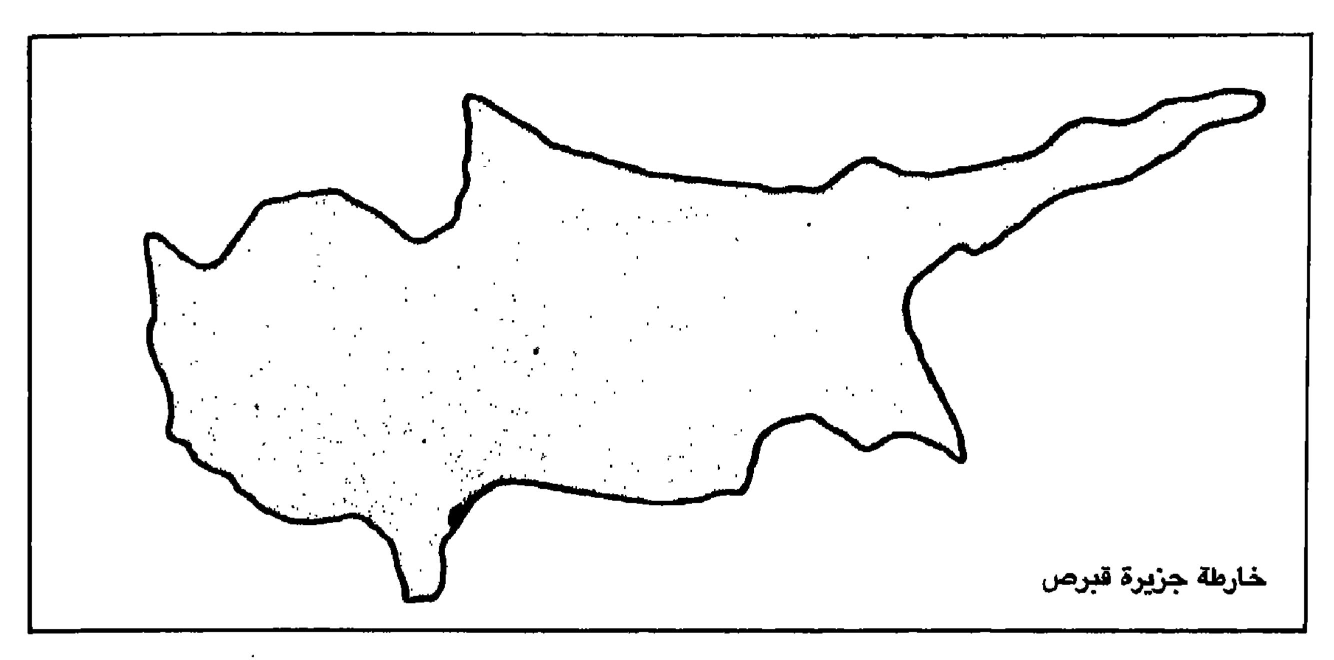
قال أبو عبيد: فوجدت رسائلهم إليه قد استخرجت من ديوانه، فاختصرت منها المعنى الذي أرادوه وقصدوا له. وقد اختلفوا عليه في الرأي إلا أنّ من أمره بالكف عنهم والوفاء لهم، وإن غدر بعضهم، أكثر ممنّ اشار بالمحاربة».

وقد اعتمد معظم الفقهاء في ردودهم على ما ذهب إليه الامام الأوزاعي وأفتى به قبلهم.

«... وقد كان الأوزاعي يحدّث أن المسلمين فتحوا قبرس فتُركوا على حالهم، وصالحوهم على اربعة عشر الف دينار، سبعة آلاف للمسلمين، وسبعة آلاف للروم، على أن لا يكتموا المسلمين أمر عدوّهم، ولا يكتموا الروم أمر المسلمين. فكان الأوزاعي يقول: ما وفى لنا اهل قبرس قطّ. وإنا نرى أن هؤلاء القوم أهل عهد، وإن صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم، وإنه لا يستقيم نقصه إلا بأمر يُعرف به غدرهم ونكث عهدهم.

قال أبو عبيد: فأرى أكثرهم قد وكدّ العهد ونهى عن محاربتهم حتى يُجمعوا جميعا على النكث، وهذا أولى القولين بأن يتّبع، وأن لا يؤخذ العوامّ بجناية الخاصة، إلا أن يكون ذلك ممالأة منهم ورضى بما صنعت الخاصة، فهناك تحلّ دماؤهم»[٦٢].

ونعود إلى أحداث سنة ١٧٤هـ/ ٧٩١م فنجد فيها: تحرك المتمردين في جبل لبنان، وغزو البيزنطيين إلى ساحل الشام، ونقض أهل قبرص للصلح، وكل هذه الأحداث الخطيرة وقعت في سنة واحدة، وفي وقت واحد ربما. ولنا أن نلتفت

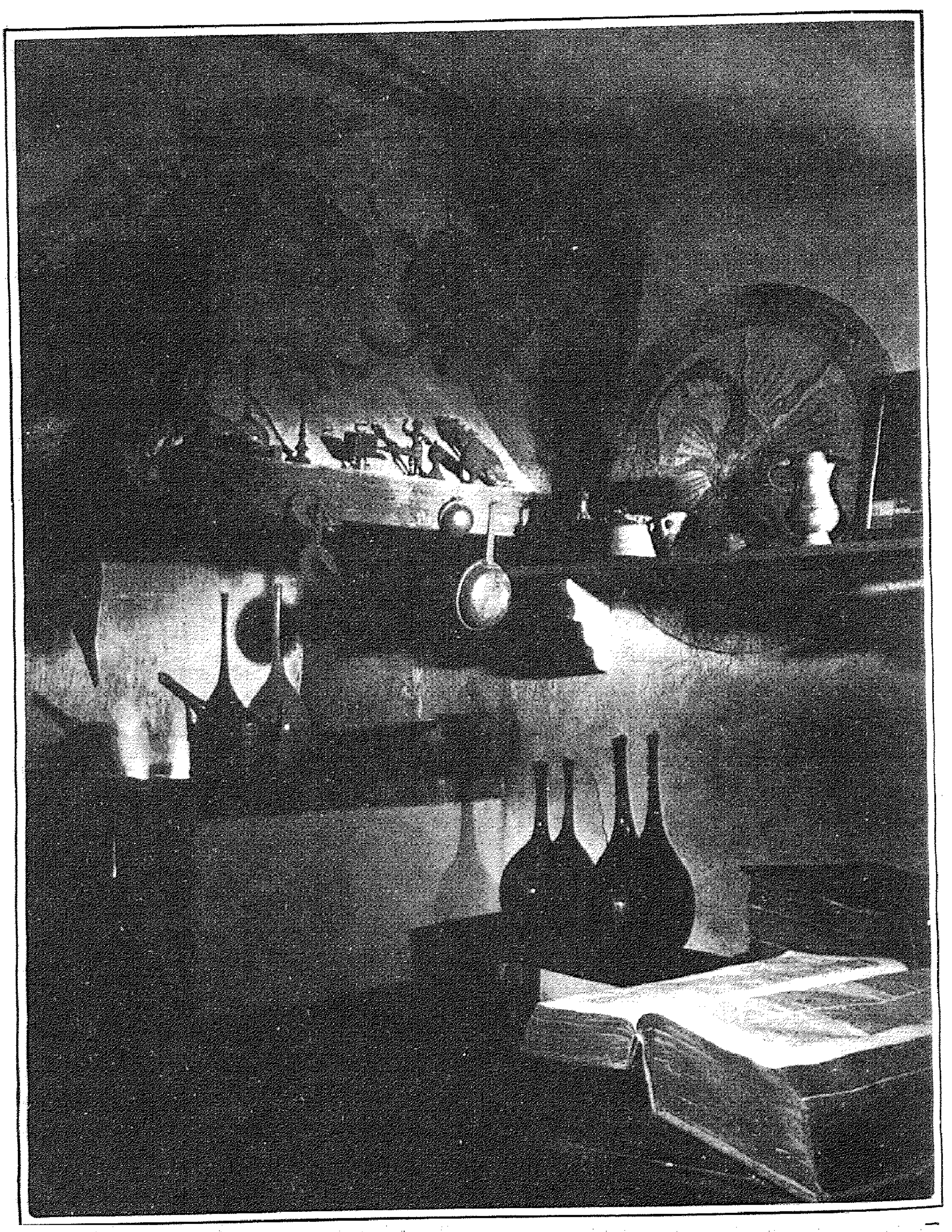

خارطة جزيرة قبرص

دائما إلى أوضاع الدولة العربية في الداخل وما تشهده من فتن واضطرابات، لنتفهم سر التوقيت في التحرّك المناوىء للمسلمين على امتداد الساحل الشامي أو بعضه. ففي هذه السنة شهدت بلاد الشام بما فيها البقاع والمناطق الشرقية من «لبنان» قيام فتنة واسعة بين القيسية واليمنية، وكان مثير تلك الفتنة «عامر بن عمارة بن خُريم الناعم» المعروف بأبي الهيذام المرّي[٦٣]، وهو يتزعم القيسية، واستمر إوار الفتنة مستعرا أكثر من سنتين (١٧٤ ــ ١٧٧هـ)، اشترك فيها أهل البقاع[٦٤] والجولان والأردن من اليمنية وحلفائهم، وكان فيهم جماعة من أهل ساحل الشام أيضا، حيث يذكر «ابن عساكر» أسماء بعض المشاركين ومن بينهم «أحمد» وقيل «محمد» وأخوه «زيد» ابنا «معيوف الهمداني»[٦٥]، ونرجّح أن «أحمدا» و «محمدا» تصحيف لاسم «حُمَيْد» الذي كان يتولى الغزو في بحر الشام، ومعهم أيضا «ابن العمر السكسكي» كما جاء عند «ابن عساكر»[٦٦] والذي نرجح أنه هو «الغمر بالغين المعجمة) بن العباس الخثعمي السكسكي» الذي كان أميرا لبحر الشام أيضا وغزا في سنتي ١٦٠ و ١٦١هـ كما مرّ. والأرجح أن قرية «السكسكية» القريبة من مدينة صور منسوبة إليه وإلى أبناء قبيلته «السكاسك» العربية.

وكان اليمنيون في نواحي الشام أكثر جمعا من القيسية، فامتلأ بهم البقاع والجولان، وجاء «أبو الهيذام» بالمضرية القيسية من نواحي العراق والتقى الطرفان في قتال بالقرب من دمشق، فدمرت أثناء ذلك كثير من القرى والبلدات حول دمشق وحمص وغيرها[٦٧]..

وفي سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م قصد البيزنطيون ساحل بيروت، فجاؤوا بسفنهم إلى «عين التينة» على ساحل البحر قرب ضريح الامام الأوزاعي المتوفي سنة ١٥٧هـ في قرية حنتوس، وعادوا وقد أسروا من هناك الأمير «عمر بن أرسلان اللخمي» مع ثلاثة من أصحابه[٦٨]، وظلوا في الأسر حتى فودي بهم في سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م ولما أشاد القاسم بن هارون الرشيد لأبيه بمواقف الأمراء اللخميين وشجاعتهم وقهرهم للمتمرّدين أرسل إلى الأمير «ثابت بن نصر الخزاعي» أمير الثغور الشامية، وإلى باقي عمال الشام أن ينادوا في البلاد بالرحيل إلى لبنان وسكناه لتشتد قوة الأمراء اللخميين على المتمردين[٦٩].

وكان على المسلمين أن يلتفتوا دائما نحو قبرص التي ما انفكت تقلق أمن الساحل الشامي بتواطؤ أهلها مع البيزنطيين. وكان تحرك السفن البيزنطية نحو الساحل يتوافق مع كل تحرك يقوم به المتمردون في لبنان، مما يوحي بتنسيق حربي ينفذ بدقة هنا وهناك. وكان المسلمون يواجهون ذلك بالاكثار من الغزوات البحرية، وبتطويق المتمردين في الجبال عن طريق وضع



□ العرب أول من استخدموا التقطير والتكليس، ووصفوا بدقة أساليب التبخير والترشيح والتبلور. وإليهم يعود الفضل في استحضار الكثير من المركبات الكيماوية وغيرها مما لا يزال يستخدم في عصرنا الحاضر.

أما تجارب العلماء العرب أمثال الرازي وابن حيان فهي التي وضعت الحد الفاصل بين السحر وبين الكيمياء، وافتتحت طريق العلم الاختباري الحديث في معامل مجهزة بما يحتاج إليه الباحث من مرشحات وقوارير دقيقة وأنابيق مفرغة من الهواء.

حزام من القبائل العربية حولهم لمنعهم من الاتصال بالأساطيل البيزنطية.

وبالرغم من أن فقهاء المسلمين أشاروا على «عبد الملك بن صالح بن علي» حول سنة ١٧٤هـ بعدم نقض صلح أهل قبرص ـ مع تكرار نقضهم هم وممالأتهم للبيزنطيين على المسلمين[٧٠] ـ فإنهم عادوا وأحدثوا ما يوجب قتالهم، ولذلك خرج إليهم «حُميد بن معيوف الهمداني» في سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م ـ وكان يلي سواحل بحر الشام إلى مصر ـ ونزل الجزيرة بأسطول ضخم «فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفا، فأقدمهم الرافقة[٧١] فتولّى بيعهم (أبو البختري القاضي) الذي تولى على صيدا[٧٢]، وكان بين الأسرى أسقف قبرص، فبلغ ثمنه لوحده ألفي دينار[٧٣].

وواصل «حُميد بن معيوف» من قبرص غزوه في البحر، فنزل على «إقريطش» (كريت) وفتح بعضها[٧٤]. ومن ناحية أخرى، استولى جيش «الرشيد» على «هرقلة»[٧٥] في أرض الروم، مما اجبر الامبراطور «نقفور» (١٨٧ ـ ١٩٨هـ/٨٠٢ ـ ٨١١م)، في آخر الأمر، أن يعقد صلحا مهيناً للامبراطورية، حسب تعبير «وليم لانجر»[٧٦].

وعاد «هارون الرشيد» ووفى بصلحه مع أهل قبرص بعد أن استقاموا وأمر برّد من أسر منهم فردّوا[٧٧].

* * *

ويشهد لبنان مع بلاد الشام ثورتين عارمتين ضد الخلافة العباسية، الأولى في سنة ١٩٥هـ عرفت بثورة أبي العميطر[٧٨]، والثانية في سنة ٢٢٦هـ وعرفت بثورة «المبرقع»[٧٩]. ويلاحظ اننا لا نقف على شيء من الغزوات البحرية في ذلك الوقت، وتتلاشى أخبار ساحل الشام بشكل ملفت في جميع المصادر التاريخية وغيرها، حتى سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م. حيث جرت بين الأمير «هاني بن مسعود بن أرسلان» والمردة حروب كثيرة انتصر فيها عليهم، ولذلك لقب بالغضنفر أبي الأهوال، وبلغ خبره الأمير «خاقان التركي»، فكتب إليه كتابا يشكره فيه على ما فعل، ويحثّه على مواصلة التيقظ والتصدي للمردة، ويخبره انه بلغ حسن سلوكه إلى مسامع الخليفة. ثم توفي الأمير «هاني» في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وتولىّ إمارة بلاد الغرب المشرفة على بيروت «ابراهيم بن اسحاق بن أرسلان». وحين قدم الخليفة «المتوكّل على الله» إلى دمشق سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م سار إليه الأمير «ابراهيم» فعقد له المتوكل لواء وكتب له توقيعا بولاية الغرب[٨٠].

ثم نطالع، أن زلزالا قويا ضرب سواحل الشام ومدنه في سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م فيقول اليعقوبي عنه:

«أصاب الشام كلّه زلازل، حتى ذهبت اللاذقية وجبلة، ومات عالم من الناس، حتى خرج الناس إلى الصحراء، وأسلموا منازلهم وما فيها، واتصل ذلك شهورا»[٨١].

وقيل: «زلزلت: بالس، والرَّقة، وحرّان، ورأس عين، وحمص، ودمشق، والرّها، وطرسوس، والمصِّيصة، وأذنة، وسواحل الشام، ورجفت اللاذقية فما بقي منها منزل، ولا أفلت من أهلها إلا اليسير. وذهبت جبلة بأهلها»[٨٢].

وقد اهتم المتوكل العباسي باعادة بناء ما تهدم وتحصين ما تشعّث من الحصون، فأمر في آخر سني خلافته ٢٤٧هـ/٨٦١م بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة[٨٣].

ويبدو أن ميناء صور لم يفقد أهميته ودوره كقاعدة مهمة على ساحل بحر الشام، فقد وصلنا عن أحداث سنة ٢٥١هـ أن «عيسى بن الشيخ» جد الأسرة العربية التي حكمت صيدا مدة من الوقت[٨٤]، طلب من الخليفة «المستعين بالله» توجيه ما يحتاج إليه من السلاح ليكون عدّة له في بلده بفلسطين حتى يقوى به جنوده على الغزو، وأن يكتب إلى صاحب صور في توجيه اربع مراكب إليه بجميع آلتها الحربية لتكون قبله إضافة إلى ما عنده منها[٨٥].

كذلك، احتفظت طرابلس بأهمية موقعها ودورها الرئيسي على ساحل الشام، واعتزّت مع أختها صور بأنهما أخرجتا أعظم بحّارين مسلمين في ذلك العصر، أدخلا الرعب في قلوب البيزنطيين فترة طويلة، هما: «ليو الطرابلسي» و «دميان الصوري»، ويستحقان دراسة مستقلة، في أعداد مقبلة، إن شاء الله. ●

الهوامش

(٤٠) تاريخ دمشق ٣٤/٢٤٠، التهذيب ٧/٢٢٣.
(٤١) فتوح البلدان ق ١/١٨٣.
(٤٢) هو من مواليد قرية حجور التي تدعى عين ثرماء قرب دمشق. وكانت له فيها قصور معجبة، احرقها المضرية في فتنة ابي الهيذام (١٧٤ ــ ١٧٧هـ) راجع تهذيب تاريخ دمشق ٧/١٩٤ طبعة «دار المسيرة».
(٤٣) الطبري ٨/٤٣، ابن الأثير ٥/٦٣٠.
(٤٤) الطبري ٨/٤٦.
(٤٥) ويقال له: «السكسكي».
(٤٦) الطبري ٨/١٢٩ و ١٤٠، تاريخ دمشق ٣٤/٣٤٠، البداية والنهاية لابن كثير ٦/٤٦ و ٥٥.
(٤٧) ابن كثير ١٠/١٤٤.
(٤٨) حلية الأولياء ٨/٩، وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، وفيه أن وفاته كانت سنة ١٤٠هـ نقلا عن أبي سلمان الداراني (١/٣٢).
(٤٩) اختلف في مكان وفاته ومدفنه، فقيل إنه دفن في بعض الجزائر ببلاد الروم، ويحدد الامام البخاري حصن «سوفنن» من بلاد الروم، ويؤيده في ذلك «ابن حبان» و «ابن عساكر»، وانفرد «أبو نعيم» بالقول بدفنه في صور، وجاء في حاشية احدى نسخ «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي أن وفاته كانت في الساحل قريبا من طرابلس، وذهب بعضهم إلى انه توفي بدمشق ودفن في مرج غوطتها. (انظر عنه ترجمة موسعة في موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي، ق ١، ج ١/٢٠٠، رقم الترجمة (٧)، وانظر ايضا البحث الذي قدمناه للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية المنعقد بدمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م بعنوان «الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي إلى الحروب الصليبية» وقد نشرته مجلة «دراسات تاريخية» بدمشق، العدد الخامس ١٤٠١هـ/١٩٨١م، صص ٧٧ ــ ٩٨).
(٥٠) حلية الأولياء ٨/٥.
(٥١) حلية الأولياء ٨/٦.
(٥٢) حلية الأولياء ٨/٧.
(٥٣) حلية الأولياء ٨/٧.
(٥٤) حلية الأولياء ٧/٢٨٨.
(٥٥) ورد في «الحلية»: «احمد بن معيوف» والتصحيح عن (فتوح البلدان ١/٢٧٩). وابنه هو «محمد بن جميد بن معيوف» وقد سمع: محمد بن المعافى الصيداوي المحدث. (تاريخ دمشق ٣٧/٤٢٣) ومن احفاده: عبد الواحد بن محمد بن عمرو بن حميد.. قاضي عين ثرماء، روى عن: خيثمة بن سليمان الاطرابلسي محدث الشام (معجم البلدان ٤/١٧٧).
(٥٦) تاريخ دمشق ١٩/٨٦١.
(٥٧) أخبار الأعيان في جبل لبنان للشدياق ٢/٤٩٦.
(٥٨) سن الفيل (Shend Filla) = العاج. بلدة تبعد عن بيروت ٥ كيلومترات، قيل إن أحد القادة الصليبيين ويدعى «سان تيوفيل» (Saint Theophille) كان فيها حوالي سنة ١٢٠٢م فعرفت به. وعندما استرجعها المسلمون حرفوا الاسم إلى «سن الفيل». (انظر: إعرف لبنان، عفيف بطرس مرهج، بيروت ١٩٦٦، ج ١، دون أرقام للصفحات).
(٥٩) أخبار الأعيان ٢/٤٩٦.
(٦٠) الروم وصلاتهم بالعرب، د. اسد رستم، ج ١/٢٩٧.
(٦١) فتوح البلدان ق ١/١٨٣ ــ ١٨٦.
(٦٢) راجع كتاب الأموال، ص ٢٤٨ ــ ٢٥٤، فتوح البلدان ق ١/١٨٣ ــ ١٨٦.
(٦٣) توفي سنة ١٨٢هـ.
(٦٤) تهذيب تاريخ دمشق ٧/١٨٢ و ١٨٤.
(٦٥) تهذيب تاريخ دمشق ٧/١٨٠ و ١٨٤.
(٦٦) تهذيب تاريخ دمشق ٧/١٨٤.
(٦٧) راجع تفاصيل هذه الفتنة وأسبابها في: تاريخ اليعقوبي ٢/٤١٠ وفيه ان أبا الهيذام قتل سنة ١٧٦هـ وهو مخالف للروايات الأخرى، الطبري ٨/٢٣٩ حوادث سنة ١٧٤هـ و ٢٥١، ٢٥٢ حوادث سنة ١٧٦هـ و ٢٦٢، ٢٦٣ حوادث سنة ١٨٠هـ، ابن الأثير ٦/١٢٧ ــ ١٣٢ حوادث سنة ١٧٦هـ، تهذيب تاريخ دمشق ٧/١٧٩ ــ ١٩٦، البداية والنهاية ١٠/١٦٨ حوادث سنة ١٦٨هـ.
(٦٨) اخبار الأعيان ٢/٤٩٦، محاسن المساعي في مناقب الامام الأوزاعي، نشرها شكيب ارسلان، ص ٢٠ (الحاشية).
(٦٩) أخبار الأعيان ٢/٤٩٧.
(٧٠) الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر، ص ٣٠٦.
(٧١) الرافقة: بلد متصل البناء بالرقة على ضفة الفرات.
(٧٢) هو قاضي القضاة للرشيد، اسمه «وهب بن وهب القرشي»، وولي المدينة المنورة، وكان موجودا حتى ايام محمد الأمين ابن هارون الرشيد سنة ١٩٢هـ ويعرفه السمعاني في (الانساب ٨/١٩٩) بصاحب صيدا (أي قاضيها) ومن احفاده: الحسن بن احمد بن ابي البختري الصيداوي خطيب صيداء كان بها سنة ٣٠٥هـ (تاريخ دمشق ٩/٣٧١، التهذيب ٤/١٥٢) وقد ذكر «ابن حبان» إن ابا البختري قاضي القضاة انتقل إلى صيدا في آخر عمره. (كتاب المجروحين ٣/٧٤ و ٨٠، الانساب (الطبعة المصورة) ٤٣٩ أ) وكان الرشيد سأله: أين اتخذت لولدك من بعدك؟ قال: بالشام.

قال الرشيد: هذا مأواه الفتن وفيه العصبية. قال ابو البختري: إنه بلد أرضه طعام وسماؤه أدام. (تاريخ دمشق ٤٤/٢٨٤).

(٧٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٣١، الطبري ٨/٣٢٠، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢/١٣٣، الحدود الاسلامية البيزنطية، فتحي عثمان ٢/١٦٢.

(٧٤) فتوح البلدان ق ١/٢٧٩، مروج الذهب ١/٩٨.

(٧٥) هرقلة: مدينة بآسية الصغرى، كانت قاعدة مملكة الروم لعهد الفتح الاسلامي.

(٧٦) موسوعة تاريخ العالم، وليم لانجر ٢/٤٨٦.

(٧٧) فتوح البلدان ق ١/١٨٣.

(٧٨) أنظر عنها: الطبري ٨/٤١٥، ابن الأثير ٦/٢٤٩، ابن عساكر ٣٥/١١٠ و ٣٨/١٠٥ و ٣٥٥ و ٤٥/٥١٨ و ٥٣١، التهذيب ٢/١١٣، ابن كثير ١٠/٢٢٧، مرآة الجنان لليافعي ١/٤٤٨، النجوم الزاهرة ٢/١٥٩، خطط الشام ١/١٥٤، ١٥٥.

(٧٩) أنظر عنها: الطبري ٩/١١٦، المعرفة والتاريخ ١/٢٠٧، ابن الأثير ٦/٥٢٢، ابن كثير ١٠/٢٩٥، خطط الشام ١/١٦٤، ١٦٥، تاريخ بلاد الشام، د. عبد العزيز الدوري ٣٢.

(٨٠) أخبار الأعيان ٢/٤٩٨.

(٨١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩١.

(٨٢) الطبري ٩/٢١٣.

(٨٣) فتوح البلدان ق ١/١٤٠ و ١٩٣.

(٨٤) راجع دراستنا عن هذه الأسرة في العدد ٢٣ (أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٠) من المجلة، ص ٢٣ ـ ٣٠.

(٨٥) الطبري ٩/٣٠٨، ابن الأثير ٧/١٦٣.



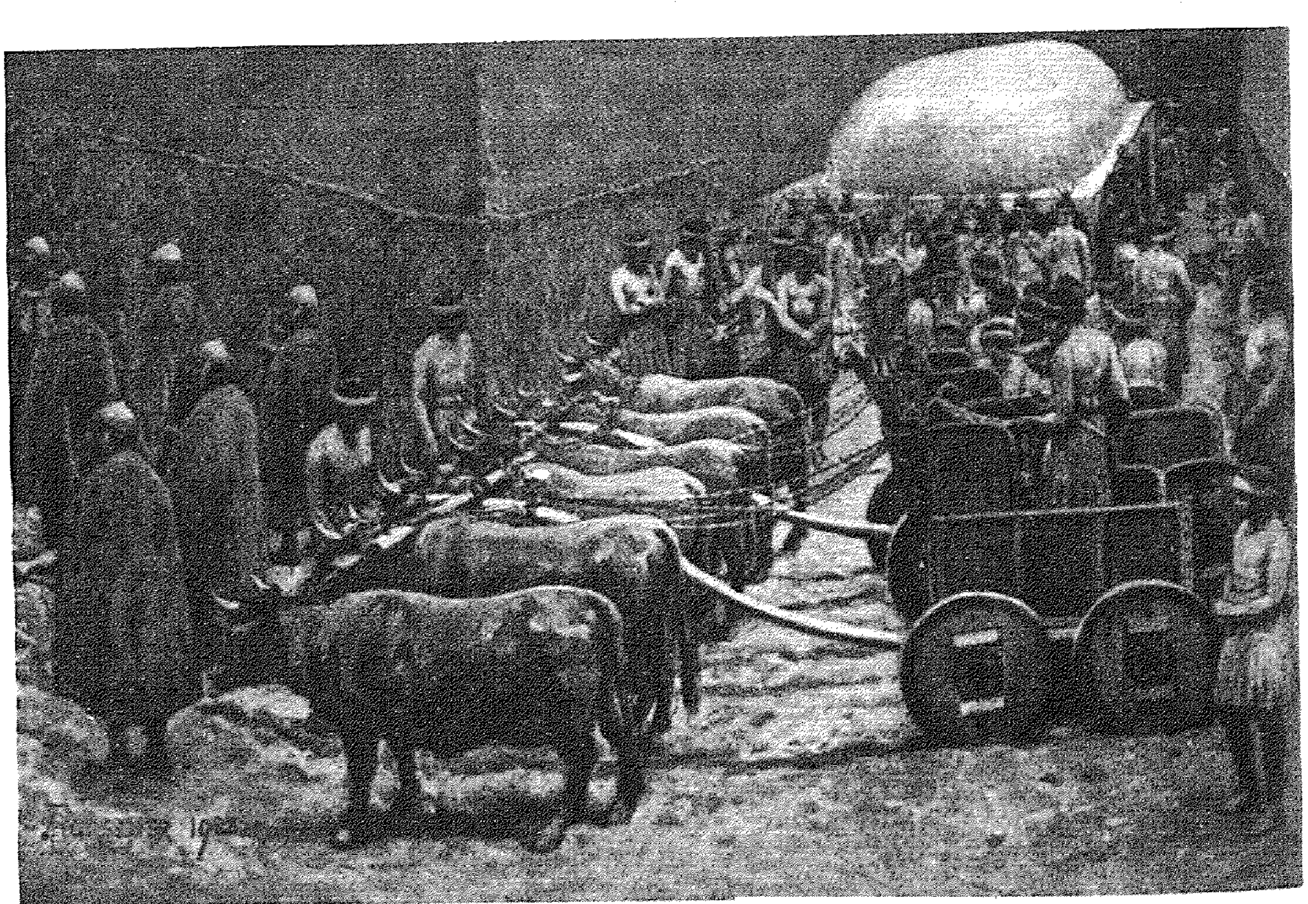
□ استانبول، نظرة من سراي بورنوس على بحر المرمر، القرن التاسع عشر.

العَجَل أو الدّولاب
بَين التّاريخ وَالبيُولوُجيا

د. ابراهيم فريد الدّر

تطوّر تاريخي لكن التطوّر البيُولوجي كان ضِدّه !

ليس من السهل ترتيب الاختراعات العظيمة بحسب أهميتها، لكن اختراع العَجَل (الدولاب) هو على رأسها. لذلك سعى الخبراء طويلا ليعرفوا متى ومن صمم هذا الشيء العجيب! ولقد اشتد الجدل إلى أن جلت الأبحاث هذا الغموض، من عهد قريب. والعجل يثير كثيرا من الجدل سأحاول معالجة قليلٍ منه.



□ القبور الملكية ـــ مؤكب قرباني بعجلات بدائية.

□ د. إبراهيم فريد الدر: استاذ الكيمياء الحياتية في كلية الطب في الجامعة الاميركية ـــ بيروت.

□ صورة من اور لمقدمة لوا من الجند، مركبة حربية بعجلات بدائية، من ٥٠٠٠ سنة. «المتحف البريطاني».


ولع الانسان بالجدل، وغريزة الفضولية وغروره تدفعه إلى أسئلة المفاضلة مثل «من أول من اخترع كذا، وأي الاكتشافات أعظمها..».

دخول النار حياة الانسان حدث تاريخي جليل، لكن استعمال العَجَل أو الدولاب سبيلا إلى النقل والترحال يبقى أعظم تطور في تاريخ التقنية. لذلك دأب العلماء في معالجة أسئلة كثيرة حول هذه الآلة البسيطة في تركيبها، والعظيمة في عملها وأثرها.

شاهد الانسان أشكالا دائرية كثيرة: الشمس والقمر يزينان السماء، الفواكه على الشجر، والحجر «يكرج» على الأرض، فلماذا تأخر الانسان في استغلال الشكل الدائري، ولم يخترع العجل للتنقل إلا من ٦٠٠٠ سنة فقط!

لماذا يعود الفضل إلى أهل العراق باختراع العجل، بينما حضارات ثانية أهملت الشكل الدائري، وجعلت منه ألعابا للصغار فقط.

ومخلوقات البحر والأرض والسماء! لماذا لم يظهر منها ما يسير على عجلات، ولماذا لم يتطور منها ما يندفع بقوة الدوران المروحي. كانت الطبيعة سباقة إلى كل الاختراعات المفيدة لتنقل الانسان، فالمخلوقات الات تستعمل مبدأ الاحتراق المضبوط في حياتها وتنقلها، وتستعمل الطيران، والغوص والدفع الصاروخي، والمظلات. كلها ظهرت قبل الات الانسان بأجيال طويلة.

لكن الشيء الوحيد الذي لم تزود الطبيعة به مخلوقاتها هو العجل، أعظم سبيل إلى التنقل البشري. لماذا لم يظهر فأر على براثنه عجلات! ولماذا لم يظهر سمك بمحركات تدور. أما الانسان فقد استغل كليهما أرضا وبحرا وجوا.

ولماذا استعملت العرب حجر الرحى أو الطاحون لطحن الحبوب، وللري، ولم تستعمل العربة بدولاب، مفضلة الجمل للترحال وحمل الأثقال!

ليست أسئلة تافهة، ولا جوابها سهل فالعلماء انهمكوا، ولا يزالون، عاكفين على معالجة هذه الأمور.

من اخترع العَجَلْ؟

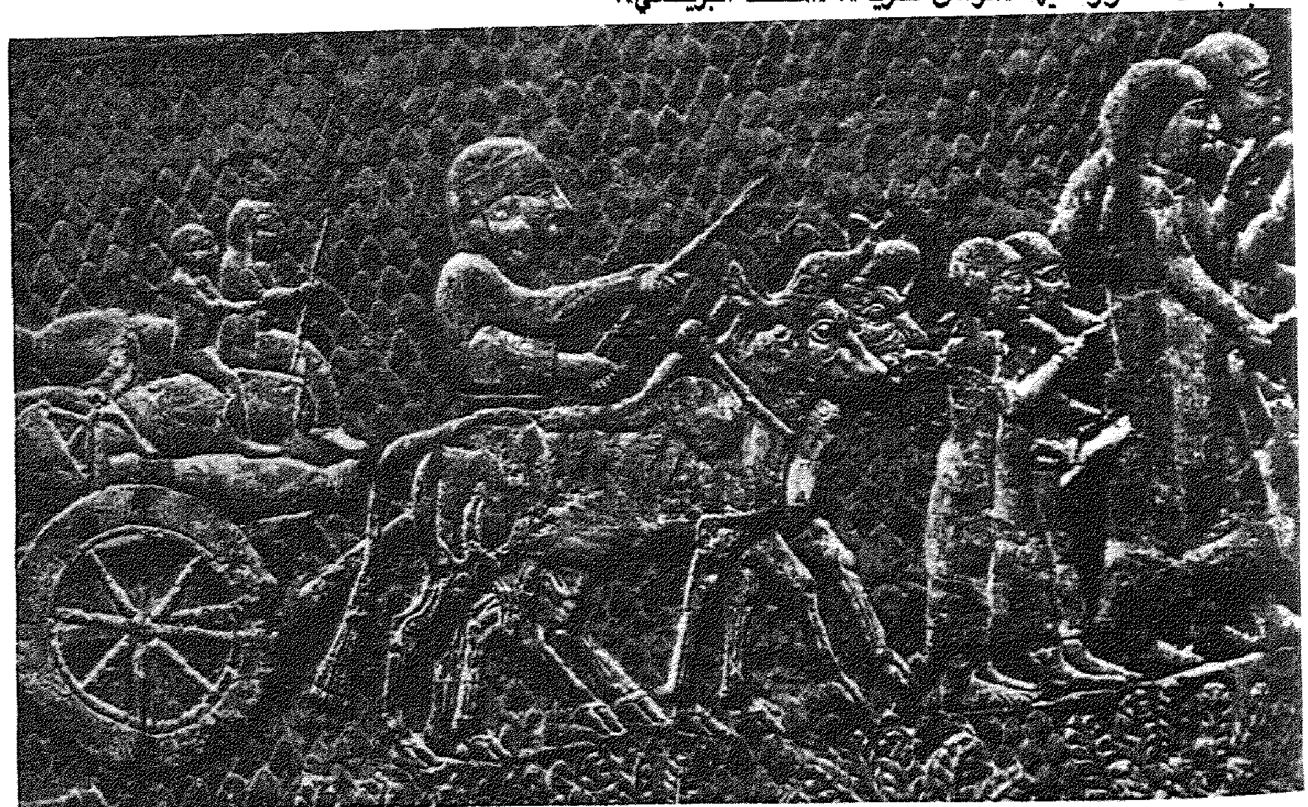
لم يكن السؤال محسوما حتى ظهر هذا البحث في أوائل ١٩٨٣ بعد جهد دام طويلا شاركت فيه مؤسسات وجيهة مثل متاحف جامعة بنسلفانيا وبريطانيا وفرنسا. ومزيد من البحث ينتظر نهاية الحرب العراقية الايرانية.

استعملت الحضارة المكسيكية القديمة (مايا) حوالي ٩٠٠ م البكر المحزز كلعبة دراجة للأطفال، لكن الدولاب لم يدخل عالم النقل والتنقل إلا في بلادنا من قبل ٦٠٠٠ سنة! والفراعنة بعدئذ طوقت الحجارة الضخمة أيضا بخشب مستدير لحدلها أو كرجها. والطرق حُدِلَت بجذع الشجر.

تدل البحوث التاريخية والحفريات الأثرية أن العجل ظهر لأول مرة في العراق (بلاد ما بين النهرين) من قبل ستة الاف سنة. ولقد ايدت هذا القول مجلة علمية رفيعة تصدر في فرنسا إسمها مجلة «البحث العلمي». يؤكد التحليل الذي ظهر في عدد اذار ١٩٨٣ أن الحضارات في القارتين الأميركيتين لم تعرف الدولاب إلى أن احضره كولومبوس معه! صحيح أن أطفال الحضارة القديمة في المكسيك استعملت العابا تدرج، إلا أن العجل لم يدخل بنية العربات. والثابت أيضا أن استعمال العجل كان حدثا فريدا إذ لم يعرف له أثر في حضارات مجاورة، أو سابقة، لمدنية العراق.

اقترحت صاحبة البحث، ماري ليتُّوار، نموذجا لأول عربة قوامها لوح من الخشب يدرج على بكر لنقل الأثقال. ولم يكن البكر مثبت في الخشب إذْ جاءت فكرة المحور أو القطب بعدئذ. لذلك كان البكر ينقل من اخر اللوح إلى مقدمته كلما درجت «العربة»! بعد ذلك رُبطت مدارج (كجذع الشجرة المستدير) إلى مؤخرة الألواح الخشبية كما كان يستعملها الهنود في السهول لجر الأثقال وغيرها. أما العربة الرومانية بعجلين فكانت الحدث الجديد في وسائل النقل للبشر والبضائع. إذن من البكر والمدارج ظهر العجل ومحوره الذي يصل ما بين العجلين معا.

□ صورة من نينوى تدل على اسرى حرب في حصار «لقش». تعود للقرن السابع قبل الميلاد. انتبه إلى العربة بعجلات منطوره فيها «أقواس قطرية». «المتحف البريطاني».





حفرٌ يدل على عَجَل «ما بين النهرين» مصنوع من قطع خشب كثيرة، وهو كاللوح لا فراغ فيه

تعتقد الخبيرة أن سكان الشرق الأوسط لم تستعمل البكر أو المدرج كما استعمله الهنود، لأن منطقة رملية كبلادنا لا تسمح باستعمال مدارج غير ثابتة. لذلك لم يستعمل الهنود عجلات أو عربات بدواليب، بينما ظهرت تلك العجلات في العراق أول ما ظهرت. وفي أور عاصمة السومريين اكتشفت عربات بأربعة دواليب في «قبر الملوك» يرجع تاريخها إلى ما قبل ٤٥٠٠ سنة.

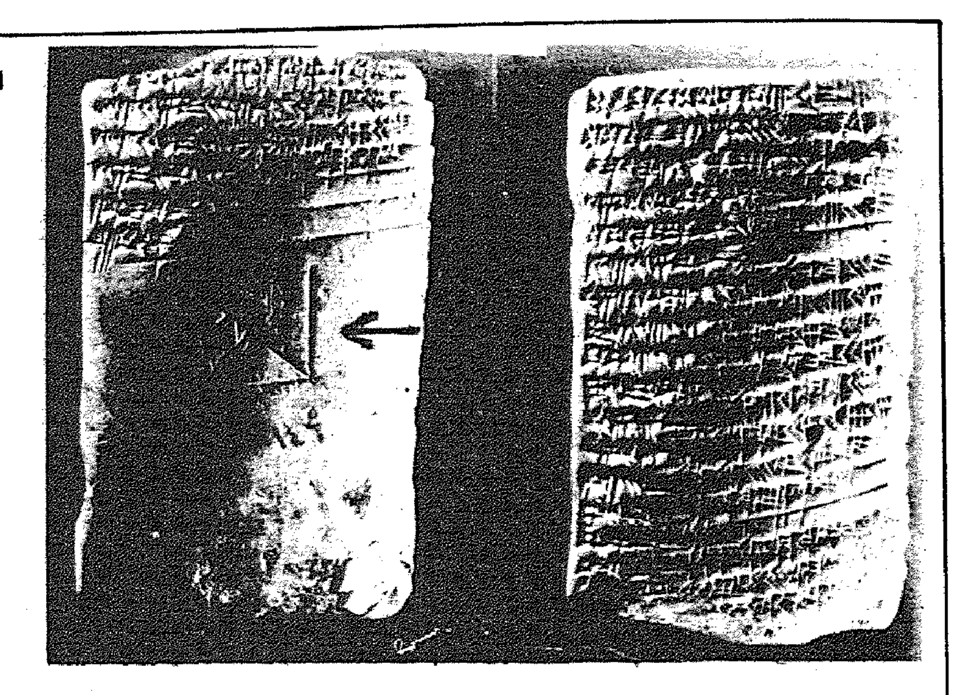
ولقد وجد علماء الآثار في «قبر الملك» بالاضافة إلى اثار «صاحب القبر» أدوات وما يدل على منزلته العظيمة. ومن بين الأشياء كانت دواليب للعربات. الدولاب طبق أو طوق خشبي مكون من قطع خشبية أدخلت في بعضها كالاسفين.

ومما يدل على تقدم التقنية العراقية انذاك وجود صور على لوحات اللِّبن لأكواب وأوعية اسطوانية وغيرها من أدوات مستديرة.

راية الحرب والسلم، المكتشفة في القبر، كانت مصنوعة من قوقعة السلحفاة، وعليها نقش يدل على مراتب الجنود، وعليها أيضا عربتان بأربعة عجال. يقف على مؤخرة العربة محارب يحمل الرمح والدرع. ويبدو أن هذه الراية كانت تحمل على عمود يطاف بها خلال الاحتفالات الوطنية. ويظن الخبراء أن هذه العربة كانت أشبه بمصفحات العصر الجديد! لكن المرجح أن بنية العربة كانت غير ملائمة للحرب نظرا لسهولة اختراقها، ولربما كانت سيارة الملوك في العصر البائد.

يقول لنا الخبراء أن الثيران كانت تجر العربات مما يرجح استعمالها خارج ميدان الحرب، فالثور غير مرغوب فيه في ساحات القتال! ولا ريب في أن الاستعراضات العسكرية ضمت تلك العربات، كما يفعل إنسان الصاروخ والدبابة! لا بد من التذكير بأن الأفراد الصغيرة لعائلةالحصان كالحمار المتوحش الآسيوي (الفرا) لم تُعرَف إلا حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، أما الحصان المعروف فلم يأت من سهول أميركا إلا بعد ذلك بكثير، فلا عجب إذا بقي الثور والحمار من دواب النقل والجر. والثور الخصي مثالي في وداعته وسهولة تعاونه ضمن فريق من مجموعة عاملة في الأشغال الشاقة! حتى بعد قدوم الحصان بثلاثة الاف سنة بقي تركيب النير غير ملائم لبنية الحصان، ولم يكن سهلا ضبط الحصان بالنير ذلك أن للنير حلقات

اللوحة رقم (١)



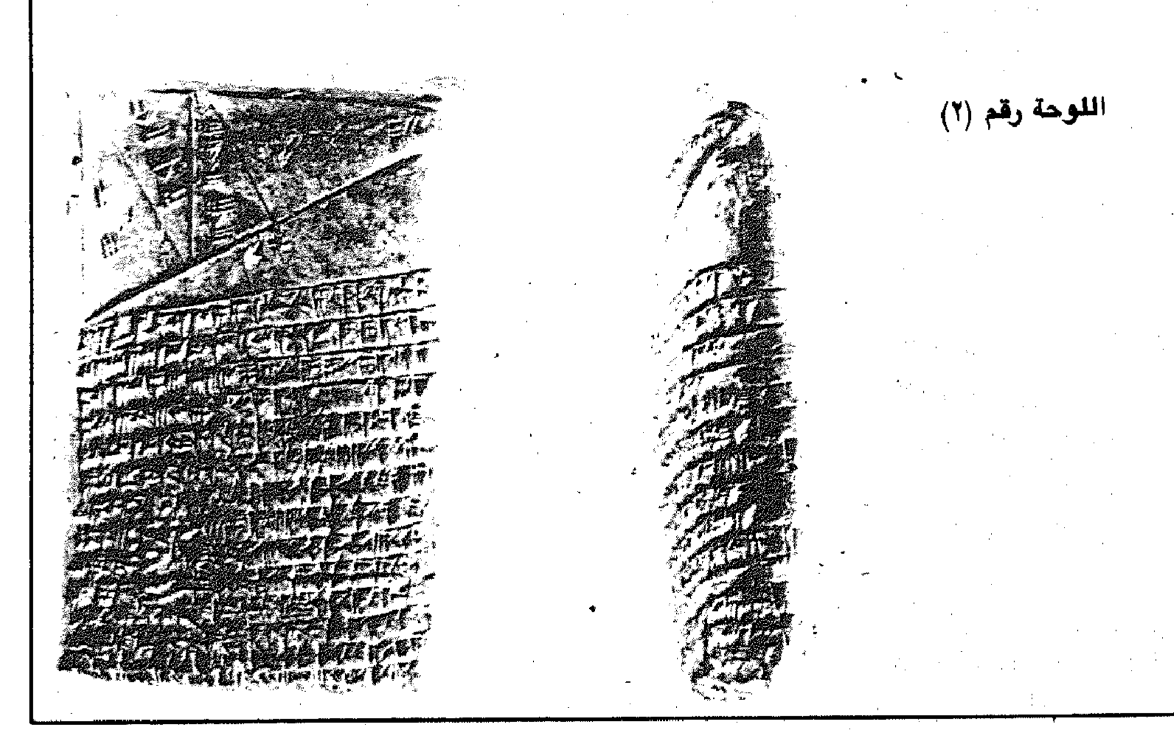
يوجد في متحف بغداد لوحتان مرقومتان (IM 55 357) و (IM 67 118) يرجع تاريخيهما إلى الفي سنة قبل الميلاد.

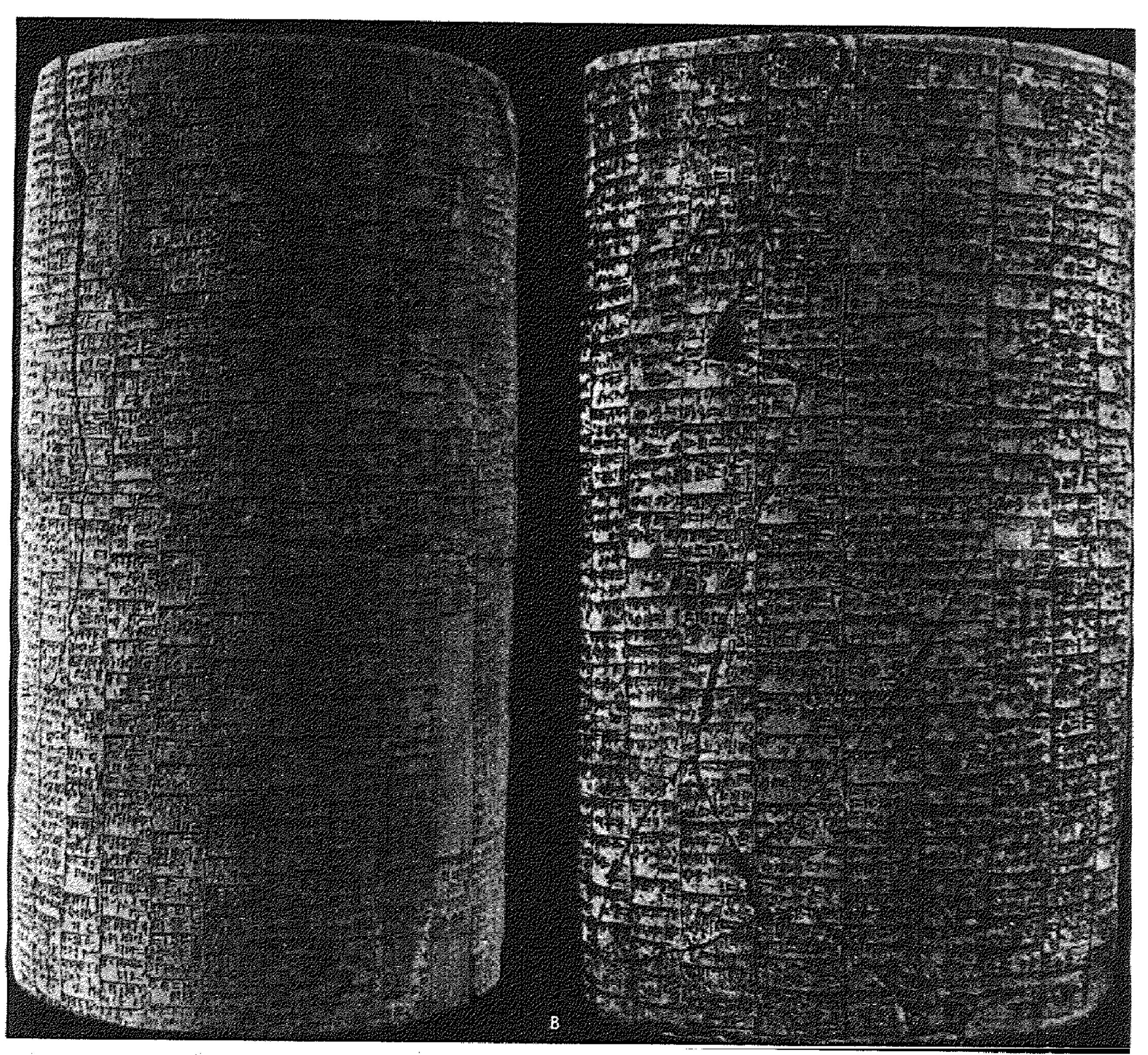
اللوحة الأولى: يسجل عالم الرياضيات انذاك طريقة معالجته لمسالة في الجبر تضم مجهولين، ولقد استعمل العلاقة ما بين مربع القطر ومربع الضلعين الاخرين لمثلث بزاوية قائمة، ولقد رسم الصورة إلى شمالك. هذه النظرية معروفة باسم فيثاغورس.

اما اللوحة الثانية: (لاحظ المثلث في اعلى الصورة إلى شمالك) فهي شرح واف لصفات المثلثات المتشابهة والمثلثات بزوايا عمودية. ولقد لجا إلى البرهان بإنزال عمود من الزاوية القائمة إلى القطر، كما هو مبين في الصورة. وهذه هي هندسة إقليدس. ولقد قام علماء العراق بهذه الحسابات قبل الاغريق بالف وخمسمئة سنة.

المهم ان العلوم عند حضارة ما بين النهرين تطورت إلى حد جعلت اهلها يسخرون العلم في خدمة التقنية فجاء الدولاب فخر الاختراعات.

اللوحة رقم (٢)





□ لقش ــ اسطوانتا جوديا Gudea تعودان للقرن الثاني والعشرين قبل الميلاد. «متحف اللوفر».

مستعملة لأنف الثور.

في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، نرى تغيرا في دابة النقل، إذ يظهر على أختام الأشوريين والبابليين من أيام حمورابي، المشرع الشهير، عربات تجرها دواب لها ذيل هو ذيل الحصان المعروف الآن. ويظهر في الصورة أيضا رجال قابضين على الرسن والمقود المعروفين في عربات الخيل الجديدة. ويظهر أيضا الدولاب ذو الأضلاع في قطر الدائرة.

الدواليب الأولى مصنوعة من ثلاث قطع خشبية، ذلك أن أشجار المنطقة كانت صغيرة، وجذعها الواحد لا يكفي لقطر العجل الذي كان يبلغ مترا واحدا، ولم يكن من المستطاع استعمال الجذع كله لأن جوفه لم يكن صلبا.

لذلك كان الجذع يُقطَع على طوله، ويؤخذ منه القسم الخارجي، وبالتالي لم تكن القطعة الواحدة لتصنع طوقا كاملا. أما الدواليب المصنوعة من جذع كامل فلم توجد إلا على الحدود بين العراق والمناطق الشمالية.

ما زالت بعض التفاصيل مجهولة ولا سيما تلك المتعلقة بربط العجلات إلى محاور ملصوقة إلى العربة. لكن الحرب العراقية الايرانية الحالية قطعت الأبحاث، ولا بد من انتظار نهايتها لمعرفة نهاية القصة التاريخية للدولاب العجيب!

الطبيعة والدولاب

تفسير إهمال الطبيعة للدولاب، وغيابه من أعضاء الجسم في مخلوق أو اخر يستند إلى

قواعد الفيزياء وقوانين الحركة والاحتكاك كما يستند إلى حسابات الطاقة المستهلكة، وما على المخلوق أن يدفعه من ثمن للسير على دولاب، وما مدى فعالية هذا النوع من التنقل بالنسبة إلى السير على رجلين. وهكذا نستطيع التقرير عما إذا كان التطور البيولوجي في صالح العجل أو ضده. هل من قيمة بقائية لمخلوق يسير على عجل أم احتمال بقائه أكبر من غير عجل!

أرفقت جدولا يدل على الوحدات الحرارية (كيلوكالوري) التي يستهلكها المخلوق أو الآلة لكل غرام من الوزن ولكل ميل من السير بحسب طبيعته:

الصرصور	٦٥
الفأر	٤٠
النحلة	١٤
الأرنب	٥
الحصان	٠,٦
الرجل الماشي	٠,٧٥
السلمون	٠,٤٠
رجل على دراجة غير نارية	٠,١٥
طيارة	٣
سيارة كاديلاك	٠,٨

يدل الجدول على أن الثمن (الطاقة المستهلكة) يقل بارتفاع وزن المتنقل، والثمن أقل للسابح منه للطائر، وللطائر أقل منه للسائر من المخلوقات الدنيا. والثمن أعلى للآلة المصنوعة منه للمخلوق الكبير. أقل سبل التنقل كلفة من حيث الطاقة هي الدراجة، أو أن تركب حوتا ! ويدل الجدول على أنه من الأرخص للفأر أن يسير على دواليب!

لكن الثمن ليس مقياسا سليما في كل الأحوال التي يمر فيها الحيوان، ولا يصح لأنواع البيئة التي تحيط بالمخلوقات.

الأوعية الدموية التي تغذي النسج، والممرات العصبية التي تتخلل الجسم وتنقل الأوامر إلى أعضائه لا تستطيع أن تمر في مفصل دوار وهذا مؤيد بوجود مخلوقات تنتقل بما يشبه المحور والدولاب أو الدفع المروحي، لكن ليس لها أعصاب وهي خالية من الدم. وهذا ما نجده في بعض الجراثيم. إلا أن هذه الحجة لا تثبت بقوة ذلك أن بعض أعضاء المخلوقات الدموية العصبية تخلو من كليهما، مثل الشَعْر والمخلب وقشر السمك. فلماذا لا يظهر أيضا دولاب من غير دَم أو عصب! وليس من الصعب ان يُجَهَّز الفأر بمثل دراجة التزلق، إنما يستطيع إظهارها وإخفائها كما يفعل القط في مخالبه، أو كالطائرة حين تحط وحين تحلق.

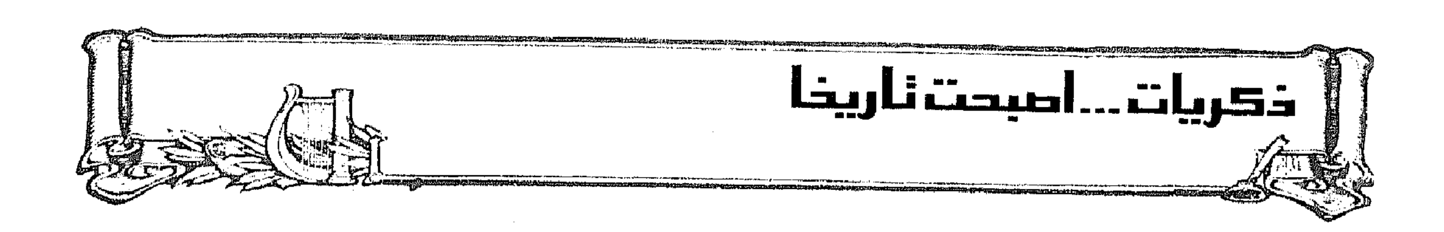
لذلك، اعتراض قائم على العصب والدم لا يثبت ولا بد من أسباب وجيهة خفية حالت دون تطور العجل في المخلوقات.

قام عالم يسأل «لماذا ينبغي للحيوان أن لا يتطور بدولاب» أي إن الجواب هو في التفتيش عما إذا كان بقاء الحيوان أصلح بلا عجل فيه، أو عما إذا كان العجل ذا قيمة بقائية لمن أو لما حظي به. يبدو أن الحسابات المفصلة تدل على أن التطور لم يكن في جانب الدولاب، وكان من الأفضل للحياة أن تستغني عن عضو دوّار!

الدولاب غير مفيد في أرض متقلبة بين وعر ورمل ووحل. ولو ظهر مخلوق بدولاب لكان سيقضى عليه. والدولاب خطر في بيئة ترتفع وتنخفض والدولاب لا ينفع صاحبه حين يسير على أرض مخضرة، مع ما يرافق السير من دوران وانثناء. ولو وُجِد فأر بدراجة تزلق لاضطر أن يخفيها ليستطيع التحرك. واسأل نفسك أتحب السير على قدميك أو على عجلات التزلق!

هذه الاعتبارات تفسر ابتعاد بعض الحضارات عن الدولاب واكتفت به كلعبة للصغار، ولجأت إلى اللاما كما في أميركا الجنوبية، أو الجمل كما في الصحراء العربية. ولقد نجح الجمل كحامل للأثقال من ١٥٠٠ سنة، وهو في تلك الأزمان أفضل من عربة تجرها الثيران على الرمال، وبقي الدولاب للطحن والري وصنع القدور، واستغنوا عن كلفة تمهيد الطرق الضرورية للدولاب!!

صحيح أن البيئة فرضت غياب الدولاب، لكن الحضارة التي ترفض أن تخضع للبيئة، فتغيرها لتلائم ما تريده الحضارة، هي التي ستتقدم وتنمو وتتطور؛ فتكسب فخر الاختراع وذكر الأجيال! ●



انطوني ايدن: لقد أظلم الجوّ في وَجْهنا عِندمَا أمّم ناصر قناة السّويس!

أنطوني إيدن(*)

□ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وهارولد ماكميلان.

تعرض هذه الوثيقة التاريخية المأخوذة من مذكرات ايدن، للموقف البريطاني الرسمي من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهي نظراً لصدورها عن المسؤول البريطاني الأول في شن الحرب الثلاثية على مصر عام ١٩٥٦، تشير بوضوح إلى مقدمات هذه الحرب وعواملها الكامنة في انفجار التناقض بين الاصرار البريطاني على استمرار نفوذ بريطانيا الاستعماري في مصر عبر نظام فاروق وسيطرتها على القنال ونهبها لثروات الشعب المصري ـــ من جهة وبين إصرار جمال عبد الناصر قائد الثورة، على تصفية ركائز الاستعمار وتحرير الشعب من قيود التبعية للاستعمار الانكليزي آنذاك. تلك هي صورة الوضع آنذاك تنقلها شهادة ينطق بها المستعمرون انفسهم.

لم يدرك كثيرون أخطر نقطة ضعيفة في هذا الاتفاق. لقد كانت مصر تعد نفسها أنها لا تزال في حالة حرب مع اسرائيل. ولم ينص في الاتفاق على شيء يحد من مطامع مصر في المستقبل، ولم يكن ثمة ما يستوجب التمسك بالنص على الحد من تلك المطامع، بل كان المأمول بفضل التعاون بين بريطانيا واميركا، ان يؤدي هذا الاتفاق الى تحسين العلاقات بين اسرائيل والدول العربية.

ايدن يقول في مذكراته:

الجو أظلم في وجه بريطانيا بعد تأميم قناة السويس.

يروي ايدن في الفصل السابع من مذكراته الظروف التي أصبح فيها رئيسا للوزارة البريطانية عقب استقالة تشرشل في ابريل سنة ١٩٥٥، كما يروي الأزمات التي صادفته عقب توليه الوزارة مباشرة، ولم يفته ان يحص دلاس ببابه فيه فسرد بعض الصعوبات التي واجهته عند التعامل معه في المجال الدولي.

قال ايدن أن تشرشل اعتزل رياسة الوزارة يوم ٥ أبريل سنة ١٩٥٥ وانه ـــ أي ايدن ـــ توجه في اليوم التالي إلى قصر بكنجهام ليقبل يد الملكة شكرا بمناسبة توليه هذا المنصب.

وقال انه لم يكن يطمع في رياسة الوزارة، وان كل تفكيره واهتمامه كان مركزا في وزارة الخارجية أو وزارة المستعمرات، لانهما الوزارتان المعنيتان بشؤون الكومنولث والامبراطورية. ومع أنه سبق أن فاز بتأييد الأغلبية في الاستفتاء الذي جرى في سنة ١٩٣٨ لمعرفة رأي الشعب فيمن يمكن أن يتولى رياسة الوزارة، فانه في الواقع لم يكن يفكر جديا في تولي هذا المنصب.

ويقول ايدن وأول مرة فكرت فيها جديا فيه كانت في ديسمبر سنة ١٩٤٠. فقد توفي وقتئذ لورد لوتيان سفير بريطانيا في واشنطن، وأدى ذلك الى تعديلات وزارية وحدث أن ابلغني وقتئذ تشرشل أنه يجب أن أعد نفسي لأخلفه في رياسة الوزارة إذا حدث ما يمنعه من الاستمرار في هذا المنصب.

وكنت أشغل في ذلك الوقت منصب وزير الدولة لشؤون الحرب، وكان تشرشل يتولى بنفسه شؤون وزارة الدفاع علاوة على رياسة الوزارة. ولم تكن لوزارة الخارجية أهمية تذكر وقتئذ، إذ كانت معاملاتها مقصورة على بعض الحكومات «المنفية»، ولم يكن ثمة أي مجال لأي نشاط دبلوماسي على نطاق واسع.

وكان لورد هاليفاكس يشغل منصب وزير الخارجية. وحدث أن زارني في وزارة الحربية ليبحث معي مسألة من يمكن تعيينه سفيرا لبريطانيا في واشنطن. وكان من رأيه أنه لابد من اختيار أحد شخصين لهذا المنصب: اما هو واما انا. ولم اكن أود الابتعاد عن لندن باعتبارها مركز السياسة والأحداث في ذلك الوقت، فأوضحت له موقفي. وقبل هو أن يتولى ذلك المنصب. وعلمت فيما بعد أن تشرشل لم يكن يود أن أتولاه.

ثم انتقلت إلى وزارة الخارجية. وفي يونيه سنة ١٩٤٢ كتب تشرشل رسميا إلى القصر الملكي طالبا اخذ قرار من القصر بأن أكون خليفته في رياسة الوزارة. ولعل هذه الخطوة كانت السبب في أني لم أبتهج كثيراً عندما توليت الرياسة، إذ كنت على علم بذلك قبل حدوثه بزمن طويل.

وبعد أن توليت رياسة الوزارة، فكرت في حل البرلمان وإجراء انتخابات عامة جديدة لأني كنت اريد أن أواجه الأحداث الدولية وأنا متمتع بتأييد شعبي، مع أن حزب المحافظين كانت له الأغلبية في البرلمان.

ولكني ترددت في طلب حل البرلمان لعلمي أن الشعب لا يميل إلى إجراء انتخابات عامة بلا مبرر جدي، ولأني شخصياً كنت أطمع في أن أشترك في أول مؤتمر تقرر عقده من أقطاب روسيا وأميركا وفرنسا وبريطانيا.

ومع ذلك قررت في النهاية أن أطلب إلى الملكة أن توافق على حل البرلمان واستقر الرأي على إجراء الانتخابات في يوم ٢٦ مايو.

وقبل حل البرلمان. كنت قد قررت الا أجري اي تعديل في الوزارة، وأن ابقي كل وزير في وزارته، لأني كنت أريد أن تسير الأمور في الحكومة في يسر وسهولة، ولكن كان منصب وزير الخارجية قد خلا بعد أن أصبحت رئيسا للوزارة، وكان لابد من شغل هذا المنصب فورا، وكان الشخص الذي يجب أن يشغله هو لورد سالزبري إذ أنه سبق أن تولاه بالنيابة في سنة ١٩٥٣ أثناء مرضي، وقد تولاه بكفاءة وجدارة.

إلا أني قررت عدم اختياره لمنصب وزير الخارجية لعدة اعتبارات منها أنه يحسن الا يتولى شؤون هذه الوزارة عضو في مجلس اللوردات، لأنه مضطر في كثير من المناسبات أن يتكلم في مجلس العموم، ومجلس العموم يختلف عن مجلس اللوردات في كيفية مناقشة المشاكل الدولية، فمجلس اللوردات متحفظ عادة ومقدر لمسؤوليته عن الآراء التي تعلن فيه.

وكنت أخشى أن أجد نفسي مضطرا إلى مواجهة مجلس العموم بنفسي للرد على أسئلة الأعضاء ولتقديم البيانات الرسمية لهم، وهو عمل كان سيرهقني إلى جانب عملي كرئيس للوزارة.

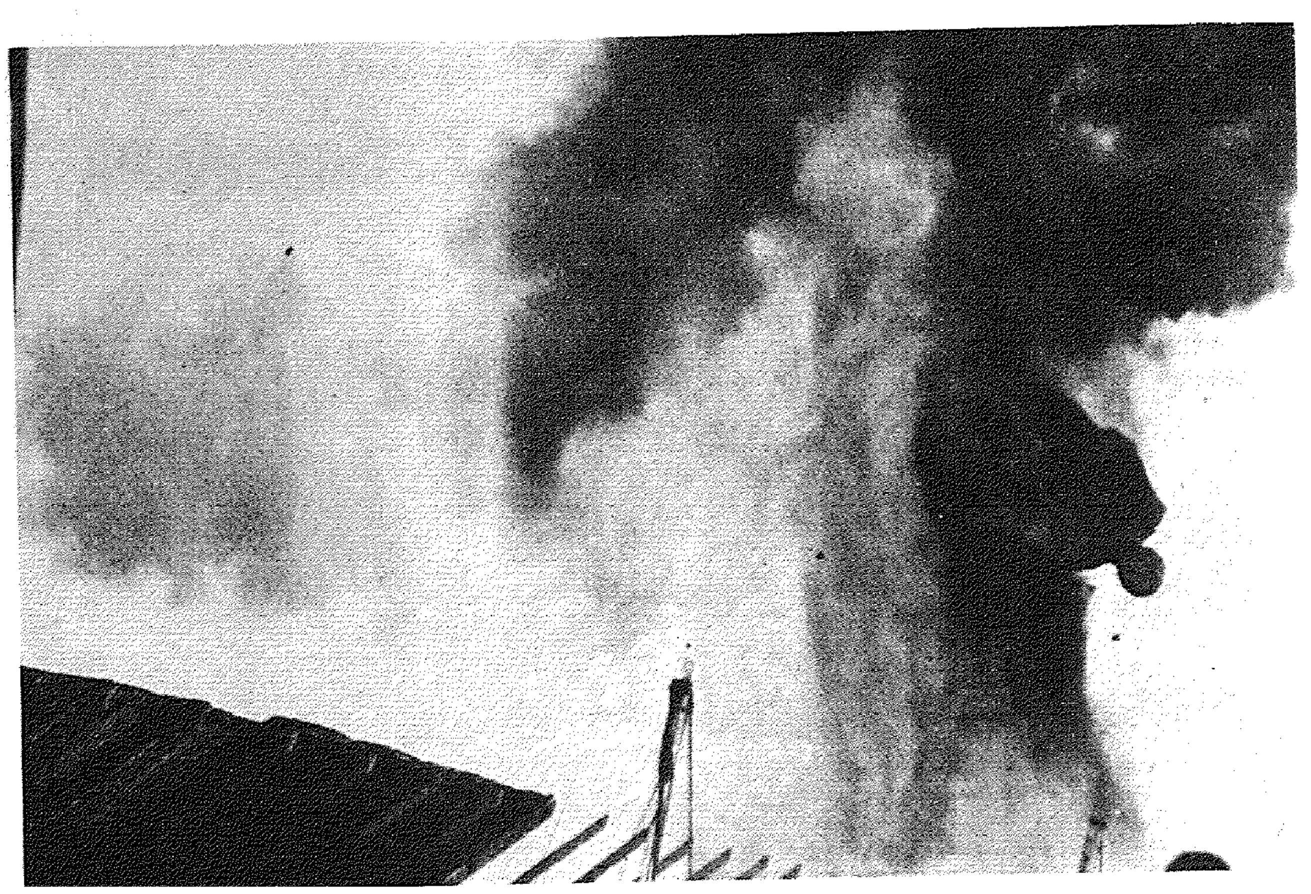
لهذا كله فضلت أن أختار لمنصب وزير الخارجية شخصا ينتمي إلى مجلس العموم ويمكنه التفاهم مع أعضاء المجلس والرد عليهم واحتمالهم. ووقع اختياري على هارولد مكميلان وكان يشغل من قبل منصب وزير الاسكان ثم وزير الدفاع.

وأسفرت نتيجة الانتخابات عن فوز جديد لحزب المحافظين إذ أصبح عدد أنصاره ٢٤٥ عضوا أي أن الأغلبية التي أصبح يتمتع بها صارت ٦٠ صوتا بعد أن كانت ١٧ صوتا فقط في المجلس السابق.

وكانت الانتخابات قد جرت وعمال الموانىء مضربون عن العمل. وبعد أن ظهرت نتيجة الانتخابات، أضرب عمال السكك الحديدية. وكان سبب الاضراب خلافات بين العمال وأصحاب الشركات، ورأيت أن من الحكمة ألا تشتبك الحكومة مع نقابات العمال، وأوعزت بطريقة غير رسمية إلى ضرورة عدم قيام العمال بأي إضراب إلا بعد أن تقترع النقابات على ذلك، بشرط أن يكون الاقتراع سريا، حتى يمكن لكل عامل أن يبدي رأيه بحرية وهو مطمئن، وبشرط الا يبدأ الاضراب إلا بعد انقضاء ٢١ يوماً من اليوم الذي يتخذ فيه القرار بوجوب الاضراب، على أن تبذل خلال هذه المدة جهود للتوفيق وللتحكيم بين العمال وأصحاب الشركات، أسوة بما هو متبع في اميركا.

وقد أثرت هذه الاضرابات على الحالة الاقتصادية في البلاد، ولاسيما على ميزان المدفوعات، فقرر وزير المالية الحد من المصروفات ولكن رفع المرتبات والأجور قبل ذلك كان له تأثير على رفع الأسعار ومع ذلك أمر وزير المالية البنوك بأن تحد من القروض التي تعطيها إلى عملائها.

وكان إضراب عمال الموانىء في الفترة من مايو إلى يوليه قد عطل تجارة الصادر وأضعف الانتاج الصناعي في البلاد بدرجة خطيرة. يضاف إلى هذا أن احتياطي الذهب والدولار في بريطانيا بدأ ينقص بما يزيد على ١٠٠ مليون دولار شهريا. وهكذا كان علي ان أتولى الرياسة والبلاد تحاول جاهدة أن تفعل الكثير بأقل إمكانيات محدودة.



□ الجماهير تحطم وتشعل النار في تمثال فرديناند دي‌ليسيبس بعد تاميم قناة السويس.

وقد اهتممت رغم كل شيء بمستقبل الصناعة في بريطانيا وبامكانيات توفير الوقود المولد للطاقة حتى يمكنها أن تستمر وأن تزدهر، وكنت أود لو أمكن الاعتماد على الطاقة الذرية لتحقيق هذا الغرض، ولكن تبين أن توليد الطاقة الذرية ما زال غالي التكاليف ومع ذلك فقد أصررت على ضرورة الاستمرار في الجهود المبذولة في سبيل تمكين البلاد من الاعتماد على تلك الطاقة يوماً ما.

وفي ديسمبر سنة ١٩٥٥ اجريت تعديلا وزاريا فنقلت مكميلان من وزارة الخارجية إلى وزارة الخزانة واخترت سلوين لويد لتولي وزارة الخارجية ووالتر مونكتون لتولي وزارة الدفاع.

وكانت المشكلة الاقتصادية أهم مشكلة داخلية تواجه الحكومة وكان لابد من اتخاذ بعض الاجراءات للحد من الاستيراد من الخارج حتى لا يتبخر ما لدى البلاد من احتياطي من الذهب والدولار. وكذا لجعل الجمهور لا يقبل على شراء السلع الأجنبية. وكان من رأي خبراء الحكومة أنه يجب عدم فرض ضرائب جديدة على شراء السلع الأجنبية، وانما يجب العمل على تحسين السلع المحلية بحيث يشتد الاقبال عليها عن طيب خاطر وارتياح، وحتى يمكن لهذه السلع أن تجد لنفسها أسواقا خارجية، فبذلك يمكن لبريطانيا أن تحصل على العملات الصعبة اللازمة لها لتعديل ميزان مدفوعاتها، وإلا فان النتيجة ستكون سيئة بالنسبة للمصانع البريطانية وللعمال الذين يعملون بها.

وقد استقر الرأي على عدم فرض أية قيود علنية حتى لا تثير غضب الرأي العام، على أن نوعز من حين إلى حين إلى البنوك بأن البلاد ليست في حاجة الى استيراد أنواع معينة من السلع الأجنبية، فتتصرف البنوك مع عملائها على ضوء هذا الايعاز، فيقل الاستيراد من الخارج، وبالتالي لا يتبخر ما لدى البلاد من عملات صعبة.

وفي الوقت ذاته عملت الحكومة على خفض نفقاتها بمقدار ٧٥ مليون جنيه، وهكذا بدأ الجو «الاقتصادي» يتحسن بعد أن انقضى على في رياسة الوزارة ١٥ شهراً.



□ العلم المصري يرفرف فوق خط بارليف عام ١٩٧٣.

ولكن الموقف الدولي لم يخل من اضطرابات، أهمها الأزمة التي أثارها ناصر عندما أعلن يوم ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ تأميم قناة السويس. ان هذا الحدث جعلنا كدولة من الدول الملاحية نواجه أزمة خطيرة، فقد أظلم الجو في وجهنا من الناحية الاقتصادية والسياسية والتجارية، وكذا من الناحية الدبلوماسية.

وبعد ان وصل ايدن في مذكراته إلى مسالة تأميم شركة قناة السويس، قطع سرد ذكرياته، وراح يتحدث عن بعض الساسة الانجليز والأجانب ممن عمل معهم وقت ان كان وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزارة. فتكلم عن رايه في ارنست بيفان وآتلي وجيتسكيل ومنزيس ودين اتشيسون وستالين ودالاس ومولوتوف:

وقال ايدن عن دالاس

كنت قد اتصلت بدالاس وقت عقد معاهدة الصلح مع اليابان، ولكن اشتراكي معه في مؤتمر برلين الذي عقد في يناير سنة ١٩٥٤ كان أول فرصة حقيقة للاتصال به كزميل، بيد أن تجاربي معه بعد ذلك لم تكن تجارب سعيدة الحظ، مع اني سبق أن تعاملت مع ٤ من وزراء خارجية أميركا قبله، وكانت علاقتي بهم ودية، رغم أننا كنا نختلف أحيانا في الآراء، فقد كان من النادر حدوث سوء تفاهم بيني وبينهم.

وأما الحالة مع مستر دالاس فقد كانت مختلفة، إذ كان من الصعب علي أن أتبين — على وجه التحديد — ما يعني بأقواله وتصريحاته، وبالتالي كان من الصعب استنتاج أي شيء يمكن أن نبني عليه سياستنا، وهذا بالطبع كان أمراً سيئاً بالنسبة لبريطانيا في علاقاتها مع أميركا.

إن دالاس درس الشؤون الدولية دراسة طويلة ولكن تجاربه العملية في المجال الدولي كانت قليلة.

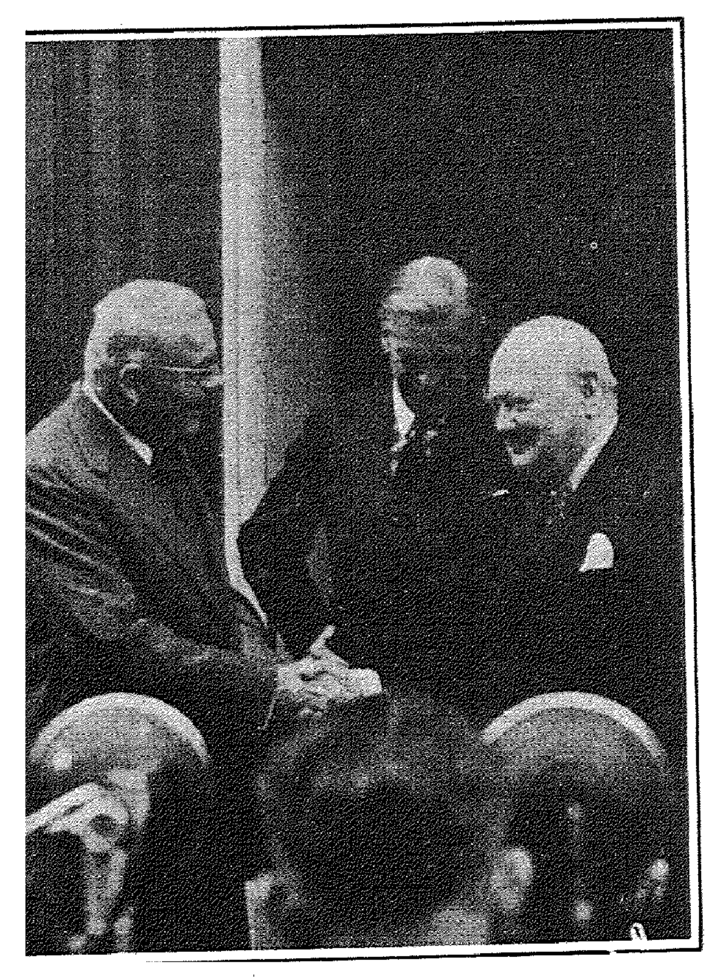
وقد حدث أن قررت أن اتخذ اجراءات معينة اعتقادا مني أنها ستجعل سياستنا متمشية مع سياسة الحكومة الأميركية، وكان ذلك بناء على تصريحات كان دالاس قد أدلى بها أثناء أزمة السويس، فقد حدث أن صرح بفكرة إنشاء هيئة

من الدول الملاحية التي تستخدم قناة السويس، وسميت هذه الفكرة وقتئذ «هيئة المنتفعين»، ولكن تبين فيما بعد أنه لم يكن يقصد بتلك الفكرة ما فهم منها في بادىء الأمر وقبل ذلك حدث أثناء قيامي بجولة في عواصم أوروبا الغربية في سبتمبر سنة ١٩٥٤، أن تدخل دالاس فجأة وبلا تمهيد وزار بون وأجرى مباحثات على حدة مع اديناور.

ولست أدري سبب وقوف أميركا في عهد دالاس موقف الفتور من حلف بغداد حتى في احرج الأوقات مع أن المفهوم أن فكرة إنشاء «حزام شمالي» بالشرق الأوسط، يكون حلف بغداد النواة الأولى لتكوينه وانشائه، من وحي اميركا.

والظاهر أن دالاس رغم اهتمامه بالسياسة الدولية لم يكن يكترث بنتيجة تصريحاته وأفعاله. وقد كانت له مواقف متناقضة فقد حدث أن هاجم الاستعمار بشدة. كما حدث أن آثر الوقوف على الحياد في بعض المنازعات الحرجة.

ان تصرفات دالاس كانت تعني أنه يجب على حلفاء أميركا أن يخضعوا لرأيها، ولكن من الواضح أنه لا يمكن لأي حلف أن يصبح قويا بهذه الطريقة. ●



□ تشرشل وايدن (في الوسط) مع جون فوستر دالاس.

□ نهاية مغامرة السويس، للكاريكاتورست الشهير الانكليزي «فيكي».



موقف ألمانيا من مشروعي

تدويل القدس

وإعادة توطين اليهود في فلسطين

(١٨٤٠-١٨٨٦)

د. عبد الرؤوف سنو

تعتبر الأزمة الشرقية (١٨٣١ ــ ١٨٤٠) وانقاذ الدولة العثمانية عن طريق التدخل المباشر للدول الاوروبية نقطة تحول هامة في سياسة التغلغل الامبريالي الاوروبي في الدولة العثمانية. فمعاهدة بلطاليمان التجارية (١٨٣٨) بين بريطانيا والدولة العثمانية وما تبعها من معاهدات مماثلة بين بقية الدول الأوروبية والدولة العثمانية، وكذلك اقامة القنصليات الاوروبية في القدس لممارسة سياسة التدخل المباشر في شئون الدولة العثمانية وفلسطين خاصة، والضغط على الباب العالي لاصدار المراسيم لصالح رعاياه المسيحيين والمستوطنين الاجانب، كانت آثارها السياسية والاقتصادية وخيمة على الدولة العثمانية. ان ما يهمنا في هذه الدراسة ليس تتبع هذه التطورات، إنما آثارها التي انعكست على منطقة سوريا وفلسطين فيما يتعلق بالسياسية الالمانية في هذه المنطقة.

ولقد سبق وصاحب التغلغل الاوروبي في المنطقة السورية وفود الارساليات التبشيرية الاوروبية والأمريكية مستفيدة من سياسة التسامح الديني التي اتبعها محمد علي في سوريا وفلسطين، وكذلك من سياسة «غض النظر» للدولة العثمانية عن نشاطات الارساليات التبشيرية كثمن لارجاع سيطرتها على المنطقة من قبل اوروبا. ففي ١٨٣٣ استقر المبشرون الانكليز في فلسطين مركزين عملهم بين اليهود، فيما هبط الامريكيون بيروت في العام التالي حاصرين نشاطهم بين اتباع الكنائس الشرقية. وكانت أهم الجمعيات الانجلو سكسونية التي استقرت في منطقة سوريا وفلسطين هي «المجلس الامريكي لمدراء الارسالية الخارجية «ومركزها بوسطن. (American Board of Commissioners for Foreign

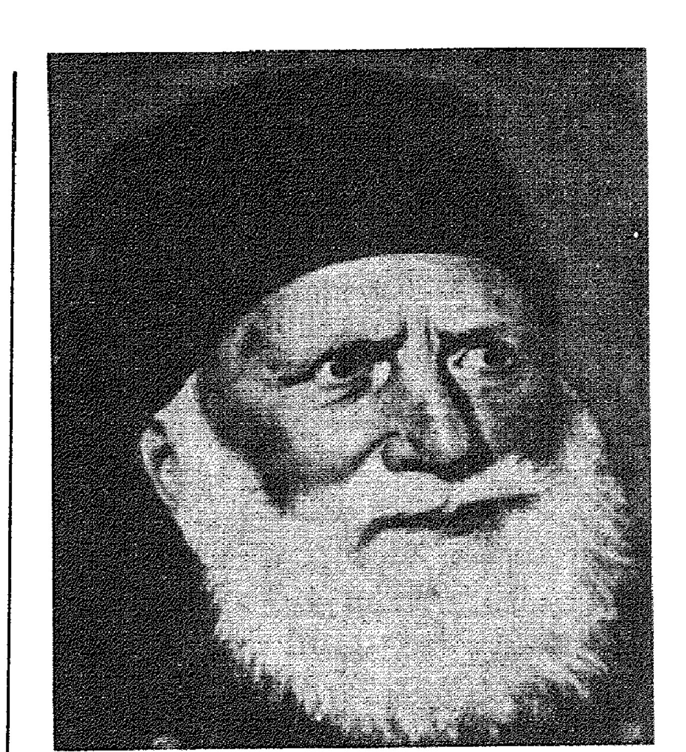
□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ــ جامعة برلين الحرة. دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية ــ جامعة كاسل.

المسيحيين في الدولة العثمانية وخاصة الأماكن المقدسة في فلسطين.

«المانيا» والمسألة الشرقية

حتى حدوث الأزمة المصرية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر كانت بروسيا المملكة الالمانية الكبرى لا تعيرُ المسألة الشرقية اهتماما كبيرا. فقد كانت اهتماماتها منحصرة في سعيها للحصول على مكانة مناسبة لها في «التجانس الأوروبي». والواقع ان المحاولات التي جرت منذ القرن ١٨ وأوائل القرن الماضي بين بروسيا والدويلات الالمانية من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى لعقد اتفاقات تجارية ومعاهدات صداقة لم تؤد إلى نتائج عملية على الصعيد التجاري أو السياسي، وذلك لأسباب أهمها: تخلف الصناعة الالمانية نسبيا عن غيرها من الصناعات الأوروبية، تمزق السوق الداخلي الالماني، التمزق السياسي والتجزئة الاقليمية، الحصار القاري عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن الماضي، عدم تقدير الباب العالي لدور بروسيا الاوروبي، واخيرا افتقار الدويلات الالمانية إلى بحرية قوية تحمي أسطولها التجاري في منطقة البحر المتوسط من هجمات دويلات شمالي افريقيا. وقد عطلت هذه العوامل كل امكانية لقيام علاقات المانية عثمانية متينة، وكذلك مع الساحل الشرقي للبحر المتوسط حيث توجد سوريا وفلسطين الخاضعتان للاستعمار العثماني(٢).

ودفعت الأسباب الاقتصادية وهي إقفال البحر الأسود للملاحة التجارية بسبب الحرب الروسية ــ العثمانية (١٨٢٦ ــ ١٨٢٩) بروسيا إلى التدخل لأول مرة بالمسألة الشرقية عن طريق إيفاد الجنرال فريدريش كارل فرديناند موفلنغ (Friedrich Karl Ferdinand Mueffling) للتوسط بين الدولتين في مفاوضات السلام في ادرنة ١٨٢٩. وبموافقة فريدريش فلهلم الثالث، ملك بروسيا، وصل إلى استانبول (١٨٣٥) الضابط البروسي هلمت فون مولتكة في زيارة تستغرق ستة شهور. ولكن هذه الزيارة تحولت إلى إقامة أربع سنوات قضاها في تدريب الجيش العثماني. وفي (١٨٣٧) وصل ضباط



□ محمد علي باشا.

(Mission) و «جمعية التبشير الكنائسية» المعروفة بـ (C.M.S.) و «جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود» الشهيرة بـ «جمعية يهود لندن» (L.J.S.). أما بروسيا البروتستانتية فلم تبدأ أي نشاط تبشيري ثقافي في سوريا وفلسطين قبل الاربعينات من القرن الماضي. وحوالي نفس الوقت عاد الجزويت الى منطقة سوريا وفلسطين للدفاع عن المواقع الكاثوليكية العريقة أمام «التغلغل البروتستانتي». اما روسيا الارثوذكسية فلم يكن لها أي نشاط فعال قبل الثمانينات من القرن التاسع عشر.

ومنذ البداية ارتبطت الأهداف التبشيرية للارساليات مع المصالح القومية والسياسية لدولهم في المنطقة(١) وهكذا أصبحت المنطقة وبشكل خاص فلسطين وسوريا معرضة للمنافسات والخلافات الدينية السياسية التي تورطت فيها الدول الأوروبية مباشرة أو غير مباشرة، عن قصد أو بدون قصد. فتعين الفاتيكان لفاليرغا في ١٨٤٨ بطريركا لاتينيا على القدس بعد انقطاع طويل رغم معارضة فرنسية شديدة، واحداث السلط ونابلس الطائفية في أوائل الخمسينات من القرن الماضي كانت كلها انعكاسا للصراعات الدينية السياسية. وكان تتويج ذلك حرب القرم (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) التي اندلعت بسبب حماية



□ فريدريش فلهلم الرابع

آخرون للعمل في الجيش العثماني كمستشارين عسكريين. ورغم ان البعثة العسكرية البروسية لم تلعب دورا كبيرا في تقوية العلاقات بين الدولتين، إلا أنها لقيت أستحسانا من قبل الدوائر العثمانية.

وبارتقاء فريدريش فلهلم الرابع (Friedrich Wilhelm IV.) عرش بروسيا ١٨٤٠ كانت الدول الأوروبية مجتمعة في لندن لبحث أفضل الوسائل لتحجيم مصر. وهنا أخذت بروسيا تشارك للمرة الأولى بفعالية في المسألة الشرقية. وكانت الفرصة مواتية لها حيث أن فرنسا المؤيدة لمحمد علي كانت في هذه المرحلة خارج قاعات المؤتمر. وقد انتقد محمد علي بشدة سماح الدول الكبرى لبروسيا «الضئيلة الشأن» سياسيا واقتصاديا بالاشتراك في قرارات المؤتمر. إلا أن محمد علي لم يدرك أن اشتراك بروسيا في مؤتمر لندن كان بهدف الحفاظ على تجانس وحدة الموقف الأوروبي، ومبدأ توازن القوى الأوروبي بشكل عام وللسياسة النمساوية بشكل خاص. وهكذا تورطت بروسيا في المسألة الشرقية ولم تعد باستطاعتها التراجع.

مشروع بروسي فاشل لتدويل القدس وحماية عسكرية أوروبية على الأماكن المقدسة في فلسطين

كما ذكرنا، فقد بدأت الارساليات التبشيرية الأجنبية تكثف نشاطاتها في منطقة سوريا وفلسطين منذ الأزمة المصرية. وقد استمر وفود الارساليات إلى المنطقة دون توقف حتى الحرب العالمية الأولى. وفي هذا الاطار من العلاقات نمت الاهتمامات البروسية الكنيسة السياسية والثقافية. فالأولى مورست من قبل الدولة والثانية حملت على أكتاف المبشرين. وفي كلا الحالتين قصد فيها تقوية النفوذ الالماني في المنطقة. وسوف نكتفي هنا بدراسة السياسة الكنيسة البروسية الرسمية في فلسطين.

قبيل نهاية حكمه في (١٨٣٩) رفض ملك بروسيا فريدريش فلهلم الثالث دعوة مستشاره ارنست أوغست كازيمير درشاو (Ernst August Kasimir Derschau) للتدخل في فلسطين لأجل حماية المسيحيين. فالمسألة كانت برأي الملك على درجة كبيرة من الخطورة بالنسبة للعالم المسيحي بحيث انها تستدعي عناية خاصة، وان بروسيا ليست في وضع سياسي ودولي لتنفيذ مثل هذه الخطوة منفردة[٣].

وبتسلم فريدريش فلهلم الرابع العرش كانت الأزمة المصرية وقرب انهيار الدولة العثمانية كممثلة للعالم الاسلامي تجاه الغرب قد أيقظت في المانيا ذكرى الحروب الصليبية. فعلت أصوات تعلن أن الوقت قد حان الآن لانتزاع الأراضي المقدسة من سيطرة المسلمين واعادتها إلى السيطرة المسيحية[٤]. وفي هذه الظروف وجدت الدوائر الالمانية المهتمة بأوضاع فلسطين تجاوب الملك لمشروعاتها الدينية والاستيطانية في فلسطين، وفي مقدمتها «الأخوة جرلاخ» (Bruder Gerlach) وجوزيف ماريا فون رادوفيتز (Joseph Maria von Radowitz) الذي ارتقى أعلى المناصب العسكرية رغم كاثوليكيته، وأخيراً كريستان كارل يوزياس فون بونسن (Christian Carl Josias von Bunsesn) الذي كان مقرباً للملك ومحبباً إليه، حيث كان يناقش معه نظرياته الدينية[٥].

ففريدريش فلهلم الرابع «الرومانسي على العرش» كانت تشده منذ صغره علاقة خاصة بفلسطين. وكان يؤمن بالحق الالهي للأمراء والملوك وبأن للأمير سلطة على الدولة والكنيسة معا، إذ يوحدهما بشخصه. وكان فريدريش فلهلم

الرابع يأمل منذ كان وليا للعهد بخلق كنيسة بروسية على الطراز الانكليكاني. وفي سبيل ذلك كان يرى ضرورة تقارب الكنيسة البروسية من الكنيسة الانكليكانية ليكون ذلك مقدمة لقيام كنيسة بروتستانتية عالمية متحدة(٦).

وقبل إعادة سوريا وفلسطين إلى السيطرة العثمانية، كانت الدول الأوروبية منشغلة بمصير البلدين. أما الحكومة البروسية فكانت مقتنعة بأن هذه الفرصة يجب ألا تمر دون حصول الدول الأوروبية على مكاسب دينية سياسية في المنطقة. وكانت أولى الخطوات التي سارت فيها المذكرة التي قدمتها إلى الحكومة النمساوية في ٦ آب (١٨٤٠) «حول إمكانية وضرورة تأمين وضمان ممارسة المسحيين في الأماكن المقدسة لعبادتهم عند قبر المسيح». صاغها المبعوث البروسي في لندن هاينريش فون بولوف (Heinrich Von Buelov) ووزير الثقافة يوهان البرت فريدريش ايشهورن (Johann Albert Friedrich Eichhorn) إلا أن الحكومة النمساوية لم تعر المذكرة أي اهتمام(٧).

ويبدو أن الدوائر الروسية الرسمية تبادر إلى علمها بالتحرك البروسي، فسارعت إلى تحذير الحكومة البروسية من مغبة التسرع في طرح مشروع غير مدروس يرمي إلى تدويل القدس، أو إقامة دولة مسيحية في المدينة المقدسة أو تجميع يهود العالم في مدينة «سليمان». وتطرقت المذكرة الروسية إلى صعوبة تحقيق المشروع البروسي مستندة إلى قلة عدد المسيحيين في القدس وإلى تفرقهم وتنازعهم فيما بينهم وبالتالي عدم تمكنهم من إقامة دويلة مسيحية أو تحمل مسئولية سياسية. كما توقعت المذكرة أن يقاوم المسلمون أي مشروع يرمي إلى وضعهم تحت السيطرة المسيحية. اما موقع فلسطين الجغرافي بعيدا عن أوروبا فكان يلعب دورا سيئا في حال أرادت الدول الاوروبية أن تسرع بحريا لنجدة مسيحيي القدس في حال تعرضهم للخطر. وأخيرا وليس آخرا لاحظت الدوائر الروسية ضرورة التوصل إلى اتفاق بين الدول الأوروبية من جهة والباب العالي من جهة أخرى كشرط أساسي للبدء في تنفيذ المشروع.



□ السلطان عبد المجيد.

(F.O. 64/235, Memorandum delivered by the Russian Government to the Prussian Government in Oct. 1840 communicated to the Chevalier Bunsen August 1841).

ومر الربع الأخير من عام ١٨٤٠ دون حدوث اية تطورات بالنسبة للسياسة البروسية تجاه فلسطين. إلا أن هذا لم يمنع اهتمام دوائر بروسية الرسمية والصحافة الالمانية وبعض الجمعيات التبشيرية بالمسائل الدينية السياسية في فلسطين.

ولكن انسحاب المصريين من سوريا وفلسطين عند نهاية عام ١٨٤٠ حرك الحكومة البروسية من جديد — فعادت إلى نشاطها السابق محاولة استغلال المناسبة لدفع سياستها الفلسطينية إلى منعطف جديد، عن طريق طرق باب غير النمسا صامة اذانها عن التحذيرات الروسية. ففي ٨ شباط (١٨٤١) توجهت الحكومة البروسية بمذكرة إلى الحكومة البريطانية تتعلق بمشروع فرض «حماية دينية على الأماكن المقدسة، وبحث المسألة الفلسطينية وتحرير كل المسيحيين عن طريق المفاوضات». هذه الأفكار البروسية لم تلق أي تجاوب من قبل الحكومة البريطانية(٨).

وبالرغم من خيبة الأمل عاودت الحكومة البروسية بعد أسبوع اتصالاتها بعواصم الدول الأوروبية الكبرى لندن، بطرسبرغ، باريس وفينا

مقدمة مشروعا اخرا معدلا. ففي مذكرتين منفصلتين لبولوف ورادوفيتز تتضمن تصورات ملك بروسيا، جرى الحديث عن مشروع بروسي لتدويل القدس وضواحيها بوسائل سلمية ووضعها تحت الحماية العسكرية المشتركة للدول الخمسة(٩).

ففي مذكرته طالب بولوف أن توضع الكنائس والأديرة والتكيات والمؤسسات التابعة للطوائف الدينية الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستانتية تحت الحماية الدولية. كما طالب بتحسين أوضاع رعايا السلطان غير المسلمين، عن طريق تحريرهم من الضرائب ومنحهم قضاءا مستقلا. ولضمان تأمين تنفيذ هذه البنود رأى بولوف ضرورة إقامة ثلاثة ممثلين أوروبيين في القدس، الأول يعين بالتناوب من قبل النمسا وفرنسا كممثلتين للكاثوليكية في المشرق، الثاني يعين من قبل روسيا كممثلة للارثوذكسية، أما الثالث فيعين بالتناوب من قبل بروسيا وانكلترا ويكون ممثلا للبروتستانت. واختتم بولوف اقتراحاته بأن يكون لكل دولة فرقة عسكرية قوامها ٦٠ جنديا تتمركز في القدس لحماية الأماكن المقدسة والسهر على تنفيذ هذه القرارات(١٠).

أما رادوفتيز فتعهد في مذكرته تأمين حماية لليهود في فلسطين إذا رغبوا ذلك، وكذلك تعليم ابنائهم(١١). أما المقترحات التي وجهها إلى لندن وكانت تحتوي على إضافات غير مذكورة في المذكرات التي وجهت إلى العواصم الأوروبية الأخرى، فكانت تقترح على بريطانيا تعاون مشترك مع بروسيا كي يحصل البروتستانت في فلسطين على حق تشييد مستشفا ودار عبادة لهم، وان يخصص جبل صهيون للارسالية البروتستانتية وحدها(١٢).

هذه العروض رفضت جملة وتفصيلا من قبل الدول الكبرى. فإلى جانب أن الدول الأوروبية رأت في المقترحات محاولة بروسية «للتغلغل» في الشرق عن طريق استخدام المسائل الدينية، فقد رأت تلك الدول أن العروض تحمل تهديدا للتوازن الذي ضمن لها حقوقا وامتيازات في المنطقة(١٣). كذلك رفضت كل من الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية المشروع، حيث لم يكن متوقعا إعطاء موافقتهما على قيام كنيسة



□ بالمرستون

بروتستانتية في فلسطين وتكون مساوية معهن. أما القرار البريطاني الذي علقت بروسيا عليه الآمال الكبيرة، فجاء مخيبا لها. فاللورد بالمرستون، وزير الخارجية البريطانية، لم يجد سببا يدعو بلاده لقبول المقترحات، خاصة أن بلاده تتمتع بوضع دولة حامية في فلسطين، كما أن مرسوم خطي شريف كلخانة (١٨٣٩) قد ازال الفوارق بين المسيحيين والمسلمين، وان على المرء أن يسهر على تطبيق هذا المرسوم(١٤). ويعود موقف بريطانيا إلى أنها لم تك تعير في ذلك الوقت المسائل الدينية في الشرق ومساواة الكنيسة البروتستانتية بغيرها من الكنائس الأخرى الأهمية التي كانت تعيرها للاستفادة من الوضع الذي نتج عن تحجيم مصر وتطوير تجارتها في الدولة العثمانية وضرب نفوذ دول أوروبية أخرى في مقدمتها روسيا، وأخيرا تأمين خطوط مواصلاتها الاستراتيجية مع الهند(١٥). وكل هذا لم يك في وسع بروسيا تقديمه لبريطانيا في سياستها الامبريالية في الشرق العربي والدولة العثمانية ولا مشروع تدويل القدس كذلك.

وأخيرا لم يكن متوقعا الحصول على موافقة الباب العالي على مشروع التدويل والحماية العسكرية الأوروبية على الأراضي المقدسة. فالسلطان العثماني كونه «خليفة» وحامي الأماكن

المقدسة للاسلام مكة، المدينة والقدس، كان لا يستطيع ولا يسمح له باقتطاع أراض إسلامية مقدسة والتنازل عنها لدول مسيحية. فتجارب الدولة العثمانية في ولاياتها مع النمسا وروسيا كان لا يمكن تكرارها في فلسطين. وفي هذا المعنى رفض الباب العالي بعد عودة سيطرته على سوريا وفلسطين مشروعا بريطانيا ـ يهوديا لشراء الأراضي في فلسطين وتوطين اليهود عليها[١٦].

مشروع بروسي جديد للقدس: مطرانية القدس الانكليزية البروسية وإعادة توطين اليهود في فلسطين

مطرانية القدس: على الرغم من المعارضة البريطانية لمشروع تدويل القدس، فقد ظل فريدريش فلهلم الرابع متمسكا بموقفه بأن بريطانيا هي الحليف الطبيعي لبروسيا البروتستانتية، وكان يشد عزيمته في ذلك نظريته الدينية حول الوحدة العالمية للكنائس البروتستانتية. ورأى الملك أن إرسال «بعثة خاصة» مزودة بتعليمات جديدة إلى البلاط الانكليزي برئاسة بونسن المعروف لدى الدوائر البريطانية السياسية والكنيسة والمتزوج من سيدة من عائلة بريطانية مرموقة، كفيل بأن يحقق مشاريعه.

وفي منتصف (١٨٤١) وصل البارون بونسن إلى لندن «كمبعوث فوق العادة ومفاوض مطلق الصلاحيات». وبعد عدة أسابيع من المفاوضات مع الحكومة البريطانية والسلطات الكنسية حول أوضاع البروتستانت في الدولة العثمانية ووجوب إرغام الباب العالي على الموافقة على حماية بروسيا وبريطانيا للبروتستانت في الأراضي المقدسة، قدم بونسن مشروع ملكه حول «كيفية منح الكنيسة الانكليزية... الكنيسة البروسية مركزا اخويا مساو لها في الأراضي المقدسة»[١٧]. وأخيرا رغم كل الاختلافات الكنسية بين الكنيستين البروسية والانكليكانية إقامة «مطرانية بريطانية بروسية مشتركة في القدس»[١٨].

وعلى الصعيد الدبلوماسي اقترح بونسن أيضا قيام تحرك مشترك في استانبول، وذلك للحصول على اعتراف الدولة العثمانية بالطائفة البروتستانتية «كملة» في الدولة العثمانية. كذلك رأى بونسن ضرورة إلحاق جمعية يهود لندن في المطرانية المزمع تأسيسها، وذلك لتحقيق الأهداف التبشيرية والكنسية من وراء مشروع المطرانية. ولهذا دعا بونسن جمعية يهود لندن التي كانت تعمل بين يهود فلسطين وتمتلك منذ عام ١٨٣٩ قطعة أرض ومستشفى على جبل صهيون للانضمام إلى المطرانية.

وفي بداية آب (١٨٤١) وضعت اللمسات الأخيرة على اتفاقية تأسيس المطرانية. وتبعا لذلك فقد تقرر أن تكون «مطرانية كنيسة انكلترا وايرلندا المتحدة في القدس» مطرانية انكليزية، على أن يعين المطران بالتناوب من قبل بروسيا وبريطانيا بعد موافقة رئيس أساقفة كانتربوري على تعينه وان يكون تابعا للكنيسة الانكليكانية. أما رجال الدين الالمان الذين قد يتبعون المطرانية فوجب إعادة تكريسهم من جديد وفقا لتعاليم ال (٣٩) للكنيسة الانكليكانية. وتقرر أن تشمل صلاحيات المطران الروحية والكنسية كل المؤسسات والجمعيات والافراد المرتبطين بالمطرانية في كل من فلسطين، سوريا، كلدانيا، مصر والحبشة[١٩].

ولتأمين انطلاقة ناجحة للمطرانية تبرع ملك بروسيا بمبلغ ١٥٠٠٠ استرليني من جيبه الخاص، ليكون وقفا للمطرانية على أن يخصص فوائد المبلغ لدفع نصف مرتب المطران السنوي. أما الجانب البريطاني فقد تبرع بمبلغ ٢٠ ألف استرليني، دفعت منها جمعية يهود لندن مبلغ ٣٠٠٠ استرليني. وتقرر أن تكون الاتفاقية سارية المفعول باحتلال المطران لكرسي المطرانية، وهذا ما حدث في كانون الثاني (١٨٤٢).

ورغم قبول الحكومة البروسية لوضع متدن في الاتفاقية مع الشريك البريطاني وما سبب ذلك من معارضة داخلية شديدة في بروسيا، وكذلك موقف الدول الكبرى الرافض للاتفاقية، إلا أن الحكومة البروسية كانت لديها مبرراتها السياسية الخارجية والداخلية التي حملتها على قبول هذا المركز المتدني وأهمها: أن تكون هناك جماعة بروتستانتية المانية في فلسطين تحت مظلة المطرانية وحمايتها ـ بناء كنيسة بروتستانتية في القدس ـ انتزاع اعتراف الدولة العثمانية بالملة البروتستانتية. وبفعل هذه المظلة تمكنت بروسيا

من تحقيق هذه الأهداف وأهمها: استقرار الجمعيات التبشيرية الالمانية البروتستانتية في الشرق، كما أن مرسوم بناء كنيسة بروتستانتية في القدس أمكن الحصول عليه في (١٨٤٥) ودشنت «كنيسة المسيح» في (١٨٤٩). أما انتزاع اعتراف الدولة العثمانية بالملة البروتستانتية فلم يصدر قبل (١٨٥٠) وتم الحصول عليه بفضل الدبلوماسية الانكليزية وليس البروسية.

إعادة توطين اليهود في فلسطين: إلى جانب الدوافع الكنسية السياسية لتأسيس مطرانية القدس، لعبت الدوافع البروسية الداخلية وأعني بها مسألة إعادة توطين اليهود في فلسطين دورا هاما في مشروع تأسيس المطرانية. وللحصول على فهم واضح لسياسة فريدريش فلهلم الرابع في إعادة توطين اليهود ينبغي التطرق إلى أوضاع اليهود في بروسيا ودويلات المانيا وموقف الحكومة البروسية والراي العام الالماني منهم، وكذلك المشاريع البريطانية ــ اليهودية لاعادة توطين اليهود، والتي أثرت كثيرا على تصورات فريدريش فلهلم الرابع بالنسبة «للمسألة اليهودية» في المانيا.

اليهود في بروسيا والمانيا: لم يؤد مرسوم تحرير اليهود الالمان وإعطائهم المواطنة البروسية في (١٨١٢) إلى المساواة الكاملة بين اليهود والألمان. فقد ظل دخول الوظائف الرسمية محظرا عليهم[٢٠]. وخلال حرب التحرير ضد السيطرة الفرنسية كانت المعاناة القومية للالمان قد وصلت إلى ذروتها. فدعا فريدريش لودفيغ يان (Friedrich Ludwig Jahn) إلى «حرب صليبية مقدسة» ضد كل الغرباء من فرنسيين ويهود[٢١]. فقد نظر إلى اليهود على انهم «جسم غريب» في المجتمع الالماني وانهم يشكلون «دولة داخل دولة» كما وصفهم الفيلسوف الالماني يوهان غوتليب فيخته قبل قرنين من الزمن. والواقع أن فيخته قد دعا الالمان بالفعل إلى معاملة اليهود كبشر. إلا أنه أوضح ذلك قائلا:

«أما ان نعطيهم (أي اليهود) حقوق المواطنة، فاني لا أرى اية وسيلة سوى ان نستبدل في إحدى الليالي رؤوسهم برؤوس أخرى خالية من أية أفكار يهودية. ولكي نحمي أنفسنا منهم فانني أيضا لا ارى سوى ان نفتتح لهم أرض الميعاد ونرسلهم جميعا إلى هناك»[٢٢].

هذه النظرة العدائية ضد اليهود وجعل فلسطين مركزا لتجميع اليهود لم تقتصر في الواقع على الفلاسفة ورجال الفكر الالمان. فكثير من الالمان رأوا في اليهود «شعبا فاسدا» عديم الاصالة «مشحونا بميول شريرة شاذة»[٢٣].

وإلى جانب العوامل النفسية لعب التحول الاقتصادي والاجتماعي في المانيا من جراء التصنيع دورا في تغذية روح العداء ضد اليهود. فخلال عصر فردريش الثاني (١٧٤٠ ــ ١٧٨٦) تمتعت الرأسمالية اليهودية «بامتيازات خاصة» في حقول النشاطات الصناعية والمالية واستثمار الأراضي، وذلك تقديرا لدعمها المالي للدولة البروسية خلال حربها ضد النمسا وروسيا (حرب السبع سنوات ١٧٥٦ ــ ١٧٦٣). وما أن حل القرن التاسع عشر حتى كانت الرأسمالية اليهودية الالمانية قد دعمت نفسها في شتى المرافق الاقتصادية.

ففي مجال النشاطات المصرفية امتلك اليهود الالمان منذ بداية القرن ١٩ في برلين وحدها ٣٠ مؤسسة بنكية من أصل ٥٢. وعندما تأسست اول بورصة في برلين كان خمسة من أصل تسعة من الموقعين على أول جداول الأسعار من اليهود. وفي عام ١٨٣٧ بلغت حصص رجال البنوك اليهود في شركة خطوط حديد الراين الثلثين. وفي مقاطعات أخرى من المانيا كبافاريا هسن هامبرغ فلم يكن الوضع أفضل عليه من بروسيا[٢٤].

وفي مجالات التجارة والصناعة لعب اليهود ايضا دورا قياديا. فاليهودي جوزيف مندلسون كان أحد مؤسسي «تجمع تجار برلين» الذي مثل تجارة برلين، ظل لمدة عشرين عاما في مركز القيادة للتجمع[٢٥]. كما شارك اليهود في تكوين الصناعة الالمانية الناشئة في برلين ــ في مجالات الصناعات المعدنية، والنسيجية والجلدية[٢٦]. ولم تجد الرأسمالية الالمانية الناشئة في المزاحمة اليهودية خطرا عليها فحسب، بل كانت هناك المنافسة اليهودية الدولية الممثلة باسم «روتشيلد» التي دقت ناقوس الخطر للرأسمالية الالمانية[٢٧]

أما في دوائر الارستقراطيين الاقطاعيين فقد لقي مرسوم (١٨١٢) كل استنكار من جانبهم،

إذ خشوا أن يمتلك «المال اليهودي» أراضيهم وأن تصبح «براندنبورغ ـ بروسيا نموذجا جديدا للدولة اليهودية». وسرعان ما استعر الموقف ضد اليهود بحدوث الأزمة الزراعية في عام ١٨٣٨، مما أدى إلى موجة اعتداءات من قبل المزارعين ضد اليهود[٢٨].

وكان نصيب الالمان الحرفيين من المنافسة اليهودية أشد. فبعد تقسيم بولندا الأخير (١٧٩٥) ازداد عدد سكان بروسيا اليهود مئة الف شخص، ومن ضمنهم العديد من العمال المهنيين[٢٩]. ولعبت مراسيم التآخي مع اليهود دورا في اشتغال الكثيرين من اليهود الجدد في بروسيا في أعمال «إنتاجية»[٣٠]. فمثال ذلك كان اقليم شليسين العليا. ففي (١٨٢٧) كان هناك ٨، ١٥ ٪ من اليهود العاملين في الأعمال المهنية. وفي (١٨٤٣) ارتفعت النسبة إلى ٧، ٢٥ ٪[٣١]. ومنذ رفع الحصار القاري عن أوروبا عادت المنتوجات البريطانية الرخيصة تغزو الأسواق الالمانية منافسة البضائع المحلية، بحيث تهددت الأسس الاقتصادية لكثير من العمال الالمان الحرفيين. وسرعان ما انقلبت إلى موجة عدم رضى اقتصادية أخذت طابعا معاد لليهود[٣٢].

ويقسم دارسو التاريخ الألماني في النصف الأول من القرن الماضي الرأي العام الألماني بالنسبة للمسألة اليهودية إلى تيارين: تيار الليبراليين الذين رأوا أن إعطاء اليهود المساواة الكاملةمع ألالمان قد تربط اليهود أكثر بالدولة البروسية ويخفف تطلعاتهم «القومية». أما التيار الثاني فكان تيار المحافظين الذين نظروا إلى اليهود على أنهم «غرباء» وأن اليهودية كديانة هي مناقضة للتعاليم المسيحية. ولكنهم اشترطوا تنصر اليهود لقاء منحهم المواطنة الكاملة[٣٣].

وفي هذا الاطار لتنصير اليهود في بروسيا والمانيا وقعت مهمة التنصير على عاتق «جمعية نشر المسيحية بين اليهود» التي تأسست في ١٨٢٢ وكانت شقيقة لجمعية يهود لندن. ولقد حصلت الجمعية على دعم حكومي بروسي[٣٤]. ولم يكن رئيسها سوى الجنرال البروسي كارل فون فتزليبن (Karl von Witzleben)[٣٥]. كما تأسست جمعيات مماثلة في الأعوام اللاحقة، في بازل، كولونيا، لايبزيغ. وحتى منتصف الاربعينات من القرن الماضي لم تتمكن جمعيات تنصير اليهود في بروسيا من كسب أكثر من ٢٠٠٠ يهودي إلى البروتستانتية. ومن المعتقد ان هؤلاء قد تنصروا ليسهل عليهم دخول الوظائف الرسمية[٣٦].

وهكذا لم تؤد مراسيم تحرير اليهود وإعطائهم المواطنة الالمانية وتنصيرهم إلى حل المسألة اليهودية في المانيا ـ وظلت الحواجز النفسية والعنصرية والقومية والاجتماعية والاقتصادية تفصل بينهم وبين الالمان. وأصبحت الحاجة ملحة لحل جذري للمسألة. وفي هذه الظروف اعتلى فريدريش فلهلم الرابع العرش. وكما أسلفنا سابقا فقد كان مهتما بالمسألة اليهودية وبأوضاع المسيحيين في فلسطين منذ صغره. الا يجب أن تكون فلسطين الحل الذي يوصل المسألة اليهودية في المانيا إلى حل مرض؟ وإذا استثنينا مشروع نابوليون خلال حملته المصرية (١٧٩٨/١٧٩٩)، لاعادة توطين اليهود في فلسطين فإن دوافع هذه الخواطر «الفريدريشية» جاءت من قبل بريطانيا.

المشاريع الانكليزية ـ اليهودية لتوطين اليهود في فلسطين

عند نهاية الثلاثينات من القرن التاسع عشر وبشكل خاص الفترة من (١٨٣٨ ـ ١٨٤٠) طورت في بريطانيا مشاريع متعددة هدفها قيام استيطان يهودي في فلسطين. ومن الشخصيات البريطانية البارزة التي لعبت دورا هاما في هذا المجال اللورد اشلي (Ashley) الذي عرف فيما بعد بـ «ايرل اوف شافتسبري»، الذي كان أكثر الرجال نفوذا في جمعية يهود لندن. وبسبب قرابته إلى اللورد بالمرستون أمكنه أن يبحث مع الحكومة البريطانية إمكانية وضع اليهود في الدولة العثمانية تحت الحماية البريطانية[٣٧]. وخارج جمعية يهود لندن وعلى النقيض لسياستها في تنصير اليهود، كان موسى مونتيفيوري يعمل لكي يحتفظ اليهود بعقيدتهم الدينية وضد تنصيرهم، وكان لا يقل نفوذا عن اللورد اشلي لدى الدوائر الحكومية البريطانية. فبعد زيارة إلى فلسطين قبل حل المسألة المصرية ضغط على الحكومة البريطانية

ليس فقط لأجل حماية ما يقرب من سبعة آلاف يهودي في فلسطين، بل أيضا أن تدعم الحكومة البريطانية هجرة يهود أوروبا وشرائهم للأراضي في فلسطين والاستيطان عليها[٣٨].

لم يك اللورد بالمرستون في الواقع بعيدا عن المشاريع اليهودية، بل نراه يؤيدها ويشجعها. فبالمرستون نظر إلى هجرة اليهود إلى فلسطين من زاوية المصالح الاقتصادية والسياسية البريطانية. وكان يرى أن استيطان اليهود الأوروبيين في فلسطين برأسمالهم وخبراتهم سوف يؤدي إلى ازدهار اقتصادي في المنطقة مما يساهم في استقرار الامبراطورية العثمانية وتكون نتائجه تدعيم النفوذ البريطاني في منطقة الليفانت حيث تقوى التجارة وتزدهر[٣٩]. ولأجل ذلك، أي تدعيم المصالح الامبريالية البريطانية في المنطقة عن طريق دعم المشاريع الاستطيانية اليهودية، جاء تأسيس القنصلية الانكليزية في القدس، أول قنصلية أوروبية هناك، وذلك بعد إلحاح طويل من جمعية يهود لندن[٤٠]

فريدريش فلهلم الرابع و «إعادة توطين الشعب اليهودي في فلسطين»

خلال إقامته في لندن عامي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ استطاع بونسن أن يوطد علاقاته مع ممثلي جمعية يهود لندن وان يتطلع على مشاريعها الاستيطانية في فلسطين[٤١] وهذا ما يحملني على الاعتقاد بأن المشروع البروسي الأول لتدويل القدس قد حيكت خيوطه في لندن من قبل بونسن والجماعات اليهودية، وبعبارة أوضح، أن الجماعات اليهودية المهتمة بقضايا الاستيطان في فلسطين ارادت أن تستغل بونسن ومن ورائه السياسة البروسية في سبيل تنفيذ مشاريعها الاستعمارية. ان رسالة بعث بها مك كول (McCaul) أحد زعماء جمعية يهود لندن إلى بونسن في أيلول ١٨٣٩، أي قبل عام تقريبا على المشروع البروسي لتدويل القدس توضح العلاقة بين مشروع التدويل البروسي والجهود الاستيطانية اليهودية في فلسطين يقول مك كول:

«انا لا أعرف ما يمكن عمله لأجل القدس، كما لا أحب التدخل في المسائل السياسية، ولكن الا يمكن تحويلها (القدس) إلى «مدينة حرة» مثل فرانكفورت أو كراكو (Cracow) تحت حماية الدول العظمى؟.. الا يستطيع الملوك المسيحيون أن يقدموا شيئا قليلا من الحرية المسيحية إلى يهودي مسكين ظل سجينا لفترة طويلة»[٤٢].

وفي السنتين التاليتين على هذا الخطاب توافق أن كان بونسن مبعوثا في سويسرا، وهناك ناقش مسألة إقامة مستوطنة بروتستانتية في فلسطين مع جمعية التبشير في بازل». ويمكن للمرء أن يستنتج من خلال مراسلات بونسن في هذه الفترة انه كرس وقتا كبيرا للقضايا الفلسطينية. وبقيام جماعة بروتستانتية في القدس تابعة لجمعية يهود لندن رأى بونسن ذلك إشارة على «انبعاث صهيون». وكان تطور الأزمة المصرية تقوي استنتاجاته[٤٣]. وفي ٣ آب (١٨٤٠) كتب بونسن إلى غلادستون، (Gladstone) النائب البريطاني المحافظ ووزير الاستعمار ورئيس الوزارة اللاحق، يقول:

«انه من غير المؤكد الا نرى مشيئة الله في تاسيس كنيسة انكليزية وجماعة مسيحية من المرتدين على جبل صهيون في القدس. الا تريد ان تفعل شيئا لاستغلال الأحداث السياسية التي تتحكم بها مشيئة الله والتي تصادفها إشارات على انبعاث صهيون؟»[٤٤].

وفي ١٧ ايلول، أي بعد شهر ونصف، بعث بونسن بتقرير إلى برلين حول خطة لشراء الأراضي في فلسطين لأجل اليهود المتنصرين بحثها مع اللورد اشلي. كتب بونسن يقول:

«بالاضافة إلى ذلك كتبت إلى اللورد اشلي ايضا معالم خطة أرادها الله، لأجل امتلاك قطعة أرض في فلسطين لليهود المتنصرين، وخصوصا فقراء القدس منهم، إذا ما تحرك في داخلهم الايمان»[٤٥] (المسيحي).

وبعد إرسال بونسن في حزيران (١٨٤١) إلى لندن على رأس البعثة البروسية المفاوضة، تأكد لبونسن أن مشيئة الله تلعب دورا كبيرا في تطوير الأمور لصالح المسألة اليهودية. فالأزمة المصرية كانت قد انتهت وها هي الدولة العثمانية مدينة للدول الأوروبية بسيادتها واستقلالها، بعدما تزعزعت «الخلافة الاسلامية». وبعد إنهائه للمفاوضات الناجحة حول تأسيس المطرانية مع

La formation de colonies allemandes et Anglaises en Turquie & l'introduction de l'élément protestant serait sans contredit un moyen puissant de civilisation et de prospérité pour ces contrées et de leur consolidation sous le sceptre Ottoman, un bienfait pour les pauvres allemands qu'on laissait vendre et immoler jusqu'à présent dans l'autre hemisphère et un débouché de commerce pour les produits de l'industrie des pays originaires. Cependant une forte population étant la plus grande richesse

□ وثيقة تتعلق بالمستعمرة المزمع انشاؤها في تركيا من قبل بروسيا وانكلترا.

الانكليز كتب إلى زوجته يقول «**هذه هي إذن... البداية التي حققت لاعادة تأسيس اسرائيل**»[٤٦].

لم يكن فريدريش فلهلم الرابع في الواقع في البداية قد وصل في أهدافه من وراء المطرانية إلى الحد الذي قطعه بونسن. ففي رسالة له إلى بونسن مؤرخة ٢٦ آب (١٨٤١) قال فريدريش فلهلم الرابع إلى بونسن بأن مشاريعه (أي مشاريع بونسن) «**لاعادة توطين الشعب اليهودي**» في فلسطين تلتقي في الواقع مع أمنياته «**التي تختلج في أعماقه**». إلا أنه لم يفكر بموضوعية في هذه المسألة، سوى أن تصبح المطرانية «**عن طريق الصبر والتواضع مركزا لليهود المتنصرين**»[٤٧].

ولكن بونسن سرعان ما وضح للملك بأن مشاريعه لاعادة توطين اليهود ما هي إلا إلهاما استمده منه.

«**أنت يا صاحب الجلالة انرت بفنك كل ما كان مظلما أمامي... وأصبحت أرى الآن كيف وضعت الأفكار وحيكت لتكون اساسا وهدفا في الخطة لأجل اسرائيل**»[٤٨].

كان بونسن مقتنعا أن كثيرا من اليهود المتنصرين في المانيا وكذلك بروتستانت المان يطوقون للاستيطان في فلسطين[٤٩]، بعد أن تقوم بروسيا بمساعدة بريطانية بشراء الأراضي لاستيطان اليهود عليها وأن تكون المستوطنات اليهودية زراعية[٥٠]. ولم يغفل عن بال بونسن ان الاستيطان اليهودي الالماني في فلسطين سيؤدي إلى ازدهار التجارة الالمانية مع سوريا وفلسطين[٥١]. وبالفعل فخلال محادثات بونسن في لندن بعث بالمرستون إلى السفير البريطاني في استانبول يطلب إليه أن يتعاون مع المبعوث البروسي هناك لأجل الحصول على إذن من الباب العالي لاستيطان أوروبي بروتستانتي في أراضي الدولة العثمانية وكذلك شراء الأراضي وحماية المستوطنين الأوروبيين[٥٢].

وبعد مرور شهرين على ذلك، كلفت الحكومة البروسية في خريف (١٨٤١) الوزير البروسي في استانبول، كونغسمارك (Koenigsmarck) دراسة إمكانية الاستعمار في ممتلكات الدولة العثمانية. وفي تقرير له مؤرخ ٦ تشرين الأول (١٨٤١) اقترح كونغسمارك إنشاء منظمة تأخذ على عاتقها مهمة تسفير الراغبين في الاستيطان في الدولة العثمانية وتوطينهم في مستعمرات. ومع ان كونغسمارك لم يذكر «فلسطين» صراحة كمركز للاستيطان، إلا أن المرء يمكن أن يفهم أن فلسطين كانت أيضا نقطة السياسة الاستعمارية. ورأى كونغسمارك أن يكون للمستعمرين «الاشراف الكامل على مستوطناتهم». كما حذر الحكومة البروسية بأنه لن يكون في مصلحتها أو في مصلحة المانيا استثمار أموال كثيرة في المشروع، حيث أن الصناعة الالمانية الناشئة لا تزال بحاجة إلى الرأسمال الالماني للبقاء داخل البلاد، بل من الأفضل تشجيع الفقراء الالمان واليهود للاستيطان في الدولة العثمانية. وان ذلك يحقق ٣ أهداف: نشر الحضارة في منطقة استيطان الالمان، مما يدعم الدولة العثمانية — توطين الفقراء الالمان — ازدهار التجارة والمنتجات الصناعية البروسية[٥٣].

كان فريدريش فلهلم الرابع على استعداد لدعم هجرة اليهود إلى فلسطين «بالشكل المناسب» فقط «عندما يتم التحقق منهم (اليهود) من قبل السلطات وتثبت جدارتهم، وبشكل خاص، ان يثبت مسبقا إيمانهم بالعقيدة البروتستانتية طبقا لتعاليم إقرار أوغسبورغ[٥٤]. وبعد عودة اليهود المتنصرين إلى فلسطين كان ينبغي أن تقدم لهم الحماية البروسية القنصلية[٥٥]. وهكذا التقت أهداف تأسيس القنصلية البروسية في القدس (١٨٤٣) مع الأهداف التي تأسست لأجلها القنصلية البريطانية في القدس عام ١٨٣٨ وهو حماية اليهود الوافدين إلى فلسطين والمقيمين فيها. وتقرر أن تؤمن القنصلية البروسية لليهود «حقوقا توازي حقوق الرعايا البروسيين» المتواجدين في فلسطين[٥٦].

وإذا كان موضوع عودة اليهود إلى فلسطين بدعم بروسي مشروطا بتنصرهم المسبق، فإنه جدير بالذكر أن الساسة البروسيين لم يحاولوا أن يضعوا العقبات أمام عودة اليهود المتنصرين إلى فلسطين كيهود واحتفاظهم «بقوميتهم اليهودية». ويعلق هاينريش ابكن الذي أرخ لتأسيس المطرانية وكان مقربا من الملك وبونسن،



□ المطران مايكل سلومون الكسندر اول مطران بروتستانتي للقدس ١٨٤٢ ـ ١٨٤٦م.



□ المطران صموئيل غوبات، مطران القدس الانجليكاني ١٨٤٦ ـ ١٨٧٩م.

انه وجب إعادة اليهود إلى فلسطين «كأمة يهودية»(٥٧) وفي هذا المعنى تحدث بونسن عن مستقبل اليهود في فلسطين «كشعب» أو أمة(٥٨).

فشل مشروع تنصير اليهود وإعادتهم إلى فلسطين وحل المطرانية

رغم كل الجهود التي بذلت لاعادة اليهود المتنصرين إلى فلسطين أو تنصير اليهود المحليين، إلا أن أحدا من السياسيين الالمان جو البريطانيين لم يعر أوضاع اليهود أنفسهم أو الأوضاع في فلسطين اعتبارا جديا. فاليهود المقيمين في فلسطين كان ارتباطهم بفلسطين ارتباطا دينيا، ولذا فقد وقفوا من المبشرين الذين كانوا معظمهم من المرتدين اليهود موقفا معارضا لجهودهم التبشيرية اتسم بالاستياء من قيام ابناء جنسهم وديانتهم بمحاولات ردهم عن دينهم(٥٩).

ولهذه الأسباب لم تتمكن مطرانية القدس منذ تأسيسها وحتى وفاة المطران الكسندر من تنصير أكثر من أربعين يهوديا. وخلال مطرانية خليفته غوبات (Gobat) لم يتعد عدد اليهود المتنصرين أكثر من ٦ ـ ٧ أشخاص سنويا. ان الاعتقاد القائل بأن تنصر اليهود إلى البروتستانتية لم يكن بدوافع دينية، بل كان بفعل عوامل اقتصادية مادية، لا يمن استبعاده كليا، خاصة إذا علمنا أن معظم يهود فلسطين كانوا يعيشون في فقر شديد(٦٠). ولقد حاولت الزعامات اليهودية الأوروبية المتنفذة التي كانت تعارض تنصير أبناء جنسها أمثال مونتيفيوري، روتشيلد، كريميو إصلاح الأحوال المعيشية لهؤلاء اليهود عن طريق إنشاء مؤسسات خيرية ومدارس لهم وتعليم ابنائهم الصناعات المهنية لكي تكون لهم أسس اقتصادية تجعلهم «يقاومون» محاولات إغرائهم وتنصيرهم. لكن تقدما ملحوظا في هذا المجال لم يحدث مع ذلك قبل السبعينات من القرن الماضي، أي قبل تأسيس «الاليانس الاسرائيلي».

وتحت هذه الظروف كانت عودة اليهود الأوروبيين إلى «أرض الميعاد» أقل جاذبية. وكان الافتراض الخيالي الذي تبنته جمعية يهود لندن والسياسيين الالمان والانكليز بأن اليهودي الأوروبي سوف يقدم على التنصر ومن ثم يهاجر إلى فلسطين، متناسين أو متجاهلين أن تنصر اليهودي الأوروبي كانت الخطوة الأساسية

لتحطيم الحواجز الفاصلة بينه وبين المجتمع الأوروبي والاندماج فيه وبذلك تصبح العودة إلى فلسطين عديمة الجاذبية.

وفي عام ١٨٨٦ انسحبت المانيا الوريثة الشرعية لبروسيا في اتفاقية المطرانية من الشراكة مع بريطانيا. وأسباب ذلك عديدة أهمها: معارضة الحكومة الالمانية للفيتو الانكليزي على تعيين المطارنة من قبلها ـ مسألة تكريس الرهبان الالمان طبقا للبنود الـ ٣٩ للكنيسة الانكليكانية ـ الخلافات بين الرهبان الالمان والمطارنة رؤساء المطرانية ـ نمو الروح الاستقلالية لدى الجماعة الالمانية في القدس وتزايد عدد أفرادها ومؤسساتها عن تلك للانكليز، وأخيرا ازدياد الوعي القومي للالمان منذ الثمانينات من القرن الماضي، أي منذ بدأت المانيا تلعب دورها الامبريالي العالمي وتنافس بريطانيا وتتقرب إلى الدولة العثمانية مما أثر على العلاقات الالمانية البريطانية في مناطق كثيرة من العالم ومنها فلسطين التي لم تكن قد حسمت امبرياليا بعد.

ورغم الفشل والنجاح فقد كان لمطرانية القدس الفضل الأول في اعتراف الدولة العثمانية بالطائفة البروتستانتية مما كان له أفضل الأثر في تغلغل العمل التبشيري في الدولة العثمانية وخاصة العمل التبشيري البروتستانتي الالماني. أما بالنسبة لحركة الاستيطان اليهودية في فلسطين فقد فتح مشروع المطرانية أعين الرجالات اليهودية فيما بعد على أهمية الحصول

□ وثيقة «مشروع» تدويل القدس التي ارسلتها الحكومة الروسية لحكومة البروسية عام ١٨٤٠.

la conversion sociale et religieuse
de ce peuple d'antique et
coupable origine. —
Il serait superflu de
discuter ici tous ces projets,
on ne s'arrêtera qu'à l'examen
d'une autre combinaison
dont la réalisation serait
désirable, si elle était possible
Il s'agirait de l'assentiment
de la Porte et d'une entente
entre les principales cours
de l'Europe pour ériger
Jerusalem en une ville libre,
avec

avec un rayon de territoire
convenable et sous une
administration municipale
organisée sous les auspices
des Puissances qui se déclareraient
les protectrices et les garantes
de ce petit État ecclésiastique. —
Un pareil arrangement doit
assurément réunir beaucoup
de suffrages. Cependant, avant
d'aborder la question d'une
manière sérieuse, soit avec
les autres Cabinets, soit avec
le

على دعم أوروبي لمشاريعها الاستيطانية في فلسطين واستغلال التناقضات الامبريالية الأوروبية في سبيل ذلك وهذا مما سيؤدي فيما بعد إلى نشوء الحركة الصهيونية. ●

المراجع

(١) انظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٧، دراسة أوروبية حديثة مماثلة عن الارتباط بين التبشير والمصالح الاستعمارية للدول الأوروبية في القرن التاسع عشر.
Karl Hammer: Weltmission und Kolonialismus. Sendungsideen des 19. Jahrhunderts im Konflikt, Muenchen 1978.

(٢) Abdel-Raouf Sinno: Deutsche Interessen in Syrien und Palaestina, 1841-1898, Aktivitaeten religioeser Institutionen, wirtschaftliche und politische Einfluesse, Berlin 1982, p. 13ff.

(٣) Friedrich Nippold: Christian Carl Josias Freiherr von Bunsen. Aus seinen Briefen und nach eigener Erinnerung geschildert von seiner Witwe, Vol. II, Leipzing 1869, p. 200.

(٤) Arbeit und Aufgabe der evangelischen Kirchen in Jerusalem, Berlin 1895, p. 9.

(٥) عن حياة بونسن السياسية وعلاقته مع الدوائر الدينية والسياسية في المانيا وبريطانيا انظر:
Wilma Hoecker: «Der Gesandte Bunsen als Vermittler zwischen Deutschland und England», in: Goettinger Bausteine zur Geschichts-wissenschaft 1 (1951), p. 79ff.

(٦) انظر على سبيل المثال: رسالة فريدريش فلهلم الرابع عندما كان وليا للعهد إلى بونسن، ٢٥ آذار، (١٨٤٠)، في:
Leopold von Ranke: Aus dem Briefwechsel Friedrich Wilhelms IV. mit Bunsen, Leipzig 1873, p. 59f.; Religion in Geschichte und Gegenwart, Vol. V, 3. ed., p. 563; R.W. Greaves: «The Jerusalem Bishopric, 1841», in: English Historical Review, 64 (July 1949).

(٧) Nippold, op. cit., p. 200

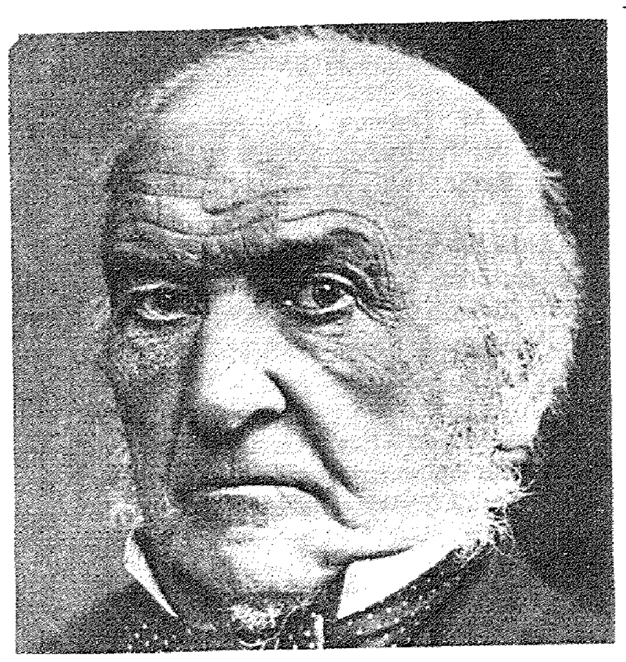
(٨) Ibid, pp. 200-201

(٩) J. Hajjar: L'Europe et les destinées du Proche-Orient (1815-1848), Paris 1970, p. 352ff.

(١٠) F.O. 64/235, Buelow to Palmerston, 6. March 1841.
المقصود هنا ضريبة الجزية.

(١١) Nippold, op. cit., p. 201.

(١٢) F.O. 64/235, Buelow to Palmerston, 6. March 1841.



□ غلادستن

Le projet d'ériger une Souveraineté
Chrétienne en Palestine, a été
mis, [illegible] sérieusement
discuté. D'autres ont pensé
à la possibilité de faire
revivre l'ancien ordre des
Chevaliers du St Sépulcre pour
lui confier la garde de ce
sanctuaire. Il y a eu même
quelques individus qui ont
exprimé le voeu d'appeler
dans la ville de Salomon
les Juifs dispersés dans
différents pays pour toute la
la.

(١٣) حــول مــواقف الدول الأوروبيــة من المشــروع البروسي، انظر:

The Cambridge Modern History, Vol. XI: The Growth of Nationalities, Cambridge 1909, p. 311; Heinrich von Treitschke: Deutsche Geschichte im neunzehnten Jahrhundert, Vol. V, Leipzig 1894, p. 121; «Das anglikanisch-evangelische Bisthum im Jerusalem», in: Beilage zur Allgemeinen Zeitung, Muenchen, No. 38, 15 Feb. 1899, p. 1; Nippold, op. cit., p. 201.

(١٤) Nippold, op. cit., p. 201

(١٥) Greaves, op. cit., p. 333; Isaiah Friedman: «Lord Palmerston and the Protection of the Jews in Palestine 1839-1851», in: Jewish Social Studies, 30 (1968), p. 23.

(١٦) F.O. 78/390, Palmerston to Pomsonby, No. 134, 11 Aug. 1840, and F.O. 195/185, Ponsonby to Palmerston, No. 19, 21 Jan. 1841, in: Hyamson: the British Consulate in Jerusalem in relation to the Jews of Palestine (1838-1914), Vol. I, London 1939, p. 33ff.

(١٧) نقلا عن:

Heinrich Abeken: Das evangelische Bisthum in Jerusalem. Geschichtliche Darlegung mit Urkunden, Berlin 1842, p. 33.

(١٨) F.O. 64/235, Bunsen to Palmerston, 15 July 1841.

(١٩) تم الاتفاق النهائي بشأن تأسيس المطرانية في بداية كانون أول ١٨٤١. انـظر الاعلان الرسمي عن المطرانية بتاريخ ٩ كانون أول ١٨٤١ في:

W.H. Hechler: The Jerusalem Bishopric, London 1883, documents-part, p. 107.

(٢٠) حول أوضاع اليهود في ألمانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر انظر:

Ernest Hamburger: Die Juden im oeffentlichen Leben Deutschlands 1848-1918, Tuebingen 1968, p. 6ff.; Hans Liebeschuetz and Arnold Paucker (ed.): Das Judentum in der Deutschen Umwelt 1800-1850. Studien zur Fruehgeschichte der Emanzipation, Tuebingen 1977.

(٢١) Erwin Roth: Preussens Gloria im Heiligen Land. Die Deutschen und Jerusalem, Muenchen 1973, p. 61.

فـريدريش يـان كان أحـد مؤسسي «الحـركة التورنية» في ألمانيا في بداية القرن التاسع عشر. ومن أهـدافها القضـاء عـلى التجـزء السيـاسي والاقليمي ومحاربة الفرنسيين والغرباء.

(٢٢) Joh. Gottlieb Fichte: Beitrag zur Berichtigung der Urteile des Publikums ueber die franzoesische Revolution. Erster Teil: Zur Beurteilung ihrer Rechtmaessigkeit, von Gentz, ed. Richard Schottky, Hamburg 1973, pp. 114-115.

(٢٣) Egmont Zechlin: Die deutsche Politik und die Juden im Ersten Weltkrieg, Goettingen 1969, p. 23.

(٢٤) Simon M. Dubnow: Die neueste Geschichte des Juedischen Volkes (1789-1914), Vol. I, Berlin 1920, pp. 21-22; Jacob Lestschinsky: Das wirtschaftliche Schicksal des deutschen Judentums. Aufstieg-Wandlung-Krise-Ausblick, Berlin 1936, pp. 16-29.

(٢٥) Kurt Zielenziger: Die Juden in der deutschen Wirtschaft, Berlin 1930, pp. 58-59, 64-192.

(٢٦) Ibid, pp. 23-25

(٢٧) Gustav Mayer: «Early German Socialism and Jewish Emanciapation», in: Jewish Social Studies, 1 (1939), p. 419;

وانـظر أيضا: حسـان حلاق، مـوقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية. بيروت ١٩٧٥، ص ٣٠ ــ ٣١.

(٢٨) Zechlin, op. cit., p. 23

(٢٩) Lestschinsky, op. cit., p. 42; Hamburger, op. cit., p. 7.

(٣٠) Jacob Toury: «Der Eintritt der Juden ins deutsche Buergertum», in: Liebeschuetz und Paucker (ed.), op. cit., pp. 139-242.

(٣١) Ibid, p. 227

(٣٢) Zechlin, op. cit., p. 22

(٣٣) انظر على سبيل المثال الشروط التي وضعت على يهود بوزن (بوزنان) لقاء منحهم المواطنة البروسية في:

Stefi Wenzel: Juedische Buerger und Kommunale Selbstverwaltung in preussischen Staedten, Berlin 1967, p.163.

(٣٤) Isaak Markus Jost: Neuere Geschichte der Israeliten von 1815 bis 1845, Berlin 1846, p. 292.

(٣٥) Hajjar, op. cit., p. 8

(٣٦) Jost, op. cit., p. 312

(٣٧) Friedman, op. cit., p. 29; F.O. 195/165, Palmerston to Ponsonby, No. 251, 25 Nov. 1840, in: Hyamson, op. cit., Vol. II (1941), pp. LXVII-LXXIII.

(٣٨) حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين في القرن الماضي، انظر وليم فهمي: الهجرة الصهيونية إلى فلسطين المحتلة. القاهرة ١٩٧١، ص ١٦ وما بعدها. انظر أيضا:

Tolkowsky: The Gateway of Palestine. A History of Jaffa, London 1924, p. 160; Hyamson, op. cit., Vol. I, pp. 4-6; Friedman, op. cit., LXVIII-LXXI.

(٣٩) Friedman, op. cit., pp. 33-34

(٤٠) Ibid, pp. 23-41

وكتاب هيامسون، الجزئين الأول والثاني.

(٤١) Nippold, op. cit., Vol. II, pp. 1-3

(٤٢) نقلا عن:

Kurt Schmidt-Clausen: Vorweggenom-

mene Einheit: Die Gruendung des Bistums Jerusalem im Jahre 1841, Berlin-Hamburg 1965, p. 89.

(٤٣) انظر رسالة بونسن إلى اشلي المؤرخة ٣ آب ١٨٤١ في:
Nippold, op. cit., Vol. II, p. 151.

(٤٤) Ibid, pp. 120-121

(٤٥) Ibid, p. 151

(٤٦) In Nippold, Vol. II, p. 171

تاريخ الرسالة هو ١٩ تموز ١٨٤١ — اصبح بونسن فيما بعد (Vizepatron) لجمعية يهود لندن بسبب مواقفه المؤيدة لعودة اليهود إلى فلسطين. انظر:

A.L. Tibawi: British Interests in Palestine 1800-1901. A Study of Religious and Educational Enterprise, London 1961, p. 96.

(٤٧) نقلا عن: Ranke, op. cit., pp. 94-95.

(٤٨) Ibid, p. 95

(٤٩) Mordechai Eliav: «German Interests and the Jewish Community in Nineteenth-Century Palestine», in: Studies on Palestine during the Ottoman Period, ed. of Moshe Ma'oz, Jerusalem 1975, pp. 426-427.

(٥٠) انظر مذكرات بونسن بتاريخ ٢٩ نيسان ١٨٤١ في:
Nippold, op. cit., Vo. II, pp. 199-200.

وايضا:

«Das anglikanisch-evangelische Bisthum, op. cit., p. 3.

(٥١) Abeken, op. cit., pp. 4-8

(٥٢) F.O. 78/429, Palmerston to Ponsonby, No. 187, 26 July 1841.

(٥٣) تقرير كونغسمارك موجود في مذكرة بونسن إلى ابردين، وزير خارجية بريطانية بعد بالمرستون في:
F.O. 64/241, Bunsen to Aberdeen, No. 53, 17 Jan. 1842.

(٥٤) Hechler, op. cit., documentspart, p. 125

(٥٥) Walter Holsten: «Israel und Palaestina im Missionsdenken des 19. Jahrhunderts», im: Evangelische Theologie, Muenchen, 14 (1954), p. 214.

(٥٦) انظر رسالة قنصل عام بروسيا لسوريا وفلسطين إلى القنصل البروسي في القدس بتاريخ ١٣ حزيران ١٨٤٣ في:

Mordechai Eliav: Die Juden Palaestinas in der deutschen Politik, 1842-1914, Tel-Aviv 1973, p. XVI.

(٥٧) Heinrich Abeken: Ein schlichtes Leben in bewegter Zeit, aus Briefen zusammengestellt,3 ed., Berlin 1904, pp. 122-123.

(٥٨) Nippold, op. cit., Vol. II, pp. 13-14

(٥٩) Bernhard Neumann: Die Heilige Stadt und deren Bewohner in ihren naturhistorischen, culturgeschichtlichen, socialen und medicinischen Verhaeltnissen, Hamburg 1877, pp. 284-186.

(٦٠) Ibid, pp. 376-378



● كل عمل ضد الاستعمار عمل عربي. وكل عمل من أجل الحرية عمل عربي.

(جمال عبد الناصر)

● ان اسرائيل بموقفها الحالي.. تعمل على نهايتها، إن لم يكن في القريب.. فهو قطعاً في المستقبل..

(جورج براون)

● إننا نطالب الأمم المتحدة بالتدخل لوقف الأعمال غير الأخلاقية التي تجري في القدس المقدسة بعلم وبموافقة السلطات الاسرائيلية.. ومنها انتشار المواخير وعلب الليل وأماكن المقامرة والأعمال المنافية للأخلاق.

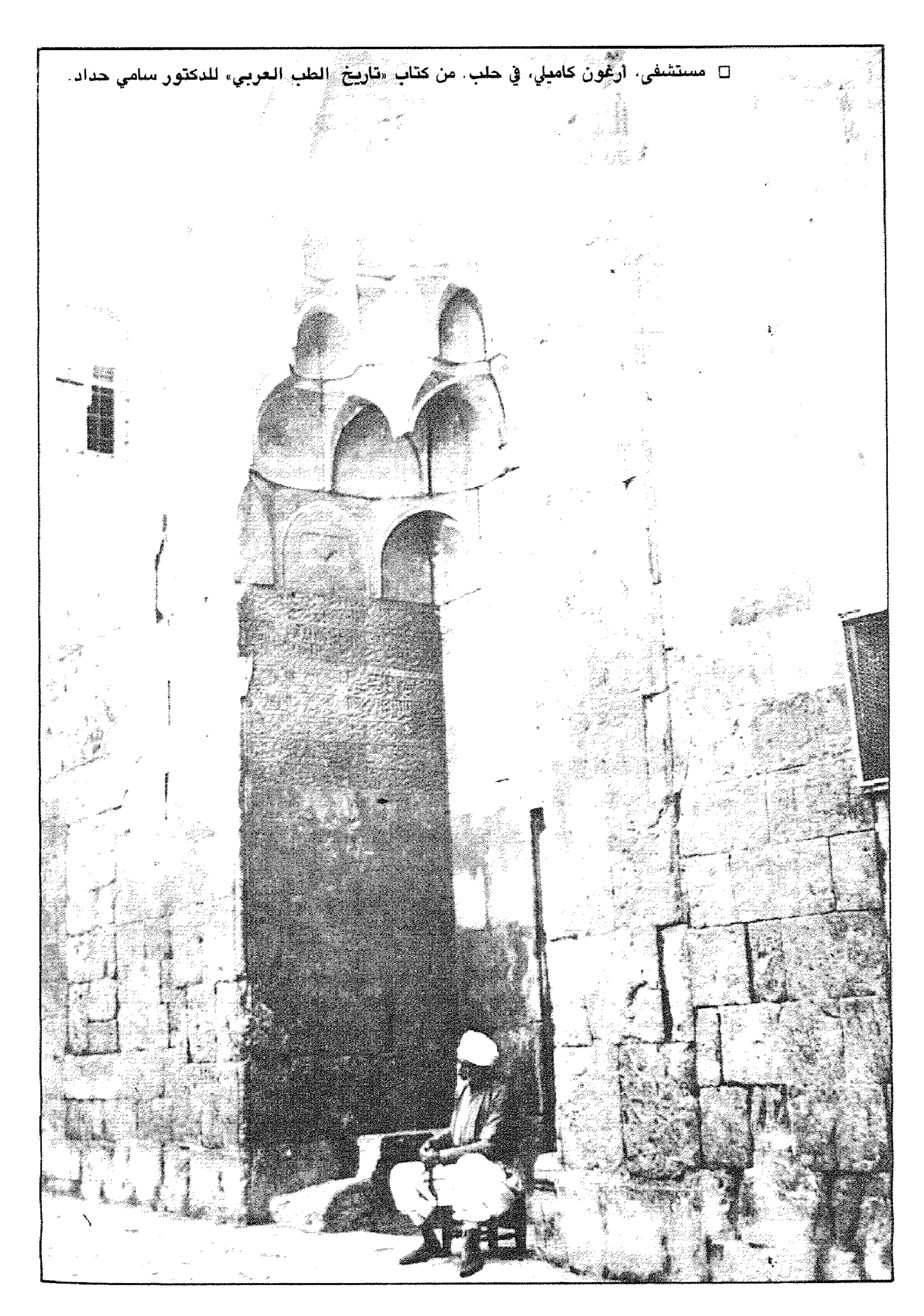
(من رسالة لمجلس الكنائس العالمي)

● أن على الولايات المتحدة التزاماً أدبياً وقانونياً نحو اسرائيل.. وهو التزام يجب أن يبقى مهما كانت الظروف.

(روبرت كيندي)

● إنني أؤيد انشاء وطن قومي لليهود.. ولكن ألم تكن هناك طريقة أفضل لتحقيق ذلك؟

(ليستر بيرسون)



□ مستشفى، أرغون كاميلي، في حلب. من كتاب «تاريخ الطب العربي» للدكتور سامي حداد.

البيمارستانات

في التاريخ العربي ونظام العمل فيها

د. مؤنس محمود غانم

يعتبر العرب أول الشعوب التي أسست المشافي (البيمارستانات) في تاريخ البشرية، ولم يكن عند العرب في أيام الجاهلية أية مستشفيات إلا أنه في السنة الخامسة للهجرة (٦٢٧م) عندما حدثت معركة الخندق أقام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم خيمة في مسجد المدينة لرفيدة الأسلمية، ولما جرح سعد بن معاذ، رضي الله عنه، أرسله إليها وقال لأصحابه صلوات الله عليه:

[اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب].



أما أول مستشفى في الاسلام فقد بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك(١) سنة ٨٨ للهجرة (٧٠٦م) وجعل فيه الأطباء ثم أمر بحبس المجذومين حتى لا يختلطوا بالناس.

وفي أيام الخلافة العباسية كثرت المستشفيات في بغداد وفي الأمصار، وقد بنى هارون الرشيد مشفى سنة ١٩٣ للهجرة (٨٠٩م)، والمعتضد سنة ٢٧٩ للهجرة، والمقتدر سنة ٣٠٦ للهجرة، ومعز الدولة بن بويه سنة ٣٥٥ للهجرة وأخوه عضد الدولة سنة ٣٧٢ للهجرة.

ونالت مصر في بناء المشافي عناية كبيرة: فقد بنى الأمويون مستشفى في الفسطاط. ثم بنى الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل العباسي مشفى، ثم بنى أحمد بن طولون فيها المستشفى الأعلى، وكافور الأخشيدي بنى المستشفى الأسفل سنة ٣٤٦ للهجرة.

وعندما استولى الفاطميون على مصر من الأخشيديين وبنوا القاهرة والجامع الأزهر بنوا قربه بيمارستان القشاشين. ثم لما قامت الدولة الأيوبية الفاطمية بنى صلاح الدين المستشفى الناصري في القاهرة وبيمارستان الاسكندرية. وبعدها جاءت دولة المماليك في غمرة الحروب الصليبيــة، فبنى السلطان قلاوون المنصــور البيمارستان الكبير المنصوري (مارستان قلاوون أو دار الشفاء) سنة ١٢٩٠ للميلاد فكان أعظم المستشفيات وأوسعها وأنشطها.

وكثرت المستشفيات في سورية وفلسطين في أيام الأيوبيين والمماليك من انطاكية شمالا إلى غزة جنوبا وذلك استجابة للحاجة الملحة التي أوجدتها الحروب الصليبية، وكان أشهرها البيمارستان الكبير النوري في دمشق الذي بناه نور الدين محمود سنة ١١٧٣م (٥٦٩ للهجرة).

أما المغرب العربي فقد كان أحد ضواحي قرطبة في الأندلس يدعى ربض المرضى (الربض هو الضاحية) ولكن لم يرد ذكر صريح للمستشفيات في الأندلس وفي المغرب كله قبل القرن السابع للهجرة.

أنواع البيمارستانات

أولا ـ مشافي الجذام: أول من بنى مستشفى لمعالجة المجذومين كان الوليد بن عبد الملك الأموي(٢). أما في أوروبا فلم تبن مستشفيات للجذام قبل القرن الثاني عشر، وقد نقلها الصليبيون عن سوريا ومع ذلك ففي عام ١٣١٣ أمر الملك فيليب بحرق جميع المجذومين في فرنسة.

ثانيا ـ مستشفيات المجانين: بدىء بإقامة مشافي خاصة للبلهاء والمجانين منذ القرن الأول الهجري وكان لهؤلاء أيضا محل خاص بمعالجتهم في المستشفيات العامة حيث أفردت لهم غرف خاصة ذات نوافذ مشبكة بقضبان الحديد. وفي هذا الوقت كان المجانين في أوروبا يقيدون بسلاسل الحديد، والعلاج الوحيد لهم عندما ترتفع أصواتهم بالصراخ هو الضرب.

ثالثا ـ المستشفيات النقالة: وكان يدعى أيضا (البيمارستان المحمول) وهو ذاك الذي يجهز بالأدوية والأغذية ويرسل إلى المناطق النائية أو عند حدوث الأوبئة. ويقول الدكتور أحمد عيسى في كتابه «تاريخ البيمارستانات في الاسلام»: [والراجح أن العرب هم أول من أنشأ البيمارستان المحمول وهو مستشفى مجهز بجميع ما يلزم المرضى من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين. ينقل من بلد إلى آخر من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة، أو التي يظهر فيها وباء أو مرض معد]. وأول من أسس البيمارستان المحمول هو الوزير علي بن عيسى بن الجراح في أيام الخليفة المقتدر سنة ٣٣٥ للهجرة وذلك بإشارة من سنان بن ثابت بن قرة، وقد كتب هذا الوزير إلى سنان ما يلي: [فكرت في من في السواد من أهله فإنه لا يخلو أن يكون فيه مرضى لا يشرف عليهم متطبب لخلو السواد من الأطباء، فتقدم مد الله في عمرك بإنفاذ متطببين وخزانة للأدوية والأشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إليه ويعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون إلى غيره](٣).

رابعا ـ مأوي للعميان والأيتام والنساء العاجزات: وقد بناها المأمون الخليفة العباسي في المدن الكبيرة(٤).

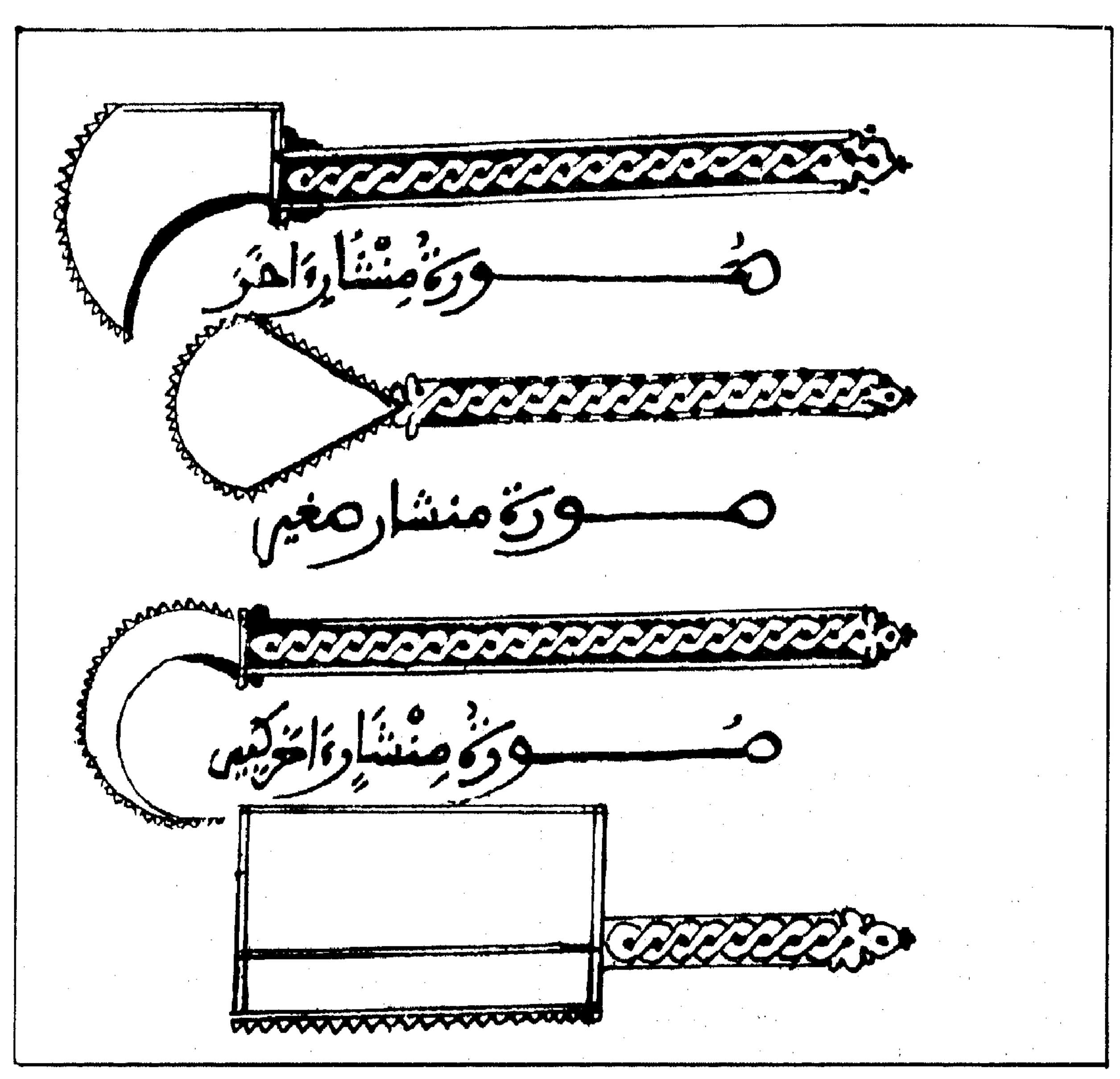
خامسا ـ المرضى في السجون: كتب الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد ما يأتي [فكرت مد الله في عمرك في أمر من الحبوس وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم وتحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى](٥).

سادسا ـ محطات الاسعاف: وكانت تقام بالقرب من الجوامع حيث تزدحم الجماهير للصلاة، وهناك يقوم الأطباء والصيادلة بعلاج المصابين بالحوادث والأمراض(٦).

سابعا ـ مستشفيات الجيش: كان للجيش أطباء مخصوصون ما عدا أطباء الخليفة والقواد والأمراء(٧) وكانت هذه المستشفيات متحركة على ظهور الجمال والبغال، وكانت النساء تقوم بتمريض الجرحى من الجنود حتى يشفوا. وفي ذلك الوقت كانت خدمة الجرحى في جيوش أوروبا تقع على عاتق زملائهم أو تسند إلى المومسات اللاحقات بالجيش.

ثامنا ـ المستشفيات العمومية: تبنى في المدن الكبيرة من السلطنة الاسلامية كبغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة وبعض المدن في المغرب والأندلس(٨) وسوف نتوسع في بحث المستشفيات العمومية لأنها جديرة في البحث ولتبيان فضل العرب في إنشاء تلك المجمعات الصحية الرفيعة المستوى.

إن اختيار موقع المستشفى كان يلقى العناية الفائقة ولم يكن اعتباطيا وإنما بعد الدرس والبحث. وقد جاء في كتاب طبقات الأطباء:



□ ادوات العمليات الجراحية في إحدى رسائل الزهراوي، القرن السادس عشر، المكتبة الوطنية ـ باريس.

إن عضد الدولة استشار الرازي ليختار له مكانا لبناء البيمارستان العضدي، فطلب الرازي أن يعلق في كل ناحية في جانبي بغداد شقة لحم، واعتبر الناحية التي لم يتغير فيها اللحم فأشار بإقامة المستشفى عليها(٩).

نظام البيمارستان

كانت البيمارستانات تسير على نظام تام وعلى أصول مرعية لا تقل عن النظام الحديث والأصول الحديثة وإن كانت هذه تفوقها في الآلات والأدوات والأساليب التي تسود المستشفيات في هذا العصر مما يتناسب وتقدم الطب.

يفحص المرضى قبل دخولهم المستشفى في القاعة الخارجية (العيادة الخارجية) فمن خفت علته أسعف وكتب له العلاج وصرف له من صيدلية المستشفى، أما الباقون فكانوا بعد أن تقيد أسماؤهم في سجل المرضى يدخلون الحمام ويغتسلون ثم يلبسون ثيابا مطهرة نظيفة، أما ثيابهم التي جاؤوا بها فتحفظ في المخزن حتى خروجهم. ويقبل في المستشفى كل الناس المرضى الغني والفقير على السواء، بغض النظر عن الدين أو اللون أو الجنسية، ومهما بلغت مرحلة المرض وهذا الأمر قد نستغرب منه في عصرنا الحديث عصر المساواة. ونذكر فقرات من وقفية المستشفى المنصوري الذي بناه منصور بن

قلاوون سنة ١٢٩٠: [وتقيم المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويفرق على القوي والضعيف والغني والفقير والمأمور والأمير والمترف من غير اشتراط تعويض من الأعواض بل لمحض فضل الله الكريم][١٠].

يدير البيمارستان غالبا أحد الأمراء أو الأشراف أو عظماء الدولة[١١]، ويكون المدير على جانب عظيم من الكفاءة والثقافة، وهو يتولى الاشراف على مخازن الملبوسات والمهمات والمأكولات والأدوية.

وكان الاهتمام بمراقبة الأرزاق والجرايات وتوزيعها قائما، والمتعهد الغشاش يتم عقابه بشدة كما فعل الوزير عيسى بن علي بن الجراح مع مدير أرزاق البيمارستان العضدي بناء على شكوى الساعور (العميد) سنان بن ثابت الطبيب المعروف: [... عرفني أكرمك الله ما لمسته في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة البيمارستان خاصة مع الشتاء واشتداد البرد فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعمل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى بالدثار والكسوة والفحم؛ وأعن بأمر المستشفى أفضل عناية]. أما تغذية المرضى والعناية بطعامهم فحدث عنه ولا حرج، والحقيقة أنه لا يسع المرء اليوم إلا أن يعجب لشدة حرص السلطات في ذلك الزمن على الاهتمام بتغذية المرضى، إذ كانت علامة الشفاء عند الأطباء هي أن يأكل المريض رغيفا ودجاجة كاملين في كل وجبة، وكان المرضى قبل خروجهم من البيمارستان يعطون بذلة ثياب ومبلغا من المال، لهذا تكثر حالات (التمارض)، ومن ذلك أن شابا أعجميا تظاهر بالمرض، ولكن أمره لم يخف على الطبيب الفاحص فأدخله المستشفى رغم ذلك وأبقاه ثلاثة أيام وبعدها جاء إليه وقال ممازحا (إن مدة الضيافة العربية قد انتهت).

وصف البيمارستان

كانت المستشفيات (البيمارستانات) تنقسم إلى قسمين، قسم للرجال وقسم للنساء، وكل قسم يحتوي على غرف وقاعات منها ما هو للعيون والجراحة والكسور والتجبير، وبنفس الوقت كان قسم الأمراض الداخلية ينقسم إلى غرف منها للحميات ومنها لحوادث الاسهال ومنها للأمراض العقلية، ولم تخل المستشفيات من أقسام خاصة للناقهين، والمياه جارية في أغلب الأقسام. وكانت مؤثثة بأحسن الأثاث وقد قيل أن المستشفى المنصوري كان يماثل أثاث قصر الخليفة وقصور الأمراء. وننقل هنا ما قاله ابن جبير[١٢] الرحالة الشهير في وصف المستشفى الذي بناه صلاح الدين في القاهرة:

ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا. أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا وعين قيما من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق لهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المريضات، ولهن أيضا من يكفلهن.

ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين، ولهم أيضا من يتفقد كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها.

والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء والمثابرة عليها غاية التأكيد.

ويلحق بكل بيمارستان أطباء وجراحون وأطباء عيون وكذلك مجبرون وطلبة يتعلمون مهنة الطب، وكان المرضى يرقدون في أسرة مزودة بأغطية، وكان الطبيب يزور المرضى كل يوم، والمناوبة واجبة على الأطباء كبيرهم وصغيرهم ورفيعهم ووضيعهم، وقد تمتد إلى ثمان وأربعين ساعة. وتجري المشاورات بين الأطباء فيما يختص بالمرض وذلك كلما دعت الحاجة، وكان أكبر الأطباء سنا يتقدم غيره في الكلام.

ويحكي ابن المطران وهو طبيب صلاح الدين المشهور وعميد أطباء دمشق والمستشفى النوري أنه رأى أثناء زيارته للمرضى رجلا به استسقاء زرقي قد استحكم به فقصد إلى بزله وكان في ذلك الوقت في البيمارستان ابن حمدان الجرائحي

وله يد طولى في العلاج فعزموا على بزل المستسقي. قال فحضرنا وبزل الموضع على ما يجب فجرت مائية صفراء وابن المطران يتفقد نبض المريض فلما رأى أن قوته لا تفي بإخراج أكثر من ذلك أمر بشد الموضع وأن يستلقي المريض ولا يغير الرباط أصلا.

ووجد المريض خفة وراحة كبيرة. وكانت عنده زوجته فأوصاها ابن المطران أن لا تمكنه من حل الرباط ولا تغيره بوجه من الوجوه إلى أن يبصره ثاني نوم. فلما انصرفنا وجاء الليل قال لها زوجها: إنني قد وجدت العافية وما بقي بي شيء وإنما الأطباء قصدهم أن يطولوا بي فخلي الرباط حتى يخرج هذا الماء الذي قد بقي وأقوم في شغلي، فأنكرت عليه قوله ولم تقبل منه. فعاودها بالقول وكرر ذلك عليها مرات ولم يعلم أن بقية المائية إنما جعلوا إخراجها في وقت آخر مراعاة لحفظ قوته وشفقة عليه. فلما حلت الرباط وجرت المائية بأسرها خارت قوته وهلك.

والواقع أن العرب أيضا هم أول من بدأ بالتدريس الطبي في المستشفيات بطريقة علمية(١٤)، وأول من اقام العيادات الخارجية، وأول من اهتم بإدارة المستشفيات وضبط حساباتها، وأول من أوجب فحص الأطباء قبل الترخيص لهم بمعاطاة الطب، كما كانوا أول من ألحق بالمستشفيات الصيدليات القانونية وأكثر من ذلك فإنهم أوجبوا على الأخصائيين أن يقدموا امتحانا خاصا ويحصلوا على ترخيص خاص بالفرع الذي تخصصوا به، الأمر الذي لم ندرك مكانه حتى يومنا هذا رغم تكرار الطلب والالحاح على ذلك(١٥).

وفي الخاتمة نقول أنه رغم هذه اللمحة المختصرة عن المستشفيات العربية (البيمارستانات) لا يمكننا ان نحكم على مقدار أثرها في مستشفيات العصر الحاضر، ولكن في نفس الوقت لا يمكن إلا أن نعجب بكثرة التشابه بينهما من جهة الادارة والفرش والعناية بالمرضى. لذلك فالمستشفيات العربية تعطينا دروسا مفيدة حتى أيامنا هذه. ●

المراجع

(١) تاريخ العلوم عند العرب، د. عمرفروخ. صفحة ٧٢ وما بعد.
(٢) المقريزي: الجزء الثاني، الصفحة ٤٠٥.
(٣) ابن ابي أصيبعة: الجزء الاول، صفحة ٢٢١.
(٤) ابن خلكان: الجزء الأول، صفحة ٤٩٣.
(٥) ابن ابي أصيبعة: الجزء الأول، صفحة ٢٢١.
(٦) المقريزي: الجزء الثاني، الصفحة ٢٤٠.
(٧) ابن أبي أصيبعة: الجزء الثاني، صفحة ٢٤٠.
(٨) تاريخ البيمارستانات في الاسلام، د. احمد عيسى بك. صفحة ١٠١.
(٩) تاريخ التمدن الاسلامي، الجزء الثالث من المجلد الثامن، صفحة ٢٠٢.
(١٠) إدارة المستشفيات في المجتمع الاسلامي، محاضرة على مدرج محمود سعدة في كلية الطب بدمشق، د. نشأت الحمارنة.
(١١) ابن ابي أصيبعة: الجزء الأول، صفحة ٢٢١.
(١٢) رحلة ابن جبير، الصفحة ٥١.
(١٣) ابن ابي أصيبعة: الجزء الثاني، صفحة ١٧٩.
(١٤) الصيدلة علم وفن وإنسانية، د. جورج وهبة العفي. صفحة ٧٤.
(١٥) مختارات من تاريخ الطب، د. نشأت الحمارنة. صفحة ٣٢٢.



جبران والناس

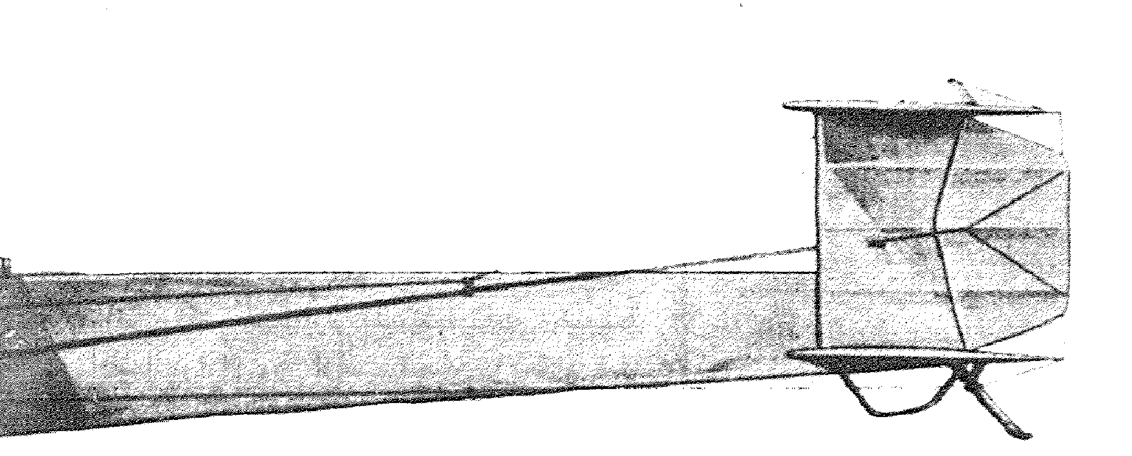
— أنت اثنان: واحد يتوهم انه يعرف نفسه، وواحد يتوهم أن الناس يعرفونه.
— إن شئت أن تنظر إلى سريرة امرىء، فلا تنظر إلى ما بلغه، بل إلى ما يتوق إليه
— اهتمامنا بعيوب الناس شر عيوبنا.
— ارغب الناس في الجدل: المحقوق. أما المحق فأرغبهم عنه.
— أحسن الناس من إذا مدحته خجل، وإذا هجوته سكت.

جبران خليل جبران

مُغامَرةُ عُبُورِ الأطلسي

رائدا الطيران: الكوك وَبراون

إعداد: سَعيد كريديّه



□ صورة جانبية لطائرة فيمي التي طارا فيها عبر المحيط.

الاستعدادات التقنية

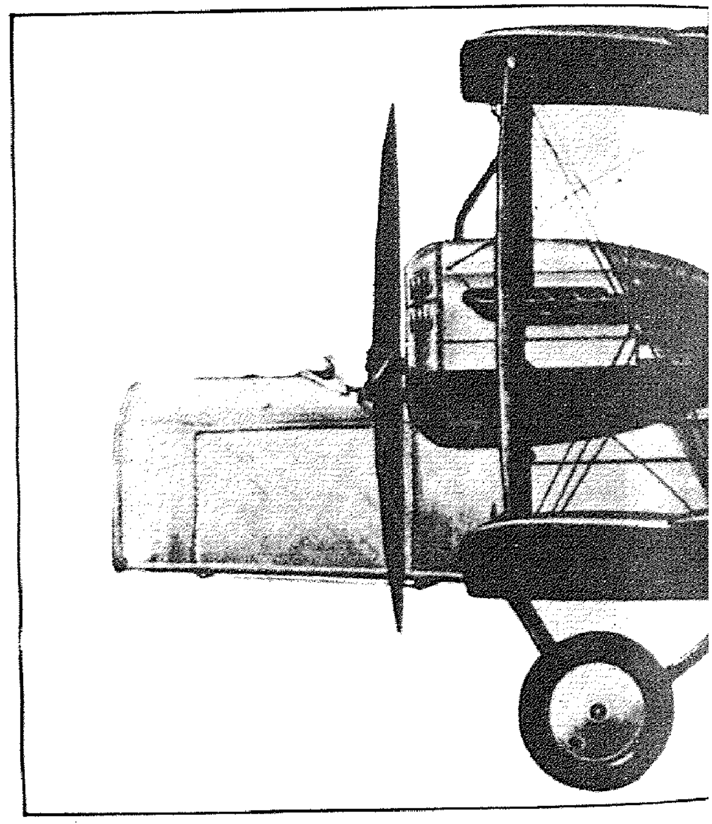


عندما يسأل معظم الناس من كان أول شخص طار فـوق الأطلسي يجيبون: «شارل لندبـرغ». لقد قـام لندبـرغ برحلته عام ١٩٢٧ بعد أن تقدم علم الطيران تقدما ملحوظا بالمقارنة بعام ١٩١٩. فقد كان لدى لندبرغ على سبيل المثال مجموعة كاملة من التجهيزات التي تسهل الطيران في السحب. بينما عندما عبر الكوك وبراون الأطلسي لم تكن فكرة الطيران بواسطة آلة قد راجت بعد.

استعمل الكوك وبراون طائرة تسمى فيمي وهي ذات سطحين وصنع معامل فيكر البريطانية. كانت فيمي مصممة بالأصل لتكون قاذفة قنابل، إلا أن الحـرب انتهت قبل أن تـدخل سمـاء المعركة. كان جناحا الطائرة مربوطين بدعامـة وسلك معدني انسيابي في ثـلاث جوانب مـع مجموعة أخرى من الدعامات تصل وسط الجناح الأعلى بجسم الطائرة. وكان للطائرة محـركان قدرة كل واحد منهما ٣٥٠ حصان ماركة رولس

□ سعيد كريديه: باحث في العلوم الاجتماعية.

أضحى عبور المحيط الأطلسي دون توقف خلال السنوات الثلاثين الأخيرة عملاً روتينياً. إلا ان الأمر لم يكن بهذه السهولة للطيارين الأوائل الذين عبروا المحيط، بل كان عملا فذا فيه جرأة ومهارة استحق عليهما تهليل العالم. كان هذا شأن الرائدين: جون الكوك وأرثر براون. فعلى أثر عبورهما المحيط في حزيران (١٩١٩) منحهما الملك جورج الخامس لقب «فارسين» وحصلا على جائزة مالية قدرها ١٠٠٠٠ جنيه استرليني من صحيفة الديلي ميل اللندنية. لكن عام ١٩١٩ كان عام أفول الحرب العالمية الأولى حيث كان العالم متخما بالأبطال. لذلك لم تذكر إنجازات واسمي هذين الطيارين إلا نادرا.



رويس، أخذا مكانهما بين جناحي فيمي على بعد عشرة أقدام من جانبي جسم الطائرة ليحركا أربع مراوح خشبية. كانت المحركات قوية وأنشط من التي استعملها لندبرغ بعد ثماني سنوات وكان للطائرة أربعة دواليب موزعة على مجموعتين تحتوي كل واحدة منهما على اثنين ركبا تحت الجناح الأسفل. وفي مؤخرتها ذيل ذو سطحين يشبه العلبة ويحتوي على زحافة ليصون الطائرة من الأذى عند الاقلاع أو الهبوط. كما احتوت الطائرة على زحافة في المقدمة للسبب نفسه. كان طول الجناح ٢٨ قدما والوزن الاجمالي ١٣٠٠٠ باوند أي نصف حجم (٣ ــ د. س. ــ DS-3).

وكانت الطائرة في شكلها الأصلي تتسع لأربعة ربان مع مدفعين في الأمام. لكن طائرة الكوك وبراون عدلت لتجعل ربان الطائرة والملاحين جنبا إلى جنب بدلا من أن يكونوا واحداً تلو الآخر. وقد زودت بخزان وقود إضافي ليؤمن لها الطوفان في حالة الهبوط الاضطراري على الماء.

جرب الكوك طائرته في انكلترا في نيسان كما أشرف مع بروان على تركيب قطعها وبعد عشر ساعات من الاختبار فككت الطائرة وشحنت في صناديق إلى (New Foundland) (نيوفاوندلاند) بكندا حيث أعيد تجميعها وجهزت للطيران ثم اختبرها الكوك وبراون مرتين وأعلناها صالحة للامتحان الكبير.

سيرة الرائدين

ولد جون الكوك، الربان، من تاجر أحصنة في مانشستر عام ١٨٩٢،وكان يتمتع بخبرة فائقة في الطيران بالنسبة لعصره. تعلم الطيران عام ١٩١٢ ومارس التحليق باستمرار منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى جانب السرب الملكي، وحتى عام ١٩١٧ حتى سقطت طائرته قرب استانبول، أثناء قصفه للمدينة، ووقوعه أسيراً بيد الأتراك. إلا أنه ظل في ذهن الناس الطيار الجريء المتيقظ المتفاخر والطائش.

أما ارثر براون زميله الذي كان أكثر حزماً وقلقا تجاه الصعاب فقد ولد في غلاسكو عام ١٨٨٦ من أبوين احتفظا بجنسيتهما الأميركية. نشأ ارثر في مانشستر وأصبح مهندسا لشركة وستنفهوس. خدم خلال الحرب مع الفيلق الملكي

للطيران كمراقب وطيار. كما أهل لمنصب ملاح بحري.

استغل براون التقنية الملاحية التي تعلمها في البحر معتمدا على التقدير دون استعمال الآلات الفلكية. وكان يستعمل خريطة مركيتر (Mercator) لتعيين المواقع على الخريطة مستعملا أقلاما ومساطر ولوائح معينة تستخدم في السفن بالاضافة إلى مقياس أبليارد (Appleyard). ولم يكن معينه إلا تأشيرات السماء التي تعطيها آلة سكستانت.

بدء الرحلة

عين براون خطوط مكانه بعد أن أخذ المناظر بواسطة آلة بيكر (Baker) البحرية التي أدخل القائد ت.ي. بيكر تعديلات عليها في تلك السنة.

وكانت هذه الآلة تحتوي على فيلم شفاف ممدود بين بكرتين ومحمول على قاعدة في أعلى خارطة الملاحة، كما اتفق مع زميله على أن يقوم هو بالعمل الحسابي والتخطيط ويتولى الكوك القيادة.

في ١٤ حزيران كان كل شيء جاهزا لاتمام الرحلة. وفي الساعة ١٢ و ٤٣ دقيقة أقلع الكوك من نيوفاوندلاند، وحضر الاقلاع ممثل رسمي من نادي الطيران الملكي في ميدان لستر.

كانت الطائرة مملوءة بالوقود وحلقت على ارتفاع منخفض بمعدل يقل عن ١٠٠٠ قدم لتبدأ برحلة طولها ١٦٤٥ ميلا بحريا.

لم تحظ رسالة الاقلاع التي أرسلت إلى انكلترا بنصيب وافر من الاهتمام والحماس. لكن توقف جهاز الراديو عن العمل بعد عبور ساحل

□ الكوك وبراون يتاهبان للقيام برحلتهما الملحمية غير المعلنة عبر الأطلسي.





□ ارثر براون.



□ جون الكوك.

نيوفاوندلاند أعطى لبراون الحرية للتركيز على الملاحة. اهتم الكوك بوجهة سير براون وحافظ على ارتفاع ثابت. وهذا الأمر كان عملاً صعباً آنذاك، بعدم توفر الجيروسكوب الموجه ولقلة التجهيزات اللازمة في الطائرة. في هذه الأثناء انشغل براون في آلة قياس الارتفاع.

وبعد ٢٠ دقيقة من عبور الساحل وكانت الساعة ١٢ و ٥٨ دقيقة ألقى براون نظرة الى الشمس ووجد أنهما كانا في المسار السليم.

صعوبات الرحلة

كانت أول صعوبة واجهت الرحلة هي ظهور الضباب وخاصة بالنسبة لطائرة مثل فيمي لا تحمل الجيروسكوب وحيث كان يتطلب على الربان تكثيف تركيزه على القيادة. لقد حاول الكوك تفادي الضباب بالتحليق فوقه إلا انه اصطدم بطبقة أخرى من الغيوم مما جعل براون يركز اكثر على تقديراته الشخصية لأن الغيوم منعت الوصول إلى إشارات سماوية.

انطلق البخار في الجانب الأيمن للمحرك على شكل ذيل ساطع من اللهب دون أن يمس الأجنحة أوجسم الطائرة. حاول الكوك التحليق فوق الغيوم كي يتسنى لبراون رؤية الشمس وبعد محاولات عدة وفاشلة تمكن الكوك من إنجاز هذه المهمة وفسح المجال لزميله لرؤية الشمس التي كانت تتطابق مع تقديراته.

خيم الظلام وانخفضت الحرارة مما أدى إلى انعدام الحرارة الكهربائية في أركان الطائرة. أصم أذنيهما صوت المحرك وضايقهما اللهب على الطائرة مما صعب على براون قراءة الملاحظات على المعدات.

بعد منتصف الليل سلم براون رسالة إلى الكوك قائلا:

«يجب أن أرى النجوم». ولتحقيق ذلك انتظر براون تحليق الطائرة في جو صافٍ ليعين مكان النجوم في تلك اللحظة أشار «العداد» داخل الطائرة إلى انهما قطعا ٨٥٠ ميلا بحريا في ١٠٤ عقدات، وانهما تجاوزا نقطة اللارجوع. بعد ذلك تناولا طعامهما وشربا القهوة. لقد انتهت أسوأ المجازفات على طريق الرحلة.

وعند الفجر هطل المطر ومعه الغيوم والرياح. حاول الكوك تجنب تلك الغيوم قدر المستطاع إلا انه لم يكن لديه اي أمل بالتحليق فوقها لأن طائرته لا تستطيع أن ترتفع فوق ٦٠٠٠ قدم. لكنه خاطر أخيرا واخترق الجدار الغيمي.

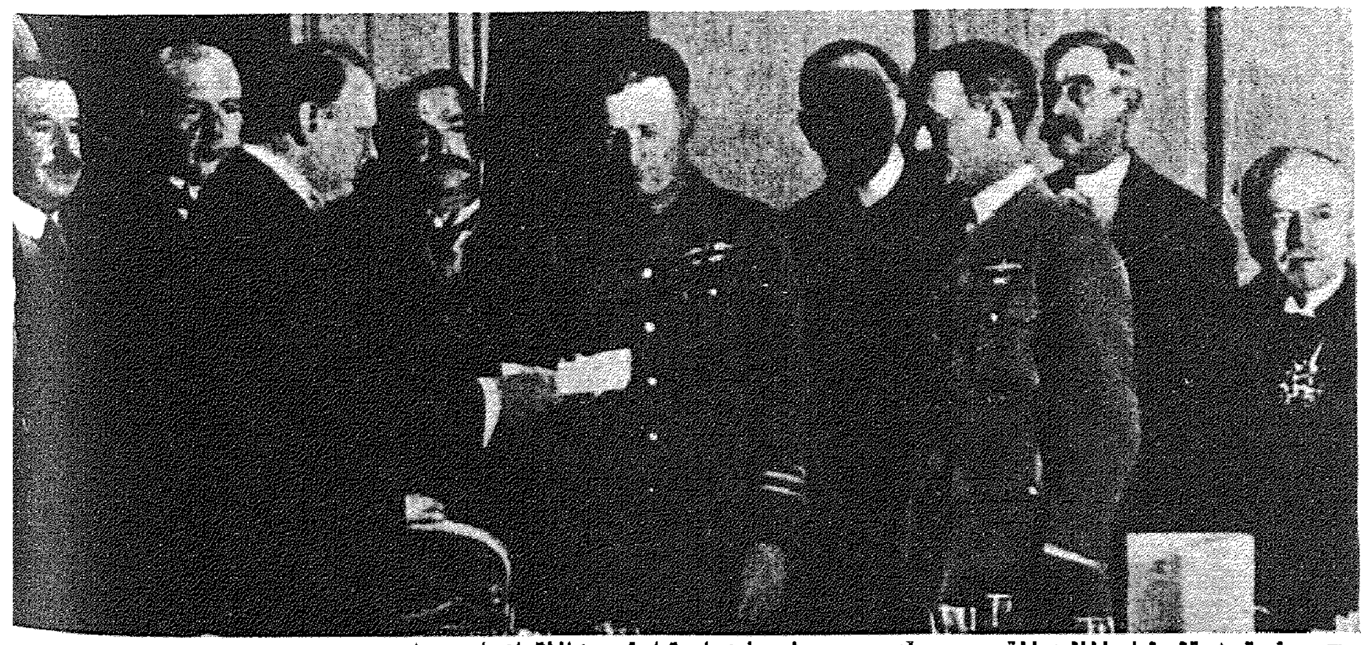
وفي هذا الخضم من الغيوم لاقى الكوك وبراون مصاعب عدة وخطيرة كالمطر والبرق وبالرغم من ذلك كافح الكوك لكي يبقي طائرته



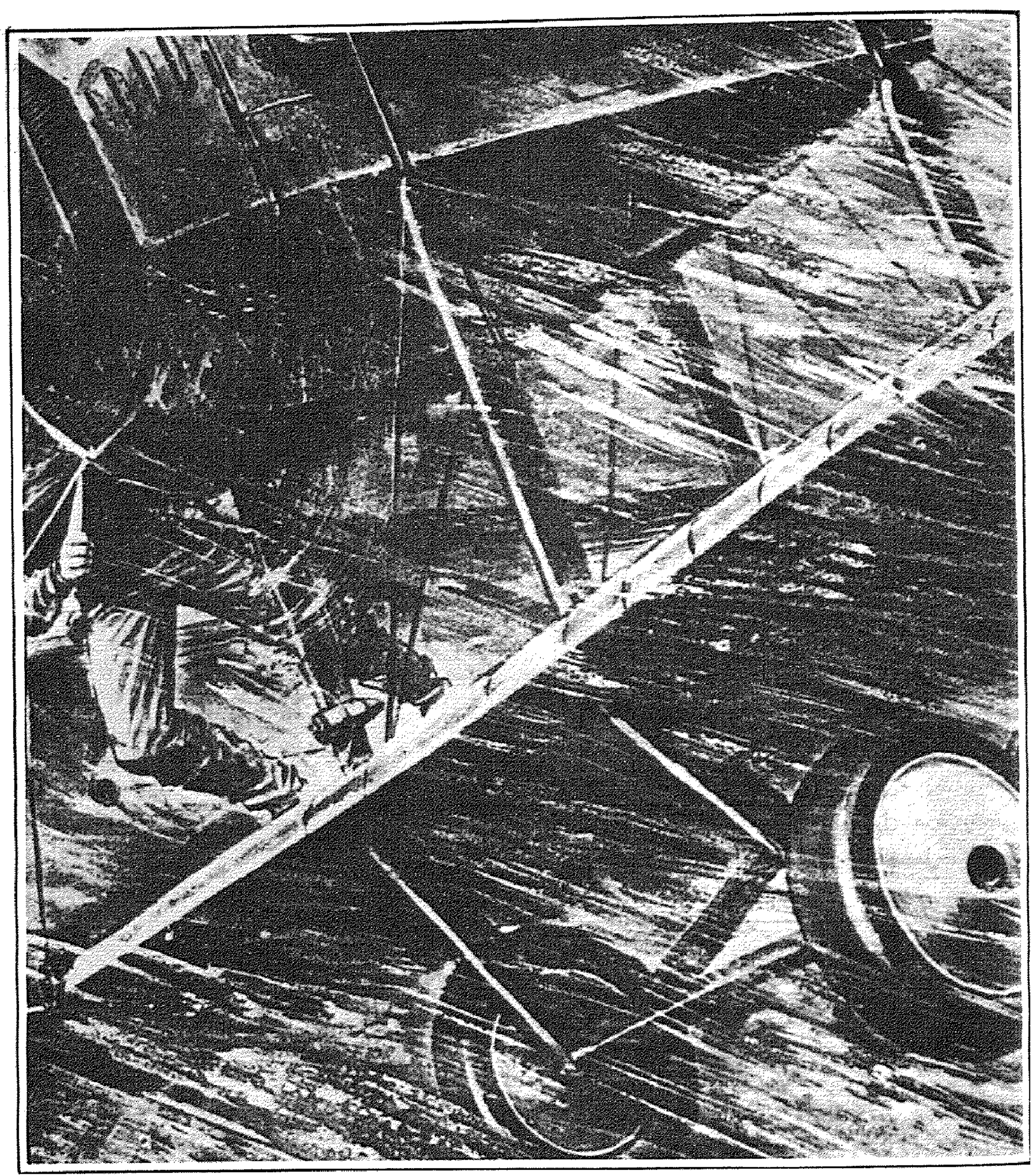
□ هبوط معاكس في مستنقع ايرلندي.

تحت سيطرته مستعملا كل التجهيزات. وكان يحافظ على علوه البالغ ٤٠٠٠ قدم رغم طيرانه في الغيم. وبعد مشكلة الغيوم أتت مشكلة جديدة. لقد وقعت الطائرة ضحية العواصف مما أدى الى تجمد عقرب السرعة كما كان التياران الهوائيان الأيمن والأيسر يؤرجحان عقرب الألبيمتر الى الخلف والى الأمام. ولم يستطع الكوك الحفاظ على سرعة الطيران بدون أفق طبيعي أو اصطناعي، فهوت فيمي لتغطس لولبيا.

في هذه الأثناء لم يستطع الكوك بدون معدات تساعده إلا أن يخنق المحرك. وأظهر عقرب الارتفاع أنهما فقدا ٢٠٠٠ قدم وما زالا يهبطان. إنها سرعة رهيبة رأى الرجلان الموت بعينيهما عندما كانت فيمي تنبثق من الغيوم وتتوجه إلى البحر. كانت الطائرة مقلوبة رأسا على عقب وقريبة من الماء لدرجة أنهما تعرضا لرذاذ الأمواج التي لطمت أجنحة فيمي عندما حاول الكوك تجليس الطائرة. لكن الكوك استطاع التغلب على هذه المعضلة وحافظ على توازن الطائرة وأعادها إلى مرحلة الصعود لكن المطر تابع سقوطه مع قليل من الثلج وبعد صراع عنيف استطاع الكوك أن يصل إلى ٨٥٠٠ قدم



□ ونستون تشرشل الملاح المتحمس، يقدم ١٠٠٠٠ جنيه استرليني مكافأة لكوك وبراون.



□ العراك مع الجليد في زوبعة اطلسية.

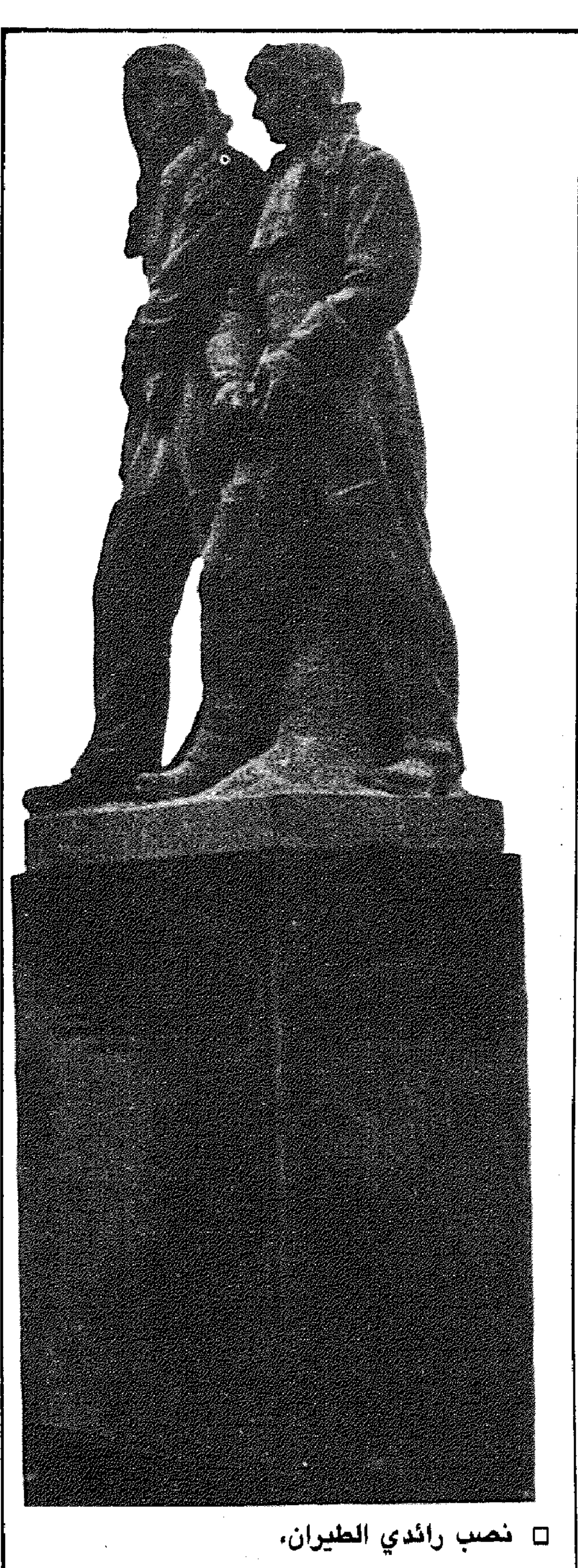
وبدأت المحركات تفقد القوة. أما الفتحات الهوائية فقد سدها الثلج وخاصة فتحة المحرك الذي كان في حالة يرثى لها.

في ظل تلك الظروف الصعبة ترك براون مكانه وأخذ يكسر الجليد عن فتحة المحرك بسكين حمله بأصابعه المثلجة، بينما المطر يتساقط على وجهه. وبعد أن لقيت عمليته نجاحا عاد الى مكانه وأخذ قسطا من الراحة إلا انه لاحظ أن المحرك أخذ يتباطأ فترك ركنه وخرج الى الجانب الآخر من الطائرة ليزيل الجليد.

لقد كرر تلك العملية سبع مرات حتى حافظ على سلامة المحركات وكانت هذه من أصعب مراحل الرحلة.

لقد سمح عمل براون هذا الى جانب انخفاض الثقل في الطائرة من جراء احتراق قسم كبير من الوقود سمح لفيمي أن تحلق على ارتفاع ١٠٠٠٠

قدم. بعد ذلك دخلت الطائرة مرة أخرى في الغيوم، لكن هذه المرة لم تدم طويلا إذ انقشع الجو وذاب الجليد وطارت فيمي بارتياح تنتظر أول رؤية للأرض.



□ نصب رائدي الطيران، جون الكوك وارثر براون.

نهاية الرحلة

في الساعة ٨ و ١٥ دقيقة ظهرت لطخة في الأفق. انها ايرلندا وحين اقتربا رأى براون الشاطىء الايرلندي وخاصة كليفرن. وعندما اقتربا أكثر رأى الكوك حقلا واسعا قرر الهبوط عليه رغم معارضة السلطة هناك. لكنه لم يأبه بأحد، اقترب من الحقل ولامست العجلات الأرض، كان الحقل مستنقعا مما جعل العجلات تغرز والطائرة ترتد إلى مقدمتها.

لكن الكوك وبراون لم يصابا بجروح. ونزل الرائدان من الطائرة تحت حراسة عسكرية وأخذا إلى لندن.

كانت الرحلة قد استغرقت ١٦ ساعة و ١٢ دقيقة، ١٥ ساعة و ٥٧ دقيقة من الشاطىء إلى الشاطىء.

وفي لندن استقبل الرائدان بحفاوة من قبل الناس. ونال الكوك وبراون عشرة آلاف جنيه استرليني كجائزة قدمتها صحيفة الديلي ميل وتوجها الى قصر باكنغهام، مقر الملك جورج حيث منحهما هذا الأخير لقب «فرسان» وكافأهما بصليب الطيران الجوي وهي أول مرة يعطى فيها هذا الوسام إلى مدنيين، إذ حصل لندبرغ عليه بعد ثمان سنوات.

نهاية الكوك وبراون

لقي الكوك مصرعه في عام ١٩١٩ قرب شاطىء ديفرار على النورماندي اثناء قيامه برحلة إلى باريس. أما براون فاستقر في الويلز وأصبح مديرا عاما لمصانع فيكرز وعاش حتى عام ١٩٤٨ وقد تزوج وتوفي ولده الوحيد في الحرب العالمية الثانية.

استطاعا بأبسط المعدات أن يقهرا الأطلسي الذي كثيرا ما أودى بحياة كثير من الطيارين المدربين إنهما يستحقان تقديراً أكثر مما أعطيا.

لقد عبَّد هذان الطياران الطريق للندبرغ ولكل قادة الطيران المعاصر.

فلا أحد يستحق منزلة مرموقة في بانتيون الملاحة الجوية أكثر منهما.

●

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوّية اللبنانيّة
جُذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



فلورنسا



□ اليزابيث فيجي لوبران (١٧٥٥ ـــ ١٨٤٢).

أطول متحف في العالم!

إعداد: إنعام الجندي



هل زرت متحف فلورنسا؟ وهل شهدت ما فيه من بدائع، خاصة بدائع عهد آل مديتشي، والصور الشخصية؟ يقول جان فرّي، أحد من زاروا المعرض، وكتبوا عنه: ستتمنى أن تعود إليه لألف سبب وسبب!

طول المتحف كيلومتر، فهو أطول متحف في العالم، كما أنه المتحف الوحيد الذي بني فوق ضفتي نهر، فشكل جسرا يدعونه جسر فيتشيو. ولئن ظل خلال أربعة قرون، العمود الفقري لمدينة فلورنسا، فإنه ما يزال آية من آيات الابداع، ومتعة فنية ليس بعدها من متعة.

لا تمهد شهرة فلورنسا، ولا أمجاد رساميها إلى زيارة أي شخص، قصر آل مديتشي (Les Offices)، ثمة ثلاث مفاجآت تنتظرك: التناغم في صالة بوتيشلي، فخامة الرواق، واتساع قاعات العرض.

يعود بناء المتحف إلى العام ١٥٦٠م، ولكن قاعة بوتيشلي خطط لها عام ١٩٧٥، ولم تدشن إلا بعد ثلاث سنوات. وإنك لا تكاد تصدق حداثة القاعة، لأن فخامة توازنها وتناسقها تشعرها أنها من عصور سحيقة.

يغريك هذا الشعور بالسلام والهدوء الذي لا تشعر به في المتاحف الأخرى التي تعج بالزائرين، وبعد أن تدخل تلك القاعة الواسعة (٢٠م×١٥م) لن تنسى أبدا ذلك الاحساس العجيب بالطمأنينة النفسية.

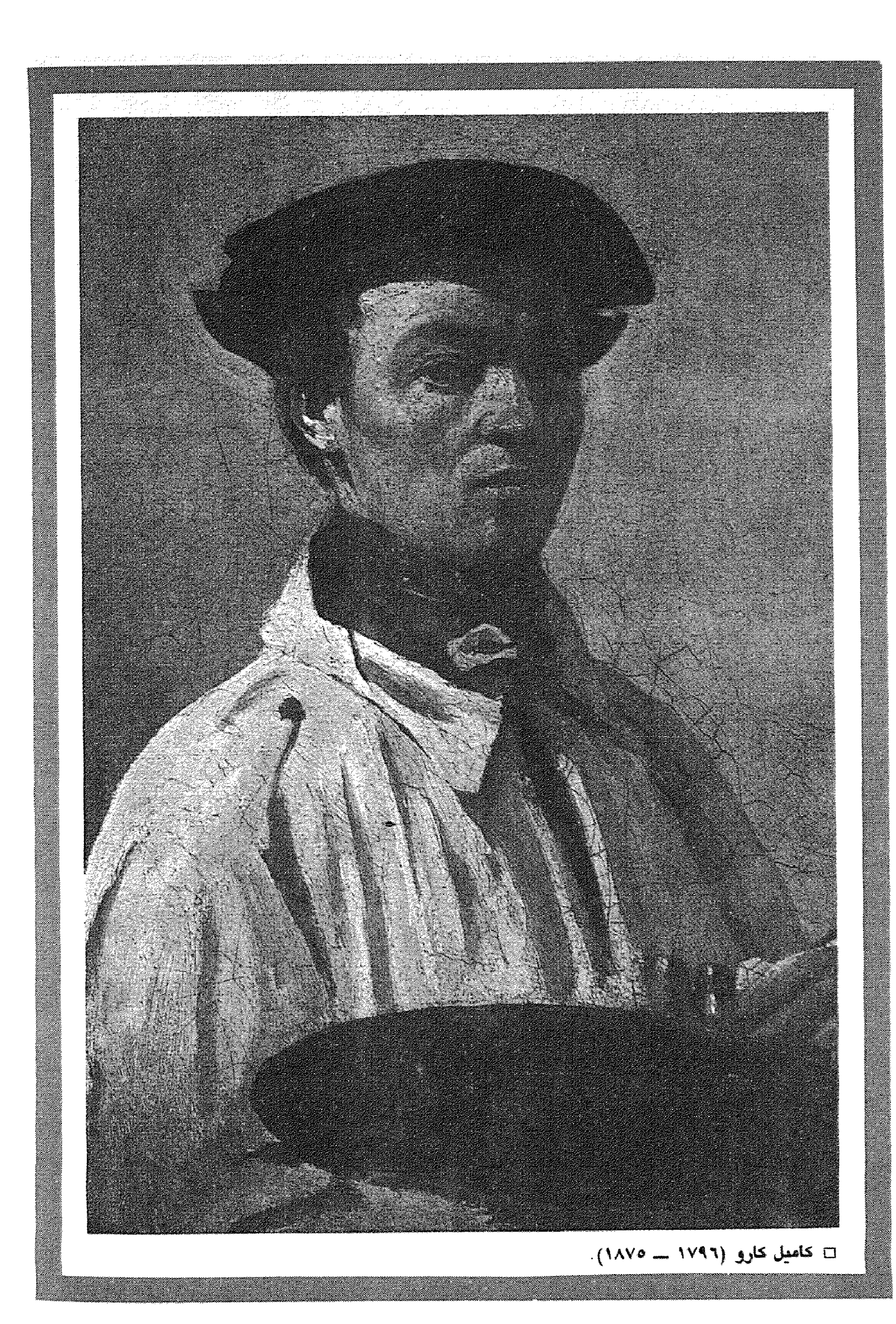
وأكثر ما يؤثر فيك هذه الحميمة بين كل لوحة، وكل عمل فني، وبين قاعة بوتيشلي فهي بفضائها وقبتها واتساعها، عمل فني اخر، كأنه لوحة معلقة بين اللوحات، على جدار ما.

في هذا المناخ الأسطوري، تَمْثُلُ لوحتا «مولد فينوس» و «الربيع» بكل ما فيه من روعة وجمال. وإذ ترى ذلك يخيل إليك أن بوتيشلي كان أكثر الناس سعادة، ولكنه كان طوال حياته يعاني من البؤس القاتل، وكأنه شاء أن يحقق الجمال، ويهرب من أزماته بريشة تصنع أساطير الفن، وبدائع الحلم، بالألوان.

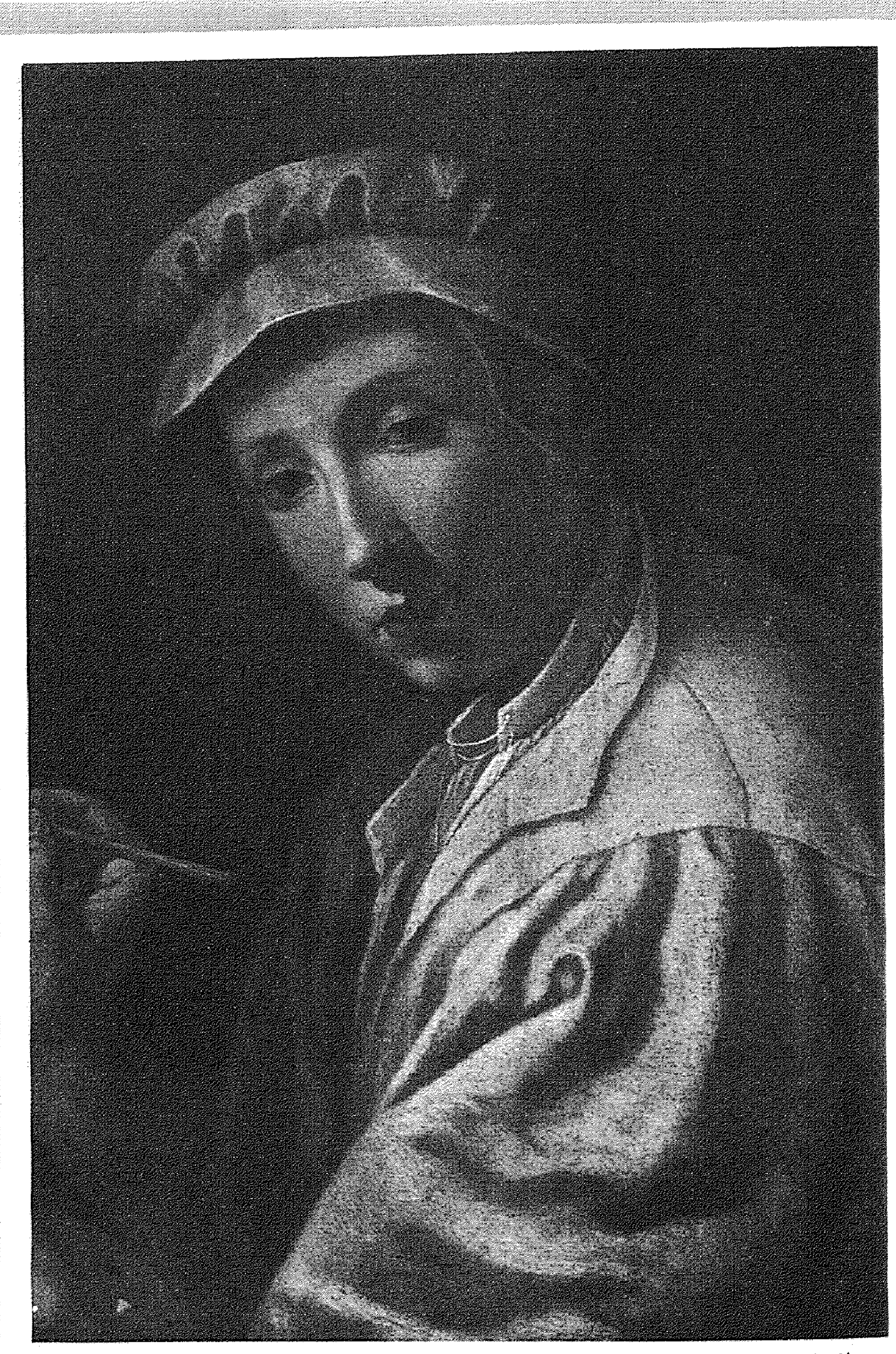
يتحفك الرواق بعالم اخر، فثمة على بعد خطوات، كنوز لا تخطر على بال. ففي عام ١٥٨٤م، أي بعد خمسة عشر عاما من اكتمال البناء، كانت القاعة الثمانية الأضلاع، ذات السقف المصدف، ترمز إلى مجد آل مديتشي، في معبد للفن، يضم في ما يضم خمس لوحات لرافاييل، ومائة وعشرين درجا مليئة بالتحف الثمينة. ويقوم وسطه مكتب فخم من الآبنوس المرصع بالذهب والحجارة الكريمة، كان الزوار يأتونه من كل أوروبا ليشهدوا روعته.

ولقد أعيد ترميم الرواق، وما فيه من تحف، عام ١٩٧١، فعاد إليها رونقها وجمالها. ترى فيه أعمال أنيولو برونزينو (١٥٠٣ ــ ١٥٧٢) رسام الصور الشخصية المبدع، ومنها «البنت الصغرى» التي تدهش بألوانها الحريرية. و «جان مديتشي» الطفل السمين الذي يحمل

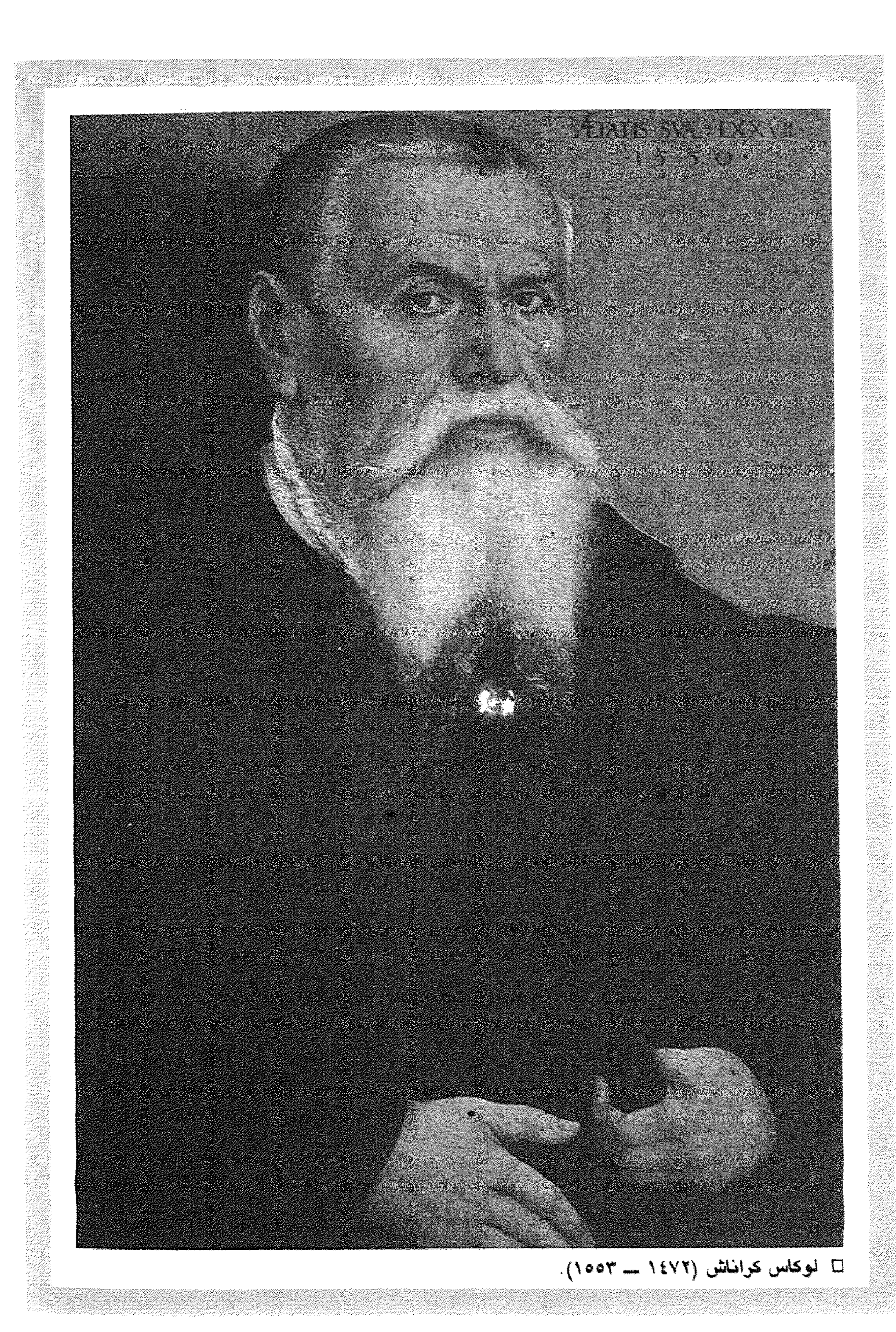
☐ **إنعام الجندي: استاذ في الأدب العربي، له العديد من الكتب في الادب العربي والترجمات.**



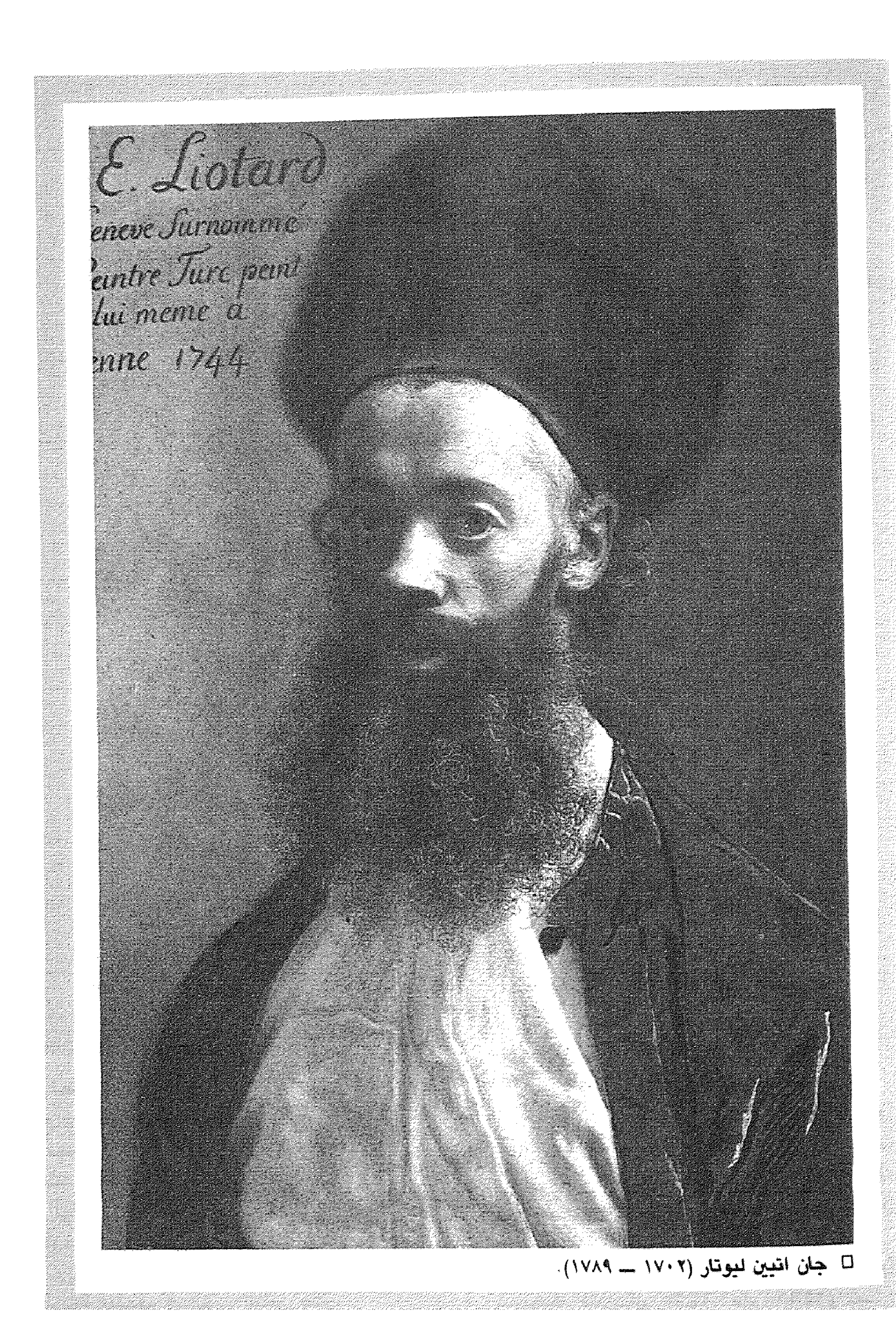
□ كاميل كارو (١٧٩٦ ـ ١٨٧٥).



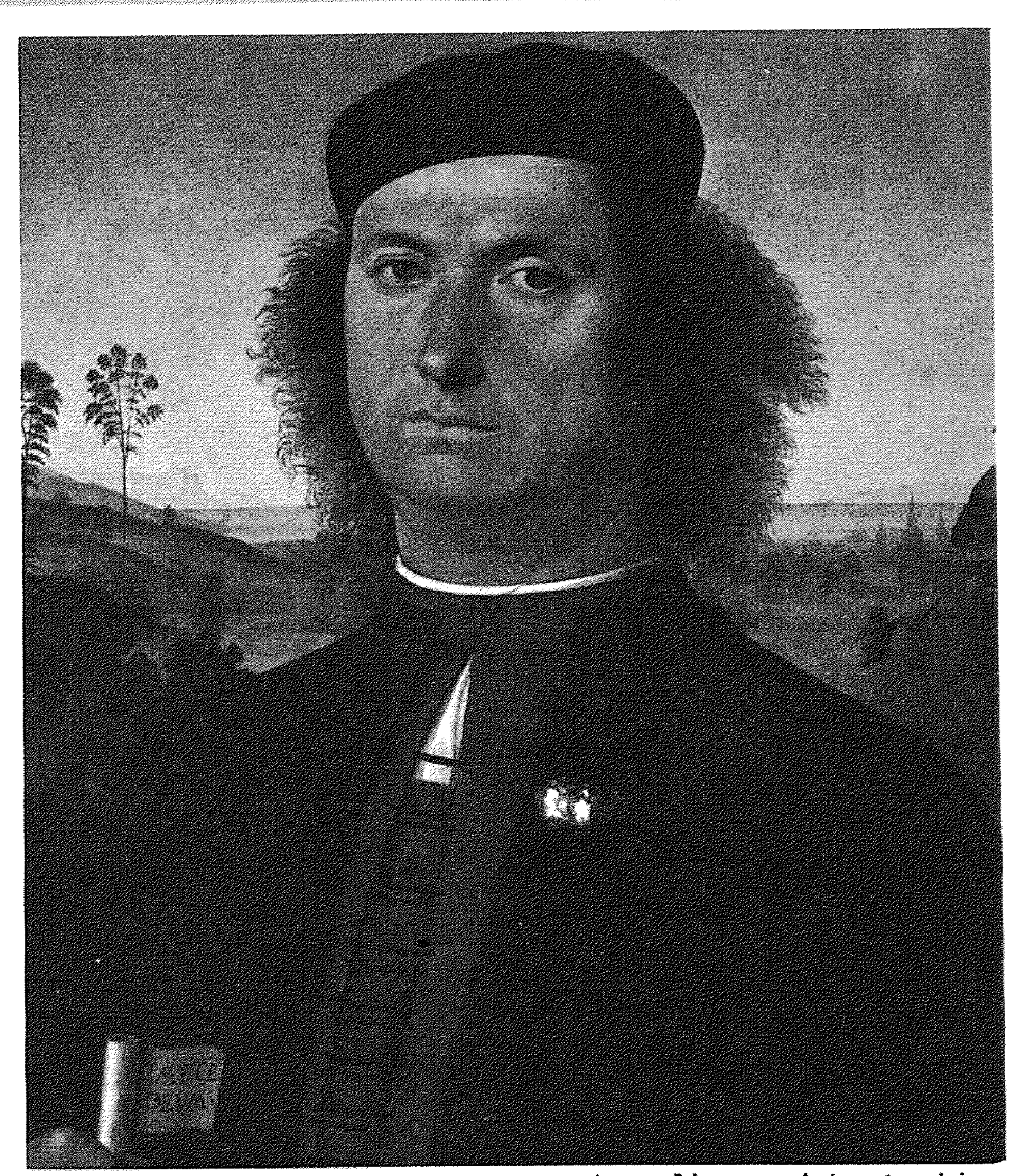
□ انيولو برونزينو (١٥٠٣ ــ ١٥٧٢)



□ لوكاس كراناش (١٤٧٢ ـ ١٥٥٣).



□ جان اتيين ليوتار (١٧٠٢ ــ ١٧٨٩).



□ فرنسيسكو ديلي اوبيري بريشة بيروجان.

عصفوراً بيده اليمنى، فتكتم انفاسك لروعة واقعيتها، فخوف العصفور المرتعش يتناغم، على نحو من الأنحاء، مع هدوء الطفل المنتصر، رغم تضاد الحالين. وإنك لتطالع فيها كل براءة العالم، وكل قسوته في آن معاً، وقد تجسدت في لوحة مساحتها ربع متر. وثمة تمثال فينوس آل مديتشي التي كان الزوار يقبلون يدها عندما يأتون لزيارة المتحف في القرن الثامن عشر.

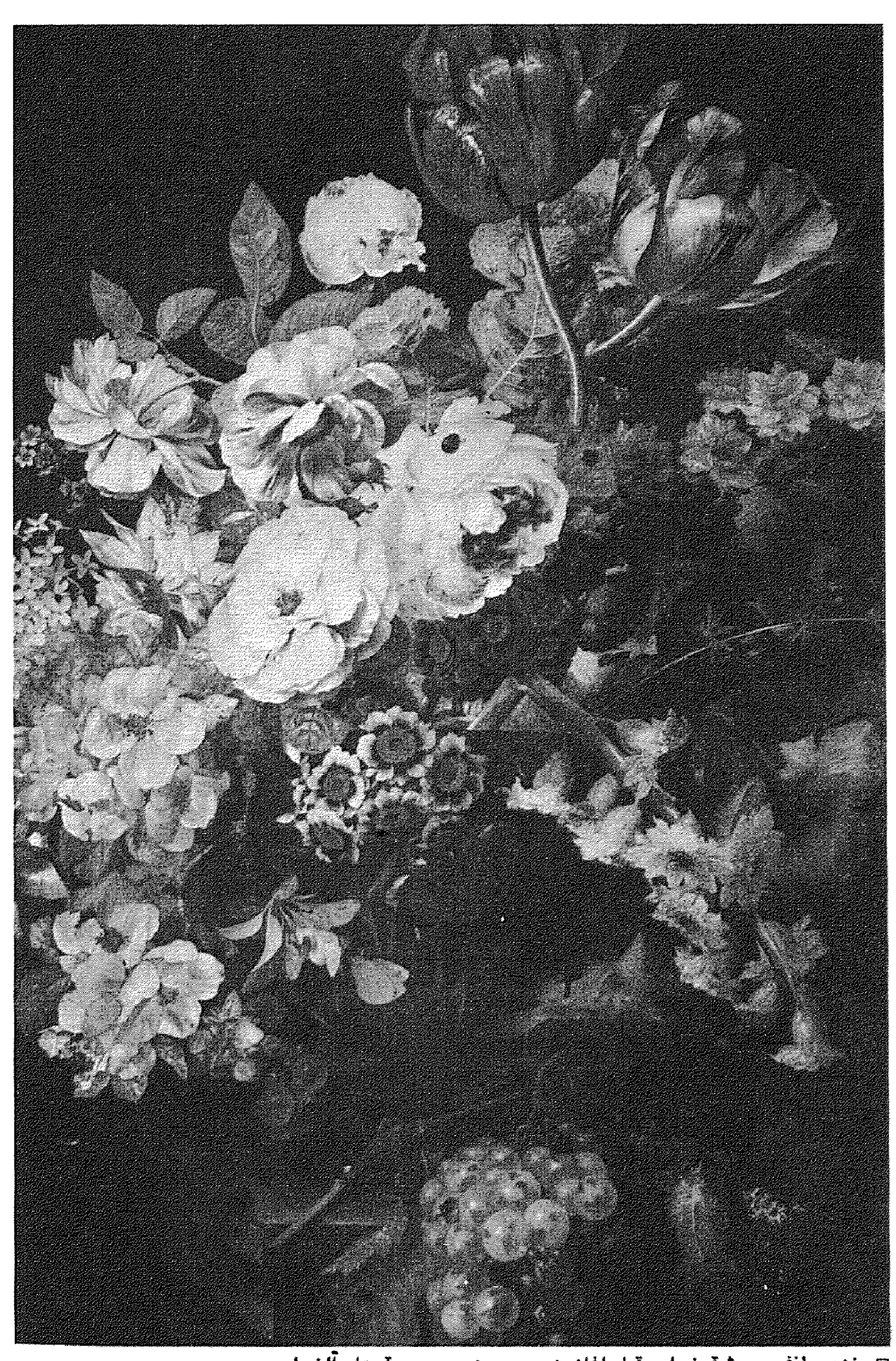
ولنتوقف عند بعض اللوحات:

تتويج العذراء (٣٣٧ سم × ٤٤٧ سم) للورانزو موناكو (توفي عام ١٤٢٥) يدهشك فيها العمق الشاعري في تشكيل بسيط، يغيظك ويذهلك، لكأن الأشخاص يحملهم النور كما في سراب: إنه السحر.

العذراء وابنها (٢٠٩ سم × ٢١٣ سم) لدومنيكو فنيزيانو (توفي عام ١٤٦١) تمنح



□ الأميرة الصغيرة بريشة برونزينو.



□ زهور انفير بريشة زبيل وقيل لفان هويسم وهي مرسومة على آلزجاج.

الاحساس أنك أمام جدار من المرمر، رسمت عروقه اللوحة.

معركة سان رومانو، لباولو أوتشلو، رغم عتمتها، تعد من رائع المتحف. كذلك لوحة «الرماح» لفيلا سكيز التي تجعلك تفكر «بغرنيكا» بيكاسو: بالحصان في وسط اللوحة، وبالحصان المقتحم على اليمين.

ثم صورة باتيست سفورزا، وصورة مونتيفلترو. ثم لوحة الأم دولوروزا (٥٥ سم × ٣٣ سم) لجوس فان كليف (توفي عام ١٥٤٠) وصورة ليون العاشر (١٥٤ سم × ١١٩ سم) لرافاييل (١٤٨٣ ــ ١٥٢٠). وتدهشك لوحات «الطبيعة الميتة»: ذهب الناقوس، وزخرفة كتاب، في عاصفة من الأرجوان.

ثم لوحة «فينوس أوربان» (١١٩ سم × ١٦٥ سم) لتيتيان (توفي عام ١٥٧٦).

لقد حافظ آل مديتشي حتى زوال حكمهم (١٧٣٧م) على المتحف، ورعوه بكل ما أطاقوا من عناية فنية. وقد أصدر اخر أمير منهم مرسوما يقضي بجعل القصر وما فيه من لوحات وروائع، ملكا لفلورنسا.

يشرف على المتحف البروفسور لوسيا نوبيرتي، ولكنه لا يتفرغ إلا للقضايا الهامة. أما المشرفة الحقيقية فهي السيدة كاترينا كانيفا. ولا يعاونها إلا مهندس، وثلاثة كتاب للحفاظ على الآثار. وثمة ١١٠ يعملون في الحراسة والادارة. وتستغرب كيف يستطيع عدد قليل جدا من المختصين الحفاظ على الآثار الفنية التي تغطي كيلومترات من الجدران، بينما ظاهر المتحف مهمل. على كل حال، يبدو أن عدد التقنيين العاملين في كل متاحف إيطاليا لا يوازي عدد العاملين في متحف متروبوليتان في نيويورك. هذا، مع العلم أن المتحف يحتاج إلى أعمال كثيرة جدا، خاصة وأن عدد الزوار يتزايد عاما بعد عام. لقد كان عام ١٩٤٩ مائة ألف، ثم بلغ نصف مليون عام ١٩٦٠، أما اليوم فالعدد ١٨٠١٠٠٠.

ثمة مفاجأة ثالثة، وهي البهو الطويل الذي يصل متحف قصر مديتشي بقصر بيتي. طوله ستمائة متر، وقد علقت اللوحات على جداريه، وهي في معظمها صور لأشخاص، أو صور رسمها فنانون لأنفسهم. وتعد أجمل مجموعة في العالم. يجتاز البهو نهر الآرنو على جسر فيتشيو، ويتبع مخططا مدهشا، إذ يطالعك كل لحظة بجو خاص، ومنظور جديد. لقد بناه فاساري ليستخدمه البلاط، عام (١٩٦٥م). وقد حول منذ مائة عام إلى متحف. عام ١٩٧٣ اتخذ شكله الحالي. مع العلم أن هذه الأعجوبة الفنية، يجهلها معظم الناس، حتى النقاد الفنيين، وقلما ذكرتها معاجم الفن، أو كتب الأدلة. أضف إلى ذلك أن البهو لا حراس له، لذلك لا تسمح إدارة القصر بأكثر من زيارتين في اليوم، وحسب موعد سابق، شرط أن تكون الزيارة جماعية لا إفرادية.

كان أول من بدأ بتجميع اللوحات الكاردينال ليوبولد دو مديتشي (١٦١٧ ــ ١٦٧٥). وكان يوصي على صور شخصية، أو يقبل هدايا على نحو صور شخصية. وقد تشكلت لجنة لقبول تلك الصور أو رفضها، وما يزال معمولا بهذا التقليد.

تجد هناك صورا شخصية رسمها لانفسهم كالو، لوبران، ريغو، لا رجيليير، بوشاردون، كويبل، دولاكروا، وغيرهم كثير. كما تجد فيها كل المدارس الفنية، في أروع بدائعها.

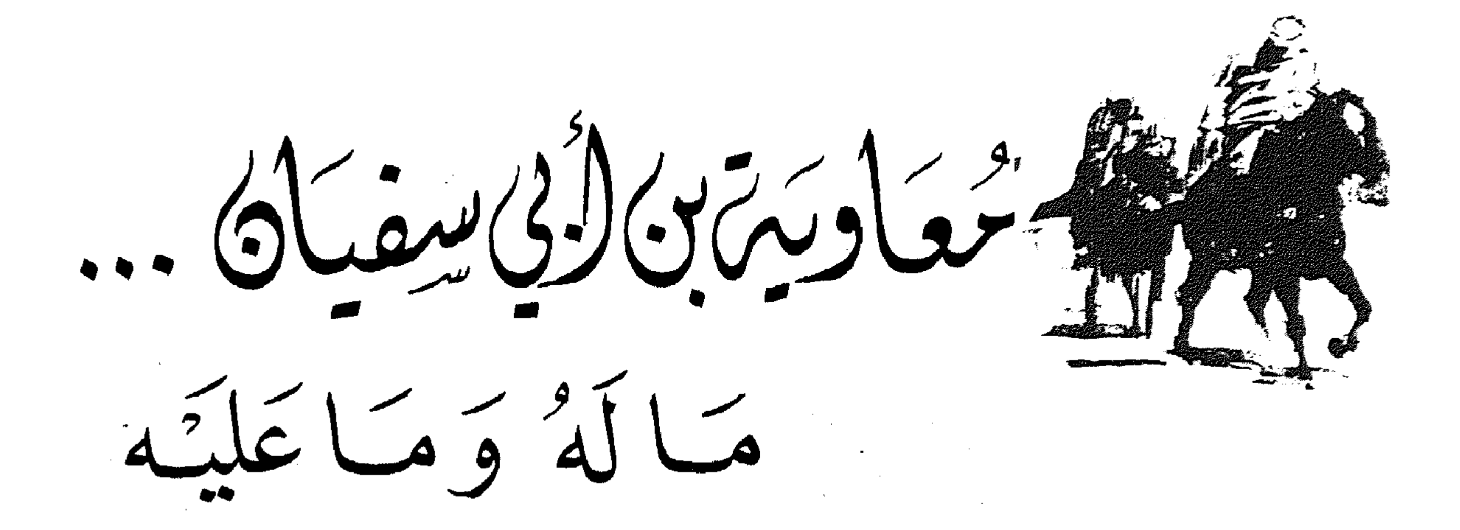


«من كان غنياً في دخيلة نفسه، فقلما يفتقر إلى شيء من خارجها».

جوته، الشاعر الألماني

«إذا وجدت الراس صحيحا والبدن سليماً، فخذ في علاج النفس».

افلاطون



معاوية بن أبي سفيان... ماله وما عليه

فارس عينه

كانت لمهابة وشخصية الرسول العربي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم أثرا بالغا في توحيد القبائل العربية تحت راية الاسلام. وكان الخليفة أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين يمضي على طريق الرسول (صلعم)... ثم أتى بعده عمر بن الخطاب كرم الله وجهه ثاني الخلفاء الراشدين، الذي كان لشخصيته القوية... واتباعه الدقيق لتعاليم الاسلام أثرا بالغا في المجتمع الاسلامي المبني على قبائل لم تشتد بعد فيها الروح القومية... وما زالت للعصبية القبلية فيها موضعا ذو مكانة. وهذه كانت من بين أهم الأسباب التي كانت مدعاة للتفكك الذي أصاب هذه الدولة الفتية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان وعهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وكذلك أدى هذا التعصب القبلي إلى انهيار دولة بني أمية وانهيار دولة الأندلس. فعثمان بن عفان كان ذو شخصية ضعيفة أمام قومه الذين طمعوا في أموال وأراضي الدولة الاسلامية والذين كانوا يريدون لهم كل ما يخطر على بالهم ولو على حساب بيت المال والمسلمين. وما كان لعثمان أن يقف في وجههم كما كانت الحال في عهد عمر بن الخطاب. فبدأ التفكك والانحلال في الدولة الاسلامية وظهرت للسطح ثانية العصبية القبلية التي لم تكن قد اختفت بعد كليا، وبدأ التناحر بين القبائل العربية يظهر بشكل جلي واضح، وعندما اغتيل الخليفة عثمان بن عفان في داره... وجاء علي بن أبي طالب خليفة على المسلمين... هكذا كانت الأحوال... ضعفا وتناحرا وتنابذا... فما أتاح لوالي دمشق معاوية بن أبي سفيان الذي كان واليا على الشام لعشرين سنة خلت، حيث وطد دعائمه هناك بشكل قوي نظرا لما يتمتع به من صفات الحلم والدهاء السياسي والكرم والسخاء بلا حدود... وعندما اغتيل

عثمان بن عفان وولي مكانه على الخلافة علي بن أبي طالب... دخل معاوية المعركة ضد علي بن أبي طالب حاملاً قميص عثمان ومتهماً عليا بالتواطؤ في قتل الخليفة عثمان بن عفان... وبفضل ما يتمتع به معاوية من دهاء سياسي وحنكة حلفاءه وخاصة عمرو بن العاص الذي ظهر في قضية التحكيم مع أبو موسى الأشعري... بأنه من دهاه العرب... وكان ما كان من اختلاف جنود علي بن أبو طالب وانشقاقهم وظهور الخوارج الذين نجحوا في قتل الامام علي بن أبي طالب ولم ينجحوا في قتل معاوية بل أصابوه إصابة بسيطة... وتم بعد ذلك أن تنازل الحسين بن علي عن الخلافة لمعاوية حقنا لدم المسلمين وذلك بعقد صلح مع معاوية.

وبدأ معاوية بن أبي سفيان عمله الدؤوب ليوحد كلمة المسلمين من وراءه وليوطد دعائم حكمه وخلافته الذي اتخذ من دمشق مركزا لها. وكان معاوية يستعين برجال وولاة من دهاة العصر واستطاع من قبل أن يجذب عمر بن العاص إلى جانبه في صراعه مع الامام علي.

ومما هو ملفت للنظر أن عهد معاوية الذي امتد زهاء عشرين سنة لم يميز هذا العصر بأي عمل عسكري أو فتح إسلامي جديد ما عدا انه كان أول حاكم مسلم ركب البحر بأسطول كبير بلغ عدده ١٧٠٠ سفينة فاتحا قبرص وررودس وبعض الجزر اليونانية. ولم يكن جهد معاوية، كما لم يكن لديه هما أن يوسع رقعة الدولة الاسلامية المترامية الأطراف، بفتوحات جديدة. بل كان جل همه أن يوحد كلمة لمسلمين من وراءه وأن يوطد دعائم حكمه... ويحمي دولته المتسعة... ويؤمن لها مصروفاتها من خلال تشجيع الناس على الزراعة والقيام بالأعمال التجارية والعمرانية على عكس عمر بن الخطاب الذي كان يؤمن موارد الدولة من الفتوحات الاسلامية... وهذه السياسة كانت تدفع الناس للانشغال بالأرض وانتاجها وتنمية مواردها ومواردهم من إبل وماشية ومنتوجات زراعية مبتعدين عن الجهاد في سبيل الله، قاصدين الدنيا ليجاهدوا فيها لتكبر ثرواتهم وممتلكاتهم.

ومن الملفت للنظر أيضا أن معاوية كان كارها للحروب الخارجية وكذلك للحروب والمناوشات



الداخلية، لأن همه كما أسلفنا أن تهدأ أمور ملكه ليوطدها لنفسه ولولده يزيد من بعده. ومن اجل ذلك عقد معاهدة سلام مع الروم دافعا لهم الجزية!!!؟

وفي أمور معاوية الداخلية نراه يمد يده ويتحالف مع رجال لا يكن لهم أي مودة أو محبة ولكنه كان واثقا من قدرتهم وحنكتهم السياسية كعمر بن العاص ليديروا دفة الحكم في الولاية ويبايعوه وينصروه دائما.

ولسنا نجد تصويرا أدق لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعره ما قطعتها».

وما يميز شخصية معاوية الى جانب إلمامه التام بكل ميول كل مَنْ له علاقة به وكذلك فإنه يدرسه نفسيا ويشرحه تشريحا ويكون صورة

دقيقة عن كل رجل يتعامل معه. إلى جانب هذه الميزة الهامة فانه كان من القدرة والحنكة بحيث أنه يوقع أعدائه في مشاكل لا تقوم لهم قائمة بعدها. كذلك كان يوقع بين أقاربه مخافة اجتماعهم عليه كما فعل مع سعيد بن العاص ومروان بن الحكم.

وعندما فكر معاوية بأمور الدولة الاسلامية من بعده، وجد نفسه يجهز ابنه يزيد، على علاته، لخلافته.

واستنفر معاوية كل دهاءه وحنكته السياسية وخبرته واستطاع أن يأخذ البيعة من المسلمين ليزيد كخليفة له، وبهذا العمل يكون أول حاكم إسلامي أدخل الوراثة في هذه الدولة العربية الاسلامية الفتية.

ومن الجدير بالذكر أن معاوية كان أول حاكم عربي إسلامي يدخل البريد وينظمه تنظيما دقيقا اكثر مما كان لدى الروم والفرس وذلك بهدف جمع معلومات وأخبار الأمصار والولايات البعيدة بأسرع وقت ممكن ليتمكن من إدراك ما يمكن ادراكه ومعالجته بالسرعة المطلوبة.

وكذلك كان معاوية أول حاكم عربي مسلم طبق نظام قيد الولادات والوفيات في سجلات وكذلك أمر بمعرفة كل وافد جديد إلى أي بلد، وطبق نظاما مستحدثا وهو ديوان الخاتم، كل ذلك حتى يدبر أمور دنياه ومملكته وقد أثبت معاوية بتدابيره انه رجل إداري من الطراز الأول. وكان أول حاكم يطبق قانون منع التجول بعد ساعة معينة من الليل وذلك بواسطة عماله في بعض الأقطار الاسلامية.

ويعد المؤرخون معاوية وعماله الثلاثة، في العراق والحجاز ومصر، من أعظم دهاقنة العرب ومن ذلك قول أحدهم:

«ما رأيت أثقل حلما ولا اطول إناة من معاوية... ولا رأيت أغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص... ولا أشبه سرا بعلانية من زياد، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج من أبوابها كلها».

وكان معاوية مقبلا على دنياه يعب منها عبا ومسرفا وباذخا فقلد الروم في لبس الحرير والديباج على عكس من سبقه كعمر بن الخطاب والصديق. وكان يحافظ على نفسه أشد المحافظة وهو أول حاكم إسلامي أمر بادخال الحراس إلى المسجد ليقوموا بحراسته عند الصلاة. وهو أول من أدخل الوراثة في الحكم الاسلامي بعد أن كانت أمور الخلافة شورى بين العرب كأعظم وأعرق ديمقراطية عبر التاريخ.

وكان هم معاوية الأهم أن يؤمن دنياه ويدبر الأمور لابنه من بعده ويهون كل شيء في سبيل ذلك... وكان رجل دنيا وناس حيث الدليل على ذلك جاء من شقيق الامام علي كرم الله وجهه «عقيل» حينما غادر الحجاز تاركا الامام علي ملتحقا بمعاوية الذي أكرمه بسخاء ما بعده سخاء عندها قال عقيل كلمته المشهورة: «إن أخي خير لي في ديني، ومعاوية خير لي في دنياي». وذلك لأن الامام علي وقف بوجه أخيه ولم يعطه شيئا من اموال وأملاك المسلمين فتركه وذهب لمن يعطي بكرم وسخاء.

وهكذا استطاع معاوية بكل ما يملك من دهاء وقوة وحلم وسياسة أن يثبت ملكه حتى أنه كان أول من استعمل السم للتخلص من أعدائه السياسيين.

وفي أواخر أيامه عندما اشتد به المرض قال لمن حوله:

«إن رسول الله (صلعم) كساني قميصا فرفعته، وقلم أظافره يوما فأخذت قلامته، فجعلتها في قارورة، فاذا مت فالبسوني ذلك القميص، وقطعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفي فمي، فعسى الله يرحمني ببركتها ثم قال: اتقوا الله عز وجل فان الله سبحانه يقي من اتقاه ولا واقي لمن لا يتقي الله» ثم قضى وكانت وفاة معاوين بن أبي سفيان في الشهر السابع من سنة ٦٠هـ الموافق في نيسان سنة ٦٨٠م.

تاركا وراءه الأمة العربية الاسلامية وسط مهب الرياح بامرة ملك لا يستطيع شيئا إزاء هول الخلافات والفرقة والضياع. ●

المصادر:

(١) العبقريات الاسلامية، للأستاذ عباس محمود العقاد.
(٢) معاوية في الميزان، للأستاذ عباس محمود العقاد.
(٣) معاوية بن ابي سفيان وعصره، للأستاذ عمر أبو النصر.

● لجنة إحياء التراث الاسلامي في وزارة الأوقاف العراقية

□ شكلت لجنة إحياء التراث الاسلامي عام ١٩٦٩م ضمن قسم الدراسات والبحوث الاسلامية في دائرة الارشاد والاعلام الديني التابعة لوزارة الأوقاف العراقية لتقوم بإبداء الرأي في نشر وإحياء التراث الاسلامي والاشراف على طبع ونشر المخطوطات المتوفرة في مكتبات الأوقاف ووضعها بين أيدي العلماء والأدباء والباحثين. وفي عام ١٩٧٠م صدر أول كتاب من نتاج أعمال اللجنة وهو كتاب «طبقات الشافعية» ثم صدر كتاب «شفاء الغليل» للغزالي و «المقرب» لابن عصفور. ثم صدرت عن اللجنة تباعا مجموعة من الكتب القيمة في شتى ميادين المعرفة في سلسلتين: إحداهما لاحياء التراث الاسلامي، والأخرى للمطبوعات الحديثة. وقد بلغ عدد كتب السلسلة الأولى ٦١ كتابا والثانية ٢٧ كتابا وهناك ٢٧ كتابا قيد الطبع.

● المؤتمر السابع لتاريخ العلوم عند العرب يصدر توصياته

□ عقد معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب في شهر ابريل — نيسان الماضي ولمدة يومين مؤتمره السنوي السابع لتاريخ العلوم عند العرب، احتفل خلاله بمرور اثنتي عشر قرنا على ميلاد العالم العربي أبي عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي، وذلك بالتعاون مع الجمعية السورية لتاريخ العلوم.

ناقش المؤتمر في خمس جلسات اثنتين وعشرين ورقة عمل، جميعها ابحاث اصيلة لم تنشر سابقا، تبحث في تاريخ العلوم والطب والتكنولوجيا عند العرب، وهي:

— الخوارزمي: حياته — عصره — علومه، للدكتور محمد التونجي.

— مكانة الخوارزمي في تاريخ الحضارتين العربية والانسانية، لفريد جحا.

— الخوارزمي عالما في الجغرافيا الفلكية والرياضية، لصلاح الدين خالدي.

— جبر الخوارزمي من خلال كتاب الجبر والمقابلة، لمحمد يحيى خراط.

— علاقة السيمياء بالطب، للدكتور زهير الباب.

— فصل من كتاب تاريخ الطب والأطباء في حلب الشهباء «الطب والأطباء في حلب في القرن التاسع عشر»، للدكتور إسحق الكيالي.

— مخطوط «ما لا يسع الطبيب جهله»، وهو كتاب في علم الأدوية من القرن الثامن الهجري «عرض لمخطوطاته»، للدكتور أحمد مضر صقال ودرية الخطيب.

— طب الجلد عند الرازي، للدكتور حنا بشور.

— التأرجح اللساني في النقل الأول للغة الرياضيات إلى العربية، للدكتور محمد سويسي.

— نظام الحسبة عند العرب، لكمال شحادة.

— تاريخ طب الأطفال عند العرب، للدكتور حسام الشعار.

— الخوارزمي والارقام، لمحمد علي الزركان.

— الموسوعة النباتية لجزيرة العرب، للدكتور محمد نذير سنكري.

— رسل العرب في بعث الكيمياء، للدكتور محمد وليد كامل وشفاء الزعيم.

— علاقة النجوم في حياة الانسان، لرياض الجابري.

— الالفاظ الطبية في كتب اللغة، لمحمد شحادة كرزون.

— الدمعة في طب العيون عند العرب، للدكتور صلاح محمود غانم.

— الجسأ في كتب الكحل، للدكتور مؤنس غانم.

— النجوم في الفلك الحديث، اصولها وتطورها: للدكتور عبد الرحيم بدر.

— الأوقاف العددية والعلوم الخفية، لمحمد علي خياطة.

— الخوارزمي مصادره وبيئته، لمحمد عبد الحميد حمد.

— الحيوانات المجترة في التراث العربي، للدكتور مروان السبع.

وفي نهاية أعمال المؤتمر صدرت عدة توصيات.

● «قصة الطب العربي» في شريط وثائقي

أخرج الدكتور توما شماني رئيس تحرير مجلة «عالم اليوم» في بغداد شريطا سينمائيا وثائقيا علميا تاريخيا يروي أحداث «قصة الطب العربي» بكاملها بأسلوب سهل، ابتداء من العصر الجاهلي ثم الطب النبوي والأموي حتى ازدهار الطب في الدولة العباسية.

يتطرق الشريط إلى عهود الطب العربية الثلاثة، ثم عهد سيطرة الكتب العربية على أوروبا. كما يتحدث عن الصيدلة والجراحة عند العرب،

وتدوين السريريات ونشر الادبيات الطبية وحركة تدوين الأحداث الطبية، إضافة إلى طرق انتقال الطب العربي إلى أوروبا.

الدكتور توما شماني قال في رسالة بعث بها إلى المعهد أنه اطلق على الشريط إسم «إشراقة الطب العربي» وتحدث فيه عن جهود عدد من الأسر والعلماء المسلمين الذين قدموا خدمات جليلة في هذا المجال، منهم: اسرة بختيشوع، وحنين بن إسحاق، وآل قرة، والدمشقي، والرازي، وابن سينا، والزهراوي، وابن زهر، وابن النفيس، وابن البيطار، والأنطاكي، وابن الخطيب، وابن خاتمة، وابن أبي أصيبعة، ثم الداخواري.

● «الكتاب المغربي» مجلة جديدة

أصدرت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر في الرباط بالمملكة المغربية مجلة جديدة بعنوان «الكتاب المغربي»، وهي مجلة بيبلوغرافية نقدية تجمع كل ما يصدر في المملكة المغربية أو عنها من كتب ومجلات، يديرها الدكتور محمد حجي الأستاذ بجامعة محمد الخامس في الرباط.

احتوى العدد الأول من الحولية المتخصصة عدة أبواب تحليلية استهلت بدراسة عن الكتاب المغربي للدكتور محمد عزيز الحباني.

في باب عرض الكتب قدمت المجلة ملخصا لمجموعة من الكتب التي صدرت مؤخرا في المغرب، وأشارت في باب اخر إلى مجموعة من الكتب الحديثة وصفتها حسب العلوم: الفلسفة، الديانات، العلوم الاجتماعية اللغات وعلوم اللسان، العلوم البحتة، العلوم التطبيقية، ثم الفنون، والآداب، والتاريخ والجغرافيا.

الباب الأخير عرّف بعدد من المجلات المتخصصة في المغرب في مجالات: البحوث الاسلامية، الأدب والدراسات اللغوية والفنون، العلوم الاجتماعية «حقوق — اقتصاد — إحصاء — إدارة» العلوم الاجتماعية «فلسفة — اجتماع — تاريخ — جغرافيا»، العلوم الدقيقة والتطبيقية، التربية والتعليم، ثم عرف بعدد من المجلات المتنوعة.

هذا والحقت المجلة بفهارس لأسماء المؤلفين والناشرين ودور الطبع في المغرب، وبنبذة عن مشروع معلمة المغرب الذي يتحدث عن كل ما يتعلق بأرض المغرب وسكانه وتاريخه وحضارته.

● مدير المعهد يشارك في اجتماعات المجلس التنفيذي للمنظمة

شارك الدكتور خالد عبد الكريم جمعة، مدير معهد المخطوطات العربية، في اجتماعات الدورة الثانية والثلاثين من اجتماعات المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذي انعقد في مدينة سوسة التونسية في الثامن عشر من شهر يوليو (تموز) الماضي ولمدة عشرة أيام، وقدم تقريرا خلال الاجتماع عرض فيه الخطوات التنفيذية التي تمت بخصوص برامج المعهد ومشروعاته في النصف الأول من هذا العام.

وقد اقر المجلس خلال اجتماعاته مشروعات المعهد الجديدة التي سيبدأ تنفيذها في العام القادم.

كما اقر المجلس عددا من مشروعات المنظمة وأجهزتها. ومن المشروعات المهمة التي اقرت:

— وضع موسوعة الفكر التربوي الاسلامي.

— صندوق لمساعدة الطلبة المتضررين بسبب الكوارث والحروب.

— تمويل جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الاسلامية.

— تنفيذ ووضع استراتيجية تطوير الثقافة العربية.

— دعم صندوق صيانة مدينة القيروان.

— وضع مشروع الموسوعة العربية الكبرى في حيز التنفيذ.

— المساهمة في برنامج البحر الأحمر وخليج عدن.

— المساهمة في برنامج الحزام الأخضر لدول شمال أفريقية.

— المباشرة في وضع استراتيجية تطوير العلوم في الوطن العربي.

— إنشاء قاعدة للمعلومات في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم باستخدام الحاسب الآلي.

● الفهرست

صدر العددان السادس والسابع من «الفهرست» الذي يتميز بشمولية لائحة مصادره التي تضم ١١٥ دورية (الملحق رقم ١) تصدر في مشرق العالم العربي ومغربه وتعالج مختلف حقول المعرفة والعلوم الانسانية.

يتميز «الفهرست» ايضا بنظام التكشيف العلمي الدقيق، الذي يوائم بين قوانين الفهرسة الحديثة، ومتطلبات لغتنا ونتاجنا الفكري، وبسهولة الوصول إلى محتويات الدوريات المدرجة على لائحة مصادره.

تاريخ لافاييت*

١٧٥٧ ـ ١٨٣٤



□ لافايت برفقة جورج واشنطن على الجبهة عام ١٧٧٧.

ولد بمقاطعة اوفرن بفرنسا في ٦ أيلول ١٧٥٧ وينتمي إلى اسرة ذات ثراء واسع وقد قتل والده في معركة مندن في ١٧٥٩ ثم توفيت أمه وهو في سن ١٣ فترك صبيا يتيما ذا ثروة كبيرة. وتزوج في سن ١٦ من ماري أدريان دي نواي التي توفيت في ١٨٠٧.

دخل لافاييت الحرس الملكي ووصل إلى رتبة كابتن حين أعلنت المستعمرات الانجليزية في أميركا استقلالها فكانت نواة دولة الولايات المتحدة، واحس لافاييت بالعطف على الثورة الأميركية فاستطاع عن طريق المندوب الأميركي في باريس، سيلاس دين، أن يعقد اتفاقا في ٧ كانون الأول ١٧٧٦ يدخل بمقتضاه لافاييت الخدمة العسكرية الأميركية برتبة ماجور جنرال. وكانت الأنباء التي ترد عن الموقف العسكري في أميركا تقول أن القوات الأميركية تتكبد خسائر فادحة واخذ أصدقاء لافاييت يحرضونه على العدول عن عزمه ـ ومن ناحية أخرى كان السفير البريطاني في فرساي يضغط على الحكومة الفرنسية لمنع لافاييت حتى صدر أمر ملك فرنسا بمنعه فعلا، وضبط لافاييت وهو يحاول الهرب من بوردو. على أن لافاييت استطاع الهرب من فرنسا إلى إسبانيا متخفيا في طريقه إلى أميركا ونزل بجوار جورج تاون ثم أسرع إلى فيلادلفيا.

وقدم لافاييت نفسه إلى الكونجرس الأميركي الذي أصدر قرار في تموز يوليو بقبول خدماته وتعيينه في رتبة ماجور جنرال في قوات الولايات المتحدة. وفي اليوم التالي التقى لافاييت بواشنجتون الذي أصبح له صديق العمر حتى أن لافاييت أطلق على ابنه الأكبر إسم جورج واشنجتون جوتييه دي لافاييت. وخاض لافاييت أولى معاركه في براندواين في ١١ أيلول ١٧٧٧ وجرح، وبعد ذلك بقليل حصل لافاييت على ما كان يتوق إليه وهو قيادة فرقة ورغم منصبه الجديد إلا أن فرقته في الواقع لم تضع عددا كبيرا من المقاتلين وخلال ١٧٧٨ أبلى لافاييت بلاء حسنا أشاد به الكونجرس الأميركي.

غير أن معاهدة التجارة والتحالف الدفاعي بين فرنسا والولايات المتحدة في ٦ شباط ١٧٧٨ تبعها مباشرة إعلان الحرب من جانب انجلترا على فرنسا، فدخلت فرنسا طرفا في الحرب إلى جانب الولايات المتحدة بصورة

رسمية. وعندئذ طلب لافاييت أن يسمح له إزاء الموقف الجديد بزيارة فرنسا لاستشارة الملك في توجيه خدماته. وبالفعل ترك أميركا في ١١ كانون الثاني ١٧٧٩ واستقبل في فرنسا استقبال الأبطال العائدين وعين برتبة كولونيل في فرقة الفرسان الفرنسية.

وغاب لافاييت عن فرنسا فترة ستة شهور واستمر يحارب في صفوف الثوار الأميركيين حتى انهت معركة يوركتاون عمله العسكري في الولايات المتحدة.وفي ٢٠كانون الثاني١٧٨٣أعلنت الهدنة بين الأطراف المتحاربة في الوقت الذي كان فيه لافاييت يفكر في تبني مشروع حملة مشتركة بين الاسبان والفرنسيين لمهاجمة بعض جزر الهند الغربية البريطانية.

وفي ١٧٨٧ احتل لافاييت مكانا في مجلس النبلاء وكان وحده يطالب الملك بدعوة مجلس الطبقات، وهكذا أصبح زعيما من زعماء الثورة الفرنسية. وفي ١٧٨٩ انتخب لمجلس الطبقات. ثم اختير نائب الرئيس في الجمعية الوطنية وفي ١١ تموز ١٧٨٩م قدم إعلان الحقوق المعدل من وثيقة جفرسون (المفكر السياسي للثورة الأميركية).

واختير لافاييت قائدا من قواد الحرس الوطني الجديد في باريس. وهو صاحب فكرة الشارة الفرنسية المثلثة الألوان (الكوكارد) التي ارتبطت بالثورة الفرنسية ــ وألوان التريكولور في العلم الفرنسي المثلث الألوان الأزرق والأبيض والأحمر وكانت الوان باريس هي الأحمر والأزرق فاقترح هو إضافة اللون الملكي الفرنسي وهو اللون الأبيض لترمز الالوان مجتمعة إلى فرنسا الجديدة.

وفي السنوات الثلاث التي تلت حتى سقوط الملكية الدستورية في فرنسا في ١٧٩٢ كان تاريخ لافاييت في الحقيقة هو تاريخ فرنسا نفسها.

وفي الجمعية التأسيسية طالب بإلغاء السجن التعسفي وبالتسامح الديني، والتمثيل الشعبي وبضرورة إقامة الحاكم على نظام المحلفين وبتحرير الرقيق تحريرا تدريجيا وبحرية الصحافة والغاء القاب النبلاء ووقف ظلم الطبقات الدنيا. وفي شباط ١٧٩٠ رفض القيادة العليا للحرس الوطني للملكة. وفي أيار الف (جمعية ١٧٩٠) التي اصبحت فيما بعد في ١٧٩٢ نادي الغوبان وهم جماعة الملكيين الدستوريين المعتدلين.

كان صديقا للحرية ولكنه يحترم النظام ايضا وحين هرب لويس السادس عشر إلى فارين أصدر امره بالقبض عليه وبعد ذلك بقليل أصبح ليفتنانت جنرال في الجيش ولكنه اعتزل الخدمة العسكرية.

وفي كانون الأول ١٧٩١ حين كانت ثلاثة جيوش تستعد لتهاجم النمسا وضع لافاييت على رأس واحد منها ولكنه كان يعارض بشدة استفحال نفوذ حزب اليعاقبة (الجمهوريين المتطرفين).

وفي ١٩ آب ١٧٩٢ أعلنت الجمعية لافاييت خائنا فهرب إلى ليج ببلجيكا وهناك قبض عليه باعتباره من أنصار الثورة الفرنسية ودعاتها فأسر خمسة اعوام في سجون بروسيا أولا ثم في سجون النمسا.. وفي معاهدة كامبيو فورميو (١٧٩٧) اشترط بونابرت إطلاق سراح لافاييت فعاد إلى فرنسا في ١٧٩٩ وفي ١٨٠٢ صوت ضد قنصلية نابليون لمدى الحياة وكذلك في ١٨٠٤ صوت ضد منح نابليون لقب امبراطور.

ومن ١٨١٨ إلى ١٨٢٤ كان لافاييت نائبا عن إحدى المقاطعات الفرنسية يتكلم ويصوت دائما في جانب العناصر الليبرالية ثم منذ ١٨٢٥ إلى وفاته كان نائبا في مجلس النواب عن مقاطعة أخرى وإبان ثورة ١٨٣٠ عاد إلى قيادة الحرس الوطني.

وفي ١٨٣٤ القى اخر خطاب له نيابة عن المهاجرين البولنديين وتوفي في باريس في ٢٠ أيار ١٨٣٤.

●

* هو المركيز جوزيف دي موتييه
(Joseph du Matier Lafayette

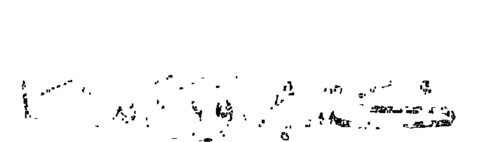


إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج. إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة اقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد

الإدارة




■ كتاب «الكافي في "بيزرة»
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ الطبعة الأولى
١٩٨٣ ــ ٤٢٣ صفحة ..... تأليف: عبد الرحمن بن محمد البلدي
حققه وقدم له وعلق عليه:
إحسان عباس وعبد الحفيظ منصور

■ معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث ــ الجامعة اللبنانية
الصورة التقليدية للمجتمع المديني
قراءة منهجية في مجلات محكمة طرابلس الشرعية
في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر
دار الانشاء ــ طرابلس ١٩٨٣ ــ ١٧٩ صفحة ...... د. خالد زيادة

■ **افريقيا والراي العام العربي**
دراسة تحليلية لاتجاهات الصحف العربية نحو أفريقيا
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ٢٢٥ صفحة .... د. عواطف عبد الرحمن

■ **وعي الوعي او الحكم المسبق والمسالة التربوية**
نصوص فلسفية عربية
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ١٨٤ صفحة .... د. انطوان ج. خوري

■ **فرانز فانون**
رؤيته لدور الكاتب والأدب الافريقي باللغة الفرنسية
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ١٥٧ صفحة .... د. سعاد شيخاني

■ سلسلة الكتب العلمية الميسرة

مبادىء تنظيم المدينة
معهد الانماء العربي ــ بيروت ــ ١٩١ صفحة ....
مصطفى فواز

■ **صندوق النقد الدولي والمساهمة السعودية**
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ٢٤٦ صفحة .... د. عز الدين صالحاني

□ حي من احياء المدينة المنورة القديمة. تبدو فيه البيوت ونوافذها ذات المشربيات، والميدان الذي يكون سوقا عامة في ساعات الصباح، ثم تجمع منه السلع والمتاجر، ليعود ميدانا ومتنفسا للحي.



الغلاف الأول:
□ مرفا مرسيليا التجاري كان همزة الوصل بين اوروبا والشرق الاوسط. (الصورة ماخوذة من مجلة «Histoire Magazine»، العدد ٣٧، ١٩٨٣).

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.